ثقافتُنا الوطنيّة في زمن التحوّلات

محمد الأحمد
وزير الثقافة

في عالمٍ متحوّل، وسط بحرٍ متلاطم من الصِّراعات على المستوى الكوني، تواجه الثقافةُ تحدياتٍ كبرى، وأُولى هذه التحديات تبدأ من وعي هذه المتغيرات وتأثيرها في الثقافة والهوية، ثم التفاعل مع هذه التحوّلات، ووضع الخطط المناسبة للتعامل معها، من خلال صحوةٍ عقلية ووطنية، ومن منطلق أن الفكر هو نتاج الواقع الحضاري، وهو مجموعة الآراء والأفكار التي يعبِّر بها الشعبُ عن اهتماماته ومشاغله، والحياة الفكرية لأيِّ شعبٍ هي تعبيرٌ، باللغة، عن هذا الانشغال والاهتمام والتطلُّعات والآمال والطموحات، وعن القيم والمثل، التي تشكِّل مجتمعة الحياة الفكرية والثقافية لمرحلة من المراحل.

في بلدنا الحبيب سورية، كان دائماً هاجس الخروج من الركود الفكري والثّقافي، الشغل الشاغل للسوريين حكومةً وشعباً ومثقفين حريصين بقوة

على أن تكون ثقافتنا الراهنة تعبيراً عن واقعنا الحضاري، وتأكيداً للهوية، وتعميق نظرة الإنسان إلى نفسه، ووعيه لمصيره.

تقوم الحكومة في الجمهورية العربية السورية، بوصفها الحاضن الأساسي والمهم للحياة الفكرية والثقافية بكل مستوياتها، بتأمين ما يلزم من رعاية لتنشيط الثقافة كمّاً ونوعاً، وبتوفير الشروط المناسبة للفكر، دون تدخّل أو توجيه إلا في حدود المستوى المطلوب للرعاية التي تقوم بها الحكومات عادة، في أي بلد، من منطلق التقدير والثقة بعقول المثقفين، وبمقدرتهم على صناعة الوعي وتوليد الأفكار وإنتاجها، وبوطنيتهم التي تتناغم بشفافية مع الإيقاع الوطني العام. ويحرص المثقفون الوطنيون على هذا التناغم التواشجي بين الذات والموضوع، دون النزوع إلى تناقضات حادة وهم قادرون على مواجهة التحديات بجدارة قلّ نظيرها.

الفكر، كما هو معروف، نتاجُ الواقع الحضاري، وثقتُنا كبيرة وعميقة للغاية بحضارتنا وبمفكرينا، الذين يشاركون، كلٌّ حسب إمكاناته، في مناقشة الخطط الثقافية، وابتكار الطرائق والمخارج، واقتراح الصيغ والتصوّرات والحلول المناسبة حول الحاضر والمستقبل. والمثقّفون، بالدرجة الأولى، هم أصحابُ الشّأنِ في ذلك، وتوفر الوزارة ما يلزم من وثائق ومراجع ومعطيات، ومكتباتُها ومراكزها المنتشرة في بقاع الوطن مفتوحةٌ للمبادرات بأنواعها ومستوياتها المتعددة. والواقع هو المنظومة العقلانيّة والمرجعية للمثقفين.

على المستوى الوطني، تقوم وزارة الثّقافة في الجمهورية العربية السورية بتشجيع ودَعـمِ المواهب والآراء والمقترحات، واستنفار العقول عبر

منابرها المتنوعة، وخلق جوٍّ رحب من المشاركة والحضور وتبادل الآراء في الندوات والمؤتمرات، التي ظلت – على الرغم من أجواء الحرب– حاضرةً، وهي تزداد اطّراداً مع تعافي البلاد ومع الانتصارات العظيمة التي حققها جيشنا العظيم، في بسط الأمن والاستقرار على معظم مساحة الوطن.

وتقوم المؤسسة الثقافية، بكل طاقاتها، على تمتين الأواصر بين أجيال المثقفين، وردم الهوّة بين جيلِ الأساتذة، والمثقفين الشّباب، الّذين ترفدُنا الحياةُ بهم باستمرارٍ وكرم.

التحدياتُ موجودة، ونحن جميعاً، على ثقة، بأنّنا سنكون بمستوى هذه التحديات.

كلمة العدد

مفاهيم

ناظم مهنا
رئيس التحرير

«لن أتقدم سوى لحظة ثم
أعود أدراجي مسرعاً إلى الظلام»
وولت ويتمان

تعليق القراءة

هذا تعبير لغاستون باشلار، ورد في كتابه: «جماليات المكان» ترجمة: غالب هلسا، وهو يتحدث عن علاقة القارئ بالشاعر وبالشعر، من خلال المكان الشاعري، وقيم الألفة التي يحرّضها المكان الشاعري. الأمر يحدث عندما نقرأ شيئاً مثلاً عن الحجرة، وبيت الطفولة والذكريات الأولى، وهذه تحدث عند القارئ هزة ما أو تعتريه رجفة، تجعله يتوقّف عن القراءة، ليدخل في تداعي الذكريات الخاصة به، أو يلج بوابة حلم اليقظة الذي يطول أو يقصر، حين تزدحم روح القارئ بالأصداء، ويعيش ذلك النوع من الذبذبات التي تمنحه طاقة البدء للوجود.

القارئ يستجيب لقيم الألفة المكانية هذه، ويتوقف عن القراءة ويضع الكتاب جانباً ليسترجع مكاناً ينتسب إلى ماضيه، وهذا نوع رفيع من الاستجابة لقراءة الشعر أو لتلقّي الأدب أو التفاعل مع الفنون البصرية أو السمعية.

إنك، وأنت تقرأ كلمات الشاعر عن حجرته، تشعر بأنك تودُّ أن تروي كل شيء عن حجرتك، وأن تثير اهتمام الآخرين بك. ويقول باشلار: «إن قيم الأُلفة تمتلك جاذبية تجعل القارئ يتوقف عن قراءة كلماتك (الشاعر) لأنه يصغي لذكرياته هو».

المعادل الموضوعي

مفهوم دارج في النقد الأدبي، كرّسه الشاعر ت.س. إليوت في كتاباته النقدية، وفي مقال كتبه إليوت عام (١٩١٩م) بعنوان: «هاملت ومشكلاته»، يقول: «الطريقة الوحيدة في التعبير عن الانفعال في شكل فني، تكون بإيجاد (معادل موضوعي) أو إيجاد مجموعة من الموضوعات؛ مواقف، سلسلة من الأحداث، تكون صيغة معادلة لذلك الانفعال (الخاص)، بحيث إنه حين تعطي الوقائع الخارجية التي تنتهي بالتجربة الحسية، يستثار الانفعال فوراً».

الفجوة (مساحة التوتر الإيقاعية)

الفجوة، كما يقدّمها كمال أبو ديب في كتابه «الشعرية»، يقول: ينشأ الإيقاع من تكرار ظاهرة صوتية على مسافات معينة وبطبيعة مغايرة للظواهر الصوتية الأخرى في النص. شرط الإيقاع الجوهري، هو انعدام الانتظام المطلق، أي وجود فجوة، أو مسافة توتر بين المكونات الإيقاعية.

عند تشومسكي توجد البنية السطحية والبنية العميقة، وباستخدام مفهوم تشومسكي، يمكن أن يقال: إن الشعرية وظيفة من وظائف العلاقة بين البنية العميقة والبيئة السطحية، وتتجلى هذه الوظيفة في علاقات التطابق المطلق أو النسبي بين هاتين البنيتين، فحين يكون التطابق مطلقاً تنعدم الشعرية أو تخفُّ إلى درجة الانعدام تقريباً. وحين تنشأ خلخلة وتغاير بين البنيتين، تنبثق الشعرية وتتفجر في تناسب طردي مع درجة الخلخلة في النص.

ويقول أبو ديب: «النص الشعري هو باستمرار نص من الاحتمالات والإمكانات، لا نص تقريري، نص يمتلك أبعاداً لا تنكشف أبداً، أو لا تنكشف إلا بعد لأي، وأبعاداً

تتكشف خطوة خطوة، لأنـه جوهرياً نص ينبني على فجوة، وهـذه الفجوة هي عالم الإمكانات والاحتمالات والظلال والإيحاء والنغم الباطني الخفي في عالم التوتر القائم بين اللغة الاستعارية والكنائية ولغة التقرير المباشر».

وأخيراً يقول ابن سينا، وكأنه يشير إلى الفجوة أو ذاك التوتر: «لا يوقع القياس الشعري تصديقاً. لكن، يوقع تخيلاً محركاً للنفس إلى انبساط وانقباض، من خلال محاكاة أمور جميلة أو قبيحة».

البوفارية

البوفارية، نسبة إلى مدام بوفاري، بطلة رواية غوستاف فلوبير التي تحمل الاسم نفسه، وقد صارت تعبيراً مرادفاً للهروب من الواقع، عن طريق اختلاق الإنسان لنفسه شخصية خيالية مثالية.

يذكر روجيه غارودي هذا المفهوم في السياق الآتي: «لا أريد الانخداع بأي وهم، إن نيتشه في رأي غواتييه هو مثال الفيلسوف صاحي الفكر الذي لا يريد الانخداع بأي وهم، وهو تجسيد مسبق لفيلسوف الغد الذي ستكون سمته الأولى (غياب البوفارية)».

ورأى سارتر في رواية فلوبير «مدام بوفاري» علامة مهمَّة من علامات تاريخ الرواية الحديثة. إنها هزيمة وانتصار للرواية في وقت واحد، لأنها تمثل مفترق طرق بين الروايتَيْن التقليدية والحديثة، إنها همزة الوصل والفصل بين الرومانسية والواقعية بين استندال وبلزاك».

إيثاكا

هي مدينة أوليسيس أو أوديسيوس، بطل الأوديسة الهومرية، وهو ملك إيثاكا وزوج بينلوبي، وصاحب فكرة حصان طروادة. خاض بعد حرب طروادة رحلة شاقة، وضياعاً طويلاً في طريق العودة، للوصول إلى مدينته، وتقع إيثاكا في سواحل أيونيا (الأناضول).

الشاعر الإسكندراني اليوناني كفافيس استخدمها في قصيدة، وتحوّلت على يديه إلى مفهوم ومعنى ممركز يدل على أولوية الخبرة والتجربة، وغدت الكلمة مرادفاً للمعرفة النابعة من التجربة، وتفيد قصيدة كفافيس، أن الرحلة، وليس الوصول، هي المكافأة الأهم.

تقول القصيدة:

«أنت تزمع الرحيل إلى إيثاكا
فلتصلِّ من أجل أن يكون الدرب طويلاً
مملوءاً بالمغامرات والتجارب
لا تخف الليستريغونيين والسيكلوبات وبوزيدون الغاضب
فلن تراهم مادمت متسامي الفكر
وما دامت عاطفة نادرة تلمس روحك وجسدك...
لقد وهبتك إيثاكا الرحلة الرائعة
ومن دونها لم يكن بإمكانك الرحيل
وليس لديها ما تهبك سوى هذا
إن وجدت إيثاكا فقيرة، فهي لم تخدعك
لقد أصبحت حكيماً واسع الخبرات
وأدركت الآن ما يعني هؤلاء الإيثاكيون».

❁ ❁ ❁

الدازاين أفقاً لمعنى الوجود في أنطولوجيا هيدغر

د. علي محمد إسبر

أراد الفيلسوفُ الألمانيُّ المعاصر مارتن هيدغر (١٨٨٩-١٩٧٦م) البحث عن جواب للسؤال المتعلّق بمعنى الوجود، لكن المفاجئ في الأمر هو أنَّ هذا الفيلسوف جاء إلى الفلسفة من عالم الإيمان الديني المسيحي على وجه العموم وعالم الإيمان الكاثوليكيّ منه على وجه الخصوص، بمعنى أنَّ هيدغر كما يثبت استقصاء سيرة حياته كان يسير في اتجاه أن يصير رجلَ دين، مسيحيّاً من حيث إنه كان يتكوّن ثقافيّاً على أساس فكر خصيص بنزعة لاهوتيّة مسيحيَّة واضحة؛ وقد قاده هذا الفكر اللاهوتي نفسه إلى الدخول في مجال الدراسات الفلسفية- اللاهوتية التي تنحاز بحيز الفلسفة المدرسية المُحْدثة، وقد تأثَّرَ هيدغر في هذا المجال بعدد من أساتيذه الذين ينزعون نزعة مدرسيَّة واضحة مثل كارل برايغ، وفي حقيقة الأمر انساق هيدغر بفعل ذلك إلى الاستغراق في مسائل الوجود، ومن ثَمَّ تطوَّر تفكيره حتى راح يتساءل عن طريقة تتيح له أن يجد المدخل المناسب لطرح السؤال عن معنى الوجود، وهنا يتبيّن أمر في غاية الأهمية وهو أنَّ هيدغر في بدايات تجربته الفلسفيَّة لم يصدر عن موقف فينومينولوجي؛ وإنما كان تفكيره منحازاً بحيز الفلسفة السيكولاستية أو المدرسيَّة، لأنَّ معلّميه الأوائل كانوا في غالبيتهم من المفكّرين المنتمين إلى نزعات لاهوتيَّة وفلسفيَّة وسيطة.

ولا غَـرْوَ فـي أنَّ هيدغر استند إلـى آراء الفلاسفة المدرسيين فيمـا يتعلَّق بموقفهم من مسألـة الوجود، وهنا تظهـر عناصر ميتافيزيقيـة - لاهوتيَّة في فكـر هيدغر عندما كان فـي بدايات محاولاتـه الاقتراب من وضع تصوّر عـن مشكلة الوجـود، إذ كان هيدغر غير قادر آنذاك على التمييز بصـورة منهجية دقيقة بين اللاهوت الديني والميتافيزيقا بالمعنى الفلسفـي البحت، فقد وجد فيهما إمكاناً للبحث دعَّمه هو نفسه باللجوء إلى نزعات فلسفيَّة معاصـرة وآراء لفلاسفة مدرسيين محدثين؛ لكن سـوف يقوم هو نفسه بانقلاب على توجُّهه الفلسفـي هذا الـذي سيطر عليه في مرحلة الشباب، بطريقة استطـاع أن يتخلّص فيها من كلّ الحشـو اللاهوتي والميتافيزيقي، وأن يُبقـي على ما اعتقد أنه يمكن أن يُسهم في تكوين تصـوره المنهجي الجديد لمَّا وجد أنه المنهج المناسب لتناول مشكلة الوجود ألا وهو المنهج الفينومينولوجيّ. وقد أراد هيدغر بعد ذلك اجتراح منهج يحصّل بوساطته الجواب عن سؤال الوجود، فانتهى به ذلك إلى فلسفة ذات طابع نسقيّ جمع فيها الأنطولوجيا والفينومينولوجيا والهيرمينوطيقا، إذ لا يعني انتماء هيدغر إلى الفلسفة الوجوديّة التي تُعنى بالوجودِ الإنسانيّ العينـيّ أنه فيلسوفٌ لا يعوّل على التفكيـر المنهجيّ بقصد وضع نسقٍ فلسفيٍّ وجوديّ يهدف منه إلى تفسير شامل لمعنى الوجود في جملته الجامعة.

وكان هيدغر قد تنبّه إلى سؤال الوجود منذ ريعان شبابه من جرّاء تأثُّره بالمؤلف الفيلسوف وعالم النفس الألماني ذي النزعة المدرسيّة فرانتس برينتانو «في المعنى المتنوّع للوجود عند أرسطـو طاليس»، فلاحظ أنـه حتى في حال سلّمنا بأنَّ الوجود يُقال بمعانٍ متنوّعة، فإننا لن نصـل إلى معنى الوجود، لأنه لا بدَّ من التساؤل عـن التحديد المركزيّ البسيط الذي يتخلل هـذه المعاني أنفسها. وهنا كان ابتداء إثارة مشكلـة الوجود في فكر هيدغر، ويؤكد هيدغر نفسه تأثّره ببرينتانو قائلاً:

«إنَّ الكتابـة الفلسفية الأولى التي عملتُ على أساسها مرَّة بعد أخرى منذ عام (١٩٠٧م) فصاعـداً، كانت أطروحة دكتـوراه لـ«فرانتس برينتانو» (في المعنـى المتنوِّع للموجود عند أرسطوطاليسـ). وقد دوَّن برينتانو علـى صفحة العنوان في عمله جملة مأخوذة من أرسطو، وهـي: الموجودات تصيرُ ظاهرةً بطرائق متعدِّدة (أعنـي بقصد وجودها). إنَّ ما هو مخفيٌّ في هذه الجملة هو السؤال الذي حَدَّد طريقة تفكيري: ما التحديد المركزي البسيط للوجود الذي يتخلَّل معانيه المتنوِّعة؟ ماذا عندئذٍ يعني الوجود؟».

وقد اطلع هيدغر في معرض عنايته بفلسفة برينتانو -لكن من منطلق تأثّره بالفلسفة المدرسية الجديدة التي أحياها برينتانو برجوعه إلى أرسطو- على كتابات الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل بصفته تلميذاً وشارحاً لـ«برينتانو»، من حيث إنّه يمكنه الاستناد إليها فيما يتعلّق باستئناف بحثه في مسألة الوجود؛ غير أنَّ هيدغر وجدَ مثالب عدّة في هذه الكتابات نفسها التي أسّس فيها هوسرل لـ«الفينومينولوجيا phenomenology»، أي علم وصف ظواهر الوعي، إذ إنَّ فينومينولوجيا هوسرل بتأكيدها أولويّة الوعي على الوجود جعلت من الذات المتعالية مركز الوجود والواهبة لمعناه.

ولئن رفض هيدغر الذات المتعالية التي كانت نتيجة نهائيّة لفينومينولوجيا هوسرل والتي يتحدَّد على أساسها معنى الوجود؛ إنه قد وجد في المنهج الفينومينولوجيّ فعالية أكيدة في مساعدته على إنجاز مشروعه الفلسفيّ المتمثّل في البحث عن إجابة للسؤال المركزيّ المتعلّق بمعنى الوجود، إذ أُعجب هيدغر بالمنهج الفينومينولوجيّ الذي يتعاطى مع الوجود بصفته ظواهر دون إرجاعه إلى علل أو أسباب أو مبادئ مطلقة. ولن يتحقق ذلك في رأي هيدغر إلا إذا صُحِّحَ المنهج الفينومينولوجيّ لتخليصه من إسار الذات المتعالية التي جعلت الوجود تابعاً للوعي -وهذا ما يرفضه هيدغر نهائيّاً- لذلك اتجه هيدغر نحو البحث عن أصول للفينومينولوجيا في التراث الفلسفيّ اليونانيّ؛ ذلك من أجل إثبات أنَّ الفينومينولوجيا بوصفها منهجاً للبحث الفلسفيّ لم تظهر مع إدموند هوسرل فحسب؛ وإنما ترجع أساساً إلى التراث الفلسفيّ اليونانيّ عامة، وتراث أرسطو الفلسفيّ خاصّة.

وعليه، حاول هيدغر اكتشاف الأصول الحقيقيّة للمصطلح فينومينولوجيا؛ ذلك بإرجاعه في أُفق تأويلات محدّدة لفلسفة أرسطو إلى اللفظتين اللتين يتكوّن منهما في الأصل اليونانيّ وهما: ظاهرة، وقول، وكلاهما يرجع إلى المصطلحين اليونانيين: فينومينون φαινομενον بمعنى: ظاهرة، ولوغوس λογος بمعنى: قول.

ويصل هيدغر من تأويله لآراء أرسطو في هذا المنحى إلى أن يحدِّد معنى الظاهرة في أُفق الفينومينولوجيا على أساس أنَّها هي التي تمثّل الموجود، لذلك، الفينومينولوجيا بوصفها ما يتناول الظواهر هي في الوقت نفسه علم الموجودات؛ لأنَّ الموجودات الحقيقية، في رأي هيدغر، هي الظواهر. وبذا ينزع هيدغر بالفينومينولوجيا منزعاً أنطولوجياً.

ويستنتج هيدغر أنَّ الفينومينولوجيا يجب أن تعني قولاً كاشفاً للظاهرة يجعلها تظهر من تلقاء نفسها دون أيّ إقحام للوعي في هذا الإظهار. وبذا ينجز هيدغر مهمة تقويض ذاتيّة الوعي، ويؤصّل المنهج الفينومينولوجيّ، تأويليّاً، في الفلسفة الأرسطوطاليّة، إذ انطلاقاً من هذه الرؤية المُعَمَّقة التي يستند فيها هيدغر إلى تأويله لنصوص أرسطو عامة، وإلى كتاب أرسطو «في النَّفْس» خاصّة، تحديداً ما يتعلّق من هذا الكتاب نفسه بتحليل أرسطو لإبصار الظواهر، أي العلاقة بين البصر والمرئي، يصل إلى أنَّ للصورة المقام الأول دائماً، مؤكّداً أنَّ الصورة تعني الظاهرة، ولذلك «الظاهرة هي الموجود أو الكيان نفسه».

غير أنَّ المشكلة هنا هي أنَّ هيدغر على الرغم من محاولته إعادة تأسيس الفينومينولوجيا من منظور تأويليّ لنصوص أرسطو، معتقداً أنّه تجاوز الذاتيّة المتعاليّة، بما تفضي إليه من نزعة نحو المثالية الذاتيّة؛ انتهى إلى ضرب من المثاليّة الوجوديّة من حيث تأكيده أنَّ الموجود الحقيقيّ هو الظاهرة التي تظهر من تلقاء ذاتها، لكن على أساس الرؤية الفينومينولوجيّة لهذه الظاهرة نفسها؛ ذلك أنَّ هيدغر يؤكد -كما يقول فؤاد كامل- «أنَّ الوجود «ليس إلا» ما يظهر لنا. وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول عن موقف هيدغر إنه يقترب كل الاقتراب من أن يكون «مثالية وجودية». وهنا أيضاً يختلف هيدغر عن أستاذه هوسرل الذي يضع الوجود «بين قوسين»...

والحق أن هيدغر يضعنا بهذا الموقف في قلب «النزعة النسبية»...، وهذا الافتراض الأولي هو الذي يسمح لهيدغر بالجمع بين «علم الوجود» و«علم الظواهر»... بحيث لا يتحقق أحدهما من دون الآخر. وبهذا التوحيد أيضاً يفقد «علم الوجود» كل مضمون «ميتافيزيقي» حين يخضع لهذا المنهج الظاهري...».

كما أنَّ اقتناع هيدغر بسبب تأويله لنصوص أرسطو أنَّ اللغة اليونانيّة وحدَها هي محلّ إجلاء القول الكاشف للوجود، يدلّ على خلل منهجيّ في فهم حقيقة اللغة التي هي ظاهرة عالميّة تضرب بجذورها في أعماق الحقيقة الإنسانيّة، بمعزل عن أنَّ الإنسان من هذا العِرق أو ذاك، إضافةً إلى ما ترتب على ذلك من نظرة هيدغر الاستنسابيّة إلى تاريخ الفلسفة، إذ عدّ الفلسفة في عمقها يونانية- ألمانيّة.

كما أنَّ هيدغر لم يكن دقيقاً دائماً في تأويلاته للمقاطع التي استند إليها من مؤلفات أرسطو، لأنّه أقحم على المتن الأرسطوطاليّ تصوراته الخاصة التي لا يحتملها هذا المتن نفسه، ما يدلّ على وجود مشكلات في توجّه هيدغر التأويليّ.

اعتقــد هيدغر أنه بتأويله نصوص أرسطــو استطاع تهيئة المنهج الفينومينولوجي للكشف عــن معنى الوجود، لذلك أقدم على وضع القواعد التي يمكن الاستناد إليها في صياغة السؤال الواجــب تقديم جواب عنه، أي السؤال عن معنى الوجود، نظراً لما يحظى به هذا السؤال أولاً من أولويّة أنطولوجيّة أو وجوديّة ontological priority تتعلّق بالوجود عامّة، وثانياً لما يقتضيه من أولويّة أنطيقيّة أو موجوديّة تتعلّق بالموجودات، وفي مقدّمتها الموجود البشريّ خاصّة.

ومــن هذا المنطلق استقصــى هيدغر عن المدخل المنهجــيّ المناسب الذي يُقيّض له الشــروع فــي بحثه في الوجــود، فعثر عليه في الموجــود البشريّ الذي حــدّده اصطلاحيّاً بـ«دازاين Dasein». وقد ركّب هيدغر مصطلح دازاين من ضم لفظتين ألمانيتين Da وتعني هنا أو هناك إلى لفظة sein وتعني الوجود، فتعني الترجمة الحرفيّة لهذا المصطلح **الوجود هنــا أو الوجــود هنــاك**. ويعني هيدغــر بالدازاين العلاقة التي يقيمهــا الموجود البشري مع الوجــود، إذ إنَّ الدازاين يمكن أن يكون وجــوداً أصيلاً باتجاهه نحو البحث عن إجابة لسؤال الوجــود، أو يمكن أن يسقــط الدازاين في الوجود الزائف إذا تخلى عن عنايته بالوجود. وبذا صار الدازاين من حيث هو الموجود الأمثل لكشف معنى الوجود نقطة التداخل بين الأولويتين الأنطولوجيّة والأنطيقيّة أو الوجودية والموجوديّة.

«الدازايــن هو موجود لا يتبــدى وسط الموجودات الأخرى فحســب. بالأحرى إنَّه متميز أنطيقيــاً ontically distinguished بسبــب أنَّ وجوده يكون مسألة بالنسبــة إليه. وهذا يُعَدّ كينــةً جوهرية لوجــود الدازاين، بما يدل على أنّ الدازاين، في وجوده، يحوز علاقة نحو هذا الوجود- يكون فيها موجوداً في الوجود... إنَّ فهم الوجود هو نفسه خصيصة محددة لوجود الدازايــن، إذ إنَّ الدازايــن يكون أنطيقياً متميزاً في ذلك الذي يكــون أنطولوجياً Dasein is ontically distinctive in that is it is ontological».

يتجه هيدغر نحو تبيان أن الدازاين متميز عن سائر الموجودات في الوجود، فهو لا يوجد كمــا توجد بقية الموجودات الأخرى من جمادات وعجماوات ونباتات، التي لا يُلاحظ لها أي اكتراث بالوجود. ومردّ ذلك إلى أنه وحده من بينها يمتلك خصيصة نادرة لا يمكن لأي موجود آخــر على الإطلاق أن ينالها، ألا وهي القدرة علــى التساؤل عن معنى الوجود، وإذا كان ذلك كذلــك، فإنَّ هذا الموجود هو على وجه الخصوص معنيٌّ بمسألة الوجود، وهنا يجب الانتباه إلــى أنَّ الدازاين من جهــة موجوديته، أي من جهة أنّه موجودٌ بيــن الموجودات في الوجود،

ينال ميزة ترتبط به أعمق ارتباط، فموجوديته لا تعني اقتصاره على الحياة بمعانيها الشائعة من تغذيـة وتناسل وعمل... فحسب؛ بل هذه الموجودية، مأخـوذةً بذاتها، لا بدَّ من أن تعني الاكتراث بالوجود، أي إنَّ الدازاين من حيث هو موجود في الوجود يُعنى تماماً بطرح السؤال عـن وجوده، لكن هـذا السؤال لا يتعلق بنمط وجود الدازاين على وجـه الحصر، وإنما يمتد ليشمل معنى الوجود من حيث اكتنافه لسائر الموجودات. وهذا يؤول إلى أنَّ الموجود الوحيد فـي الوجود الذي يكون قادراً على فهم الوجود بما يتضمن من موجودات هو الدازاين. وهذا يعنـي أنَّ له خصوصية أنطيقية أو موجوديـة تمده بمقدرة ذات أساس أنطولوجي، أي أساس يتعلـق بعلم الوجود في عمقه الأصيل. وهنا ظنّ هيدغر أنّه حقّق منهجيّاً إمكانيّة الجمع بين الأنطولوجيا والفينومينولوجيا لينتهي إلى أنطولوجيا فينومينولوحيّة أو علم وجود ظاهرياتيّ يكون موضوعه الدازاين، بصفته أفقاً لكشف معنى الوجود.

لكن، العقبة التي ستعترض هيدغر على المستوى المنهجيّ في هذا الاتجاه تتبدّى في أنَّ الدازايـن موضوعٌ للبحث، وهو في الوقت نفسه من يقـوم بعمليّة البحث، إلا أنَّ هيدغر أصرّ علـى تكملة هذا المسار، معتقداً، أنَّ توجيه علم الوجـود الظاهريّاتيّ إلى الدازاين، لا بدّ أن يؤدي إلى إظهار الدازاين نفسه من تلقاء نفسه من جهة انجلائه في الظاهرة التي هي رئيسة إلـى أبعد مدى بالنسبة إليه، أي وجوده-في-العالم، لذلك إنَّ الاستخبار عن وجود الدازاين-في-العالـم، سيُظهر أنَّ نمط وجود الدازايـن وهو (الانوجاد Existenz= existence) يختلف عن (الوجود Sein= Being) ففي حين توجد الموجودات كلها، فإنَّ الدازاين وحده يَنْوَجِد، أي ينفعل بانوجاده، أو يدخل في حالة من الوجد أو الشوق معه؛ ذلك بسبب أنّ الدازاين ينزع إلى تحقيق إمكاناته خارج ذاته في العالم، ولا شك في أنَّ أيّ باحث في فلسفة هيدغر سيُعاني من صعوبـات تتصل بالتمييز بيـن دلالات اصطلاحاته فيما يتعلّق بمقابلاتها في اللغات الأخرى ومنها اللغة العربيّة، إذ من الصعوبة بمكان التمييز بين existence وbeing، لأنَّ اللغة العربية لا تحتمل بسهولة مثل هذا التمييز.

وقد كانت المشكلة نفسها قائمة في ترجمة ماكوري وربنسون لكتاب هيدغر «الوجود والزمان»، إذ ترجما اللفظة Sein إلى الإنكليزية بـ Being، وترجما اللفظة Existenz بـ Existence. والحقيقة أنَّ اللفظة Being في اللغة الإنكليزية تنطبق على الكائن الحي عامة being وعلى الإنسان خاصة a human being، وعلـى الله the supreme Being، ولذلـك لا تقتصر دلالتها على الموجودات مـن دون الإنسـان، لكنها لا تشمل الدازاين في اللغة الإنكليزية، وفـق تساوق الترجمة الإنكليزية

مـــع المتن الهيدغري؛ لأن ما يشمل وجود الدازاين هـــو اللفظة Existence؛ غير أنَّ هذه اللفظة فـــي اللغة الإنكليزية من حيث الأصل لا تدل على نمط وجود الدازاين على وجه الحصر فحسب، بل تعني الوجود العـــام، والموجودية، والمعيشة، والعيش، والحياة؛ إلا أنَّ ماكوري وربنسون حمَّلا هاتيـــن اللفظتين دلالتيهما وفق فلسفة هيدغر دون تقويض جوهر اللغة الإنكليزية، وهذا ينطبق علـــى محاولتنا التمييز بين الانوجاد والوجود، علماً أنّه توجد محاولات لاستخدام لفظة الانوجاد بهذا المعنى عند بعض المترجمين لكنها تفتقر إلى التأسيس الكافي.

ومهما يكن من شيء، فإنَّ التمييز الذي أجراه هيدغر بين Sein و Existenz أو بين الوجود والانوجـــاد كان لـــه قيمة كبيرة على المستـــوى المنهجيّ، إلا أنّه أوقـــع هيدغر في مشكلات معقّـــدة، إذ بناءً علـــى هذا التمييز نفسه وصـــل هيدغر إلى تعميمات مـــن منطلق انوجاديّ سيطبقها على ما هو وجوديّ، أي إنّه من تحليله الأنطولوجيّ-الفينومينولوجيّ للدازاين يصل إلى نتائج تنتمي، أساساً، لتركيب انوجاد هذا الموجود وحده، لكنه سيُعَمّمها على الوجود في جملته الجامعة، وكأنَّ الوجود مجال خاصّ بالدازاين أو بالموجود البشريّ وحده.

«ســـؤال الانوجـــاد existence لا يمكن أبداً أن يستقيم أو أن يكـــون سديداً إلا عبر عملية الانوجاد نفسه. فهم المنوجد لنفسه الذي يرشد على طول هذه الطريق ندعوه فهماً انوجادياً existentiell. ســـؤال الانوجـــاد هو شأن من شـــؤون الدازاين الأنطيقيـــة The question of existence is one of Dasein 's ontical affaires..

هـــذا لا يتطلب أن البنيـــة الأنطولوجية للانوجـــادontological structure of existence ينبغي أن تكون نظريّاً شفافة.

يرمـــي السؤال عن البنية إلـــى تحليل ما يؤلف الانوجـــاد what constitutes existence. سيـــاق بنيات كهذه نحن نسميه الوجـــوديّ existentiality. تحليليتهـــا (أي هذه البنيات) لها طابع فهم ليس انوجادياً existentiell، بل بالأحرى هو وجودي existential. إنَّ مهمةً تحليليّةً وجوديّةً للدازاين متصوَّرةٌ مقدَّماً، فيما يتعلق على حدٍّ سواء بإمكانيتها وضرورتها، في التأليف أو التكوين الأنطيقي للدازاين».

وقد آل التمييز بين الوجود والانوجاد بـ«هيدغر» إلى اجتراح منهجيتين اقتضتهما حركيّة بحثـــه عن إجابة لسؤال الوجود، هما: التحليليّة الانوجاديّة existentiall analytic، والتحليليّة الوجوديّة existential analytic. وكما هو ظاهر، فإنَّ التحليليّة الانوجاديّة تتعلق بكشف انوجاد

الدازاين؛ في حين التحليلية الوجودية تتعلّق باستخدام نتائج التحليليّة الوجوديّة للوصول إلى معنى الوجود في جملته الجامعة. وقد اضطر هيدغر إلى ابتكار هاتين المنهجيتين، لأنه لم يقدر، منهجيّاً، على ضبط حدود الموضوعات التي يتناولها، إذ يمكن أن تكون مرّة عينيّة ومرّة أخرى كليّة، فهو ينتقل على هذا المستوى من الوجود البشريّ خاصّة إلى الوجود الشامل عامّة، وينتهي إلى نتائج مختلطة.

وعليه، ولئن كان هيدغر قد حدد مهمة التحليليّة الانوجادية بالفحص عن فهم الدازاين وتقريره لكيفيّة انوجاده في الحالات الأساسيّة التي تكتنفه في هذا الاتجاه، إنه عاد واستند إلى نتائج هذا الفحص عينه، من حيث إنّه ولو كانت التحليليّة الوجوديّة التي اجترحها تكملةً هنا تُعنى بما يؤلّف التراكيب الكليّة للانوجاد، إلا أنها تقوم بذلك وهي تستمد مشروعيتها من التحليليّة الانوجاديّة، بما أسفرت عنه من تحديد للظواهر العينيّة للانوجاد.

ويفضي الكشف عن معنى انوجاد الدازاين إلى تبيان أنّه يتجلّى في زمانيته، أي في تخارجاته في الماضي والحاضر والمستقبل. وهنا يُلاحظ أنَّ هيدغر يماهي بين نمط وجود الإنسان وموقوتيته في الحياة، لكن هذه المُماهاة سوف تفضي إلى إحلال الزمان محلّ الوجود بطريقة تعسفيّة. وهنا لم يعدّ في وسع هيدغر سوى أن يفهم الوجود نفسه على أنّه زمان، وعوضاً عن أن يقدّم المسوّغات لذلك، رجع إلى زمانيّة الدازاين وعدّها أساس تاريخيته التي تعني انغماسه في تجاربه كلّها بين الولادة والموت على أساس تخارجاته الزمانيّة، واستيعاء ذلك ولاسيّما هو المنطلق الوحيد لفهم زمانية الوجود عامّة.

ويؤكد هيدغر هنا أنَّ الزمانية هي الشرط الذي يجعل التاريخيَّة historicality ممكنة بوصفها نوعاً زمانيّاً للوجود يمتلكه الدازاين نفسه، بمعزل عن التفكّر فيما إذا كان، أو كيف الدازاين يكون موجوداً في الزمان، فالتاريخية على وجه الحقيقة هي ما تقتضيه الزمانية من حيث هي معنى انوجاد الدازاين على قاعدة أنها تهب الدازاين أساليب محددة للتحقق في العالم.

إنَّ التاريخيَّة، بوصفها خاصة محددة، هي سابقة على ما يُدعى التاريخ history (التأرُّخ التاريخي للعالم world-historical historizing)[1].

من هنا، التاريخية Historicality تنهض من أجل كينة الوجود التي هي أساسية بالنسبة إلى تحقُّق تأرخ الدازاين Dasein' s historizing بما هو؛ إنه على أساس هكذا فحسب تحقُّق

للتأرُّخ، يكون شيء مثل تاريخ العالم world-history ممكناً أو يُقيِّض لشيء أن ينتمي بموجب التاريخ historically إلى تاريخ العالم.

غيـر أنَّ تاريخيّـة الدازاين من حيث هـي نابعة من صميم انوجاده تُعَـدُّ شرط الكتابات التاريخيّـة عن حقيقة الدازايـن، لذلك أيمكن أن يُنظر إلى هذه الكتابـات التاريخيّة نفسها بصفتها التعبير النهائيّ عن البنية الأنطولوجية للدازاين؟

إنَّ الجـواب عن هذا السـؤال يكون بالنفي، لأنَّ الدازاين يجـب ألا يُفهم في أُفق التراث الفلسفـيّ عامّة، والتراث الأنطولوجيّ خاصّة، لذلك انبثقـت مهمة منهجيّة عاجلة يقتضيها الوصـول إلى جواب عن سؤال الوجود، هـي تقويض تاريخ الأنطولوجيا في الفلسفة الغربيّة، وبمـا أنَّ هذه المهمة مستحيلـة، لسعتها الهائلة، اختار هيدغر منهجيّـة انتقائيّة في عمليّة التقويض محورها التصورات الموضوعة فيها عن الزّمان.

وقـد ارتأى هيدغر في هـذا السياق أنه «إذا كان ضرورياً بالنسبـة إلى سؤال الوجود أن يحـوز تاريخه الخاصّ مُصيَّراً إياه مُشفّاً بالنسبة إليـه، عندئذ التراث المتجسِّئ hardened tradition يجـب أن يُستطلـق، واستتاراته التي أحدثها يجب أن تُنزع. نحن نفهم هذه المهمة بوصفها مهمة فيها يُؤخذ سؤال الوجود على أنه تفسرتنا، علينا أن نقوِّض[٢] المحتوى التراثي للأنطولوجيا القديمة إلى أن نصل إلى تلك التجارب الأصلية التي فيها أنجزنا طرائقنا الأولى لتحديد طبيعة الوجود، والطرائق التي انسقنا إليها منذ ذلك الوقت».

لكـن، تظهـر مشكلة عميقة ها هنا في طريقة تفكير هيدغر، إذ لـم يؤسِّس لرؤية نقديّة موضوعيّـة لمعنى تاريـخ الأنطولوجيا، لأنّه أغفـل أنه إرثٌ إنسانيٌّ مشتـركٌ، واختزلها في المـوروث الفلسفـيّ اليونانيّ عامّـة، والألمانيّ خاصّة، ويظهر ذلك فـي إشادته بالفيلسوف الألمانـي أمانويل كانط kant، إذ عـدّهُ الفيلسوف الوحيد الذي ربـط الوجود بالزمان في تفسيراته، وهذا في رأي هيدغر نجاح باهر، لأنه لا يصح فهم الوجود إلا على أساس الزمان. لكـن حتى إمانويل كانـط ظلّ في رأي هيدغر عاجزاً عن فهـم العلاقة العميقة بين الوجود والزمان، بسبب أنّه لم يصل إلى الحدود القصوى من فهم علاقة الوجود بالزمان.

ويبيّن هيدغر وجهة نظره في هذا الاتجاه بتأكيده أنَّ الشخص الأول والوحيد الذي تقدَّم أيّ نُدحةٍ في الطريق نحو عملية استقصاء بُعد زمانية الوجود dimension of Temporality أو حتـى ترك نفسـه ينساق إلى هذا المكان بفعـل إرغام الظواهر، من حيـث إنها المجال

الوحيد في الوجود المتاح للمعرفة هو كانط. ومن هنا فحسب عندما نؤسس مشكل الزمانية problematic of Temporality ، تتضح التخطيطية schematism. لكن هذا سوف يظهر لنا أيضاً لماذا هذه المنطقة قد بقيت مستغلقة بالنسبة إلى «كانط Kant» في أبعادها الحقيقية وفي وظيفتها المركزية الأنطولوجية.

إنَّ ما يريد هيدغر إثباته هو أنَّ هناك سوء فهم للزمان في أفق علاقته بالوجود في تاريخ الفلسفة الغربيّة. ويُرجِع هيدغر هذا الضرب من سوء الفهم إلى التأثير السلبيّ لمقالة أرسطو فـي الزّمان الواردة في كتاب «السمـاع الطبيعيّ»، إذ حدّد فيها أرسطـو الزّمان في الاتجاه الفيزيائيّ على أساس ربطه بالحركة فحسب، مهملاً بذلك الاتجاه الوجوديّ تماماً.

ويؤكـد هيدغر أنَّ لمقالة أرسطو في الزمان -التي يمكـن أن تُختار إثباتاً لطريقة تمييز أساس وحدود علم الوجود القديم -الدورَ الرئيسَ في التفسير المُفصَّل الأول لهذه الظاهرة التـي تحدَّرت إلينا. فإنَّ أي تبيـان للزمان تالٍ لها، بما فيه تبيان برغسون، هو محدد ماهوياً بوساطتهـا. فعندما نحلل المفهـوم الأرسطوطالي، سوف يصير كذلـك واضحاً، كلما ردَّدنا النظر إلى أنّ التبيان الكانطي يجري داخل البنيات التي أظهرها أرسطو. هذا يعني أنَّ التوجُّه الأنطولوجي الأساس عند كانط يبقى ممّا هو يوناني، على الرغم من التمييزات كلها التي قد تنشأ في استقصاء جديد. ومن ثمَّ، سؤال الوجود لن يحرز عينيته الحقيقية ما لم ننجز عملية تقويض تاريخ الأنطولوجيا.

لكـن، يُلاحظ أنَّ هيدغر نفسه أهمل الوجود عندما انتهى فـي منهجيته التقويضيّة إلى أنَّ المشـكل المركـزيّ في كلّ أنطولوجيا هو مشكل زمانيّة الوجـود، بمعنى أنَّ هيدغر غيّب الوجود في زمانيّة مفترضة لم يُحدّد معناها على الإطلاق. وقد تجاوز هيدغر منهجيّاً زمانيّة الوجود، مستنداً إلى رؤية مُفادُها أنَّ الوجود من حيث إنّه يُفهم في أُفق انوجاد الدازاين، فهذا الأمر يكون على أساس فهم انوجاد الدازاين في العالم. وبذا أحلّ هيدغر العالم محلّ الوجود، مـن دون أي تسويغ، مهملاً الموجودات كلّها ما عدا الدازاين، متذرّعاً بأنَّ الدازاين يعلو على هذه الموجودات كلها موجّهاً نوعاً من الإضاءة نحوها، لتصير مكشوفة المعنى بوساطته.

لذلك يصرُّ هيدغر على أنَّ العلو لا يعني اجتياز حاجز يحوط الذات في حيِّزها الداخليّ. لكـن ما يُجتاز هو الوجـود نفسه الذي يصير ظاهراً بالنسبة إلـى الذات على الأساس عينه الـذي يُكوِّنُهُ علوّ الـذات. بسبب أن الاجتياز يوجد بالدازايـن، وبسببه أيضاً الموجودات من

غيـــر الدازاين تُحصِّل تجاوزهـــا، مثل هذه الموجودات تصير ظاهرة بمـــا هي، في أنفسها. لا شـــيء آخر، لكن العُلوّ، الذي مقدَّماً يتجاوز الموجودات، يجعل ممكناً بالنسبة إليها من قبل أن تتجـــاوز بوصفها موجودات، أن تكـــون موجوديّاً مقابل الدازاين، وبوصفها مقابلاً يمكن أن تُفهم في أنفسها.

وهنـــا لم يعد بمقدور هيدغر الاستمرار في البحث علـــى أساس المنهجيّة التي تقتضيها الأنطولوجيـــا الفينومينولوجيّة، لأنَّ البحث الأنطولوجـــيّ البحت صار مُغيّباً تماماً، إذ لم يبق متاحاً للبحث المنهجيّ سوى ظاهرة وجود الدازاين في العالم؛ لذلك أحدث هيدغر انعطافاً فـــي منهجيته، وارتأى أنَّ الأنطولوجيا الفينومينولوجيّة يجـــب أن تستحيل إلى هيرمينوطيقا الدازايـــن التي تضطلع بمهمة تأويل الإشارات والعلامـــات والرموز التي تصدر عن الظواهر التي تكتنف الدازاين في طريقة وجوده في العالم. هذا إلى أنَّ هذه الظواهر أنفسها محجوبة ومطموسة ومموّهة، وهـي بحاجة إلى إزاحة ما تتلفّع به من غموض.

كان هـــدف هيدغـــر المنشود أن يتجـــه بالفينومينولوجيـــا الأنطولوجيـــة إلى مجال من الموضوعـــات يُفضي بها إلى أن تتنـــاول موضوعات ذات صلة صميمية بالواقع العينيّ، وذلك يكون بوساطـــة التركيز على توطيد العلاقة المنهجية بيـــن الفينومينولوجيا والهيرمينوطيقا بإثبات أنَّ الظواهر التي تُعنى بها الفلسفة هي في حقيقتها معطيات مزدهرة بالتأويلات، وفي هذا الأفق يمكن أن تنضوي الظواهر ضمن ما يتناوله التأويل على مستوى الهيرمينوطيقا.

ويتبيّن أنَّ هيدغر استطاع بالفعل أنَّ يؤسّس لمنهج وجوديّ يفسّر على أساسه معنى الوجود العـــام، أي انتهى إلى أنطولوجيـــا فينومينولوجيّة هيرمينوطيقيّة، أي علـــم وجود ظاهريّاتيّ تأويليّ، إلا أنَّ التكامل المنهجيّ جاء منقوصاً.

لـــم يصل هيدغر إلى جواب عن سؤال الوجود بصورة واضحة قاطعة؛ ولكنه قام بتقديم ما هو أكثر غنى من ذلك، أعني طرائق للتفكير ليس في وسع المرء إلا أن يدهش أمام عمقها وجِدَّتهـــا وتطلُّبها لملكات عقليَّة عالية، كمـــا أنَّ المشكلة التي اضطلع هيدغر بمهمة إيجاد حلّ جذريّ لها من الممتنع تماماً أن يقوم بها فرد وحيد؛ وإنما تحتاج هذه المهمة إلى أجيال من الباحثين، لذلـــك ليس من المفاجئ أن تكون تجربة هيدغر المعرفية هي محاولة أولى فـــي تاريخ الفلسفة بهدف الوصول إلى معنى الوجود بالاستناد إلى تحليل الوجود الإنسانيّ وحده.

إنَّ فلسفة هيدغر تقوم على منهج معقّد إلى أقصى حدّ، لا يستسهل صاحبه الموضوع الذي يتناوله؛ وبالمقابل لا يطوِّعه تعسفيّاً في رؤية أُقحِمَت، فإذا كان الوجود هو الموضوع، يجب أن يكون المنهج الذي يتناوله مؤسساً التأسيس الكافي بحيث يتساوق مع خصوصية أنَّ الوجود في نهاية المطاف مختلف عن الموجودات، لكن اختلافه عنها لا ينأى به إلى حيث يُفهم أو يُفسَّر في أُفق ميتافيزيقيّ مزعوم، فشجاعة هيدغر على وجه الدِّقة تتجلى في أنّه استبعد كل أنواع التفسيرات العلِّيَّة أو السببيَّة من دائرة بحثه، وقد رفض أن يكون الوجود معلولاً لعلّة خارجيَّة مهما بلغت من القداسة، كما أنه لم يستسلم لمذهب وحدة الوجود الذي تتلاشى فيه التمايزات كلها ويضيع الوجود والموجود في حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر.

والحق يقال: إنَّ شجاعة هيدغر التفكُّرية هي التي دفعته إلى النظر إلى الموجود الإنسانيّ، أو بالأحرى الدازاين على أنه المدخل المنهجي الحاسم للبحث في الوجود، من حيث إنَّ التعويل على الإنسان بوصفه دازاين هو الطريق الوحيد المشروع لكشف معنى الوجود. وهذا يقتضي رفض أي تفسير للوجود لا ينطلق من تجربة نمط الدازاين في الوجود، أي الانوجاد، مهما كان مصدر هذا التفسير.

وعليه، يكون الدازاين هو موضوع البحث البديل، مؤقتاً، عن الوجود، فعسى أنَّ يتكشَّف الدازاين على وجه الخصوص من حيث تحليل انوجاده **في العالم** على صورة ظواهر صميميَّة يمكن أن يُستند إليها ولو مبدئيّاً في كشف الوجود على وجه العموم.

غير أنَّ العقبة التي تظهر هنا في بداية البحث تتحدد في مفارقة غريبة يمكن صياغتها على صورة السؤال الآتي: كيف يكون الدازاين موضوعاً للبحث وهو في الوقت نفسه يكون الباحث؟ وهذا يقتضي أن يضبط المنهج بطريقة دقيقة بحيث يتمكن الدازاين من البحث في نفسه ليكشف ذلك عن ظواهر صميمية تتوضّح على أساس من تكشُّف وجوده في العالم.

ولا غرو أنَّ الظاهرة الرئيسة التي عوَّل عليها هيدغر هي الزمانية، أي زمانية الدازاين في تحققها على مستوى الحاضر والماضي والمستقبل، والتي يأتي انبثاقها من المستقبل بوصفه ينبوع الإمكانات؛ لكن هذه الزمانية المطوية في نمط وجود الدازاين في العالم والمنتشرة في تاريخية الدازاين، تصير من حيث هي أعمق أعماق الدازاين، نقول هذه الزمانية الخاصة بالدازاين تصير هي زمانية الوجود، ومن ثمَّ يتجه هيدغر إلى تفسير الدازاين من جهة الزمانية، فينتهي إلى أنَّ المعنى النهائي لهذه الزمانية يتحقق في الموت؛ إلا أنَّ هيدغر هنا

مــن حيث إنــه ربط بين زمانية الدازاين والزمان على وجه العموم اصطدم بعقبة وهي أنه ما دامت زمانية الدازاين متناهية، يجب في هذه الحالة أن يكون الزمان نفسه خاضعاً للتناهي؛ إلا أنَّ هيدغـر لم يصرِّح بذلك لأنه يعرف تماماً أنَّ مثل هذا التصريح سوف يوقعه في نزعة ميتافيزيقية في حال تكهَّن بانتهاء الزمان الذي يعني فناء الوجود.

وتفسيـر هيدغـر للدازاين من جهة الزمانيـة غايته الرئيسة هي بلـوغ الزمان من حيث إنّـه موضَّحٌ على أساس هـذه الزمانية عينها من أجل الاستناد إليـه في تقديم تفسير نهائي لمعنـى الوجود؛ غير أنَّ تلاشي الزمان في زمانية الدازاين أفقد هيدغر أي قدرة على القيام باستدراك منهجي يسمح له بالانتقال من تحديد معنى انوجاد الدازاين على أنه انوجاد لفناء إلى تحديد معنى الوجود.

والحقيقـة أنَّ هيدغر قد وقـف هنا أمام منعطف حقيقي، فهو لا يقـدر على الاستمرار بتماسك منهجي حقيقي في البحث في الدازاين بقصد الوصول إلى جواب عن سؤال الوجود وهنا تنتهي التجربة الأولى لـ«هيدغر» التي تناولها هذا البحث.

لكـن لم يتوقف هيدغر عند هذا الحد ولم يُعلن فشله؛ بل غيَّرَ مساره المنهجي كله وكأنه طائر الفينيق الذي ينبعث من رماده في كل مرة من جديد، فنجد أنفسنا هنا إزاء هيدغر أول وهيدغر ثان، أي هيدغر المستمسك بالمنهج الفينومينولوجي وهيدغر الذي يبحث عن منهج جديد، يمكن أن يتلقّى بوساطته قدوم الوجود ما دام لا يمكن بلوغ الوجود.

والحقيقـة أنَّ هيدغـر الأول، كما ظهر على المستوى الفكري فـي الوجود والزمان، كان معـوِّلاً على المنهج الفينومينولوجي في الوصول إلى جـواب عن سؤال الوجود؛ لكن هيدغر الثاني أي هيدغر ما بعد الوجود والزمان عُني بالبحث في الوجود متجاوزاً بذلك أي اهتمام بالموجود الإنساني أو بالدازاين ليستعيض عنه بما سمَّاه فكر الوجود الذي أراد تحصيله من الفن والشِّعر.

وعليه، يتبين أنَّ هيدغر فيلسوف لا يعرف الركون إلى منهج، فكيف إلى مذهب، وهو لم يتوقف طوال حياته عن البحث والاستقصاء والتساؤل بهدف الوصول إلى جواب عن سؤاله العتيد.

لكـن ألا يحق في نهاية المطاف أن نسأل أين الفكر الفلسفي العربي المعاصر من مشكلة الوجود؟ أليس من المؤلم أن يكون تاريخ الوجود هو تاريخ التفكير الأنطولوجي الغربي؟ أليس من المحزن أن يصير الوجود إرثاً فلسفيّاً غربيّاً، وإرثاً نادراً جداً؟

لا شك أنّ هناكَ في استحضار هيدغر، سواء أكان ذلك على مستوى الترجمة، أم التأليف في لغة الضاد حدثاً لافتاً ومهماً ومنبِّهاً؛ لكن ما جدوى استحضار هيدغر إذا فكّرنا كهيدغر ونسينا أنفسنا، فهل يكون النسيان الذي أشار إليه هيدغر قد أبعدنا ليس عن الوجود فحسب، بـل عن أعمق ما يخصنا بوصفنا بشراً لهم موقـف محدد ناجم عن خصوصيتهم الحضارية فيما يتعلق بنظرتهم إلى الوجود.

وكان أرسطو بثاقب نظره قد أدرك أهمية طرح سؤال الوجود في كلّ عصر ومصر، بتأكيده أنّ السؤال الذي طُرِحَ ويُطرحُ وسوف يُطرح ما هو إلا هذا السؤال: ما الوجود؟[٣].

وقد استطاع ابن رشد أن يستوعي دلالة ما أفصح عنه أرسطو في هذا الخصوص، فأشار فيلسوف قرطبة إلى أنّ المطلوب من أمر هذا الوجود الذي لم يزل يُطلب منذ دهر طويل وهو إلــى وقتنا هذا مطلوب ومُتحيّر فيه، ولم يقل فيه أحد قولاً برهانيّاً، هو: ما الشيء الذي هو ماهيــة هذا الوجود؛ وإنما قال أرسطو هذا وعظّم أمر هذا المطلب؛ لأنه إذا عُرف ما الشيء الذي هو ماهية الوجود فقد عُرفت العلّة الأولى لجميع الموجودات، ولأنّ هذا المطلب مُتَشوّقٌ لجميــع الناس بالطبع في نفســه لم يزل الطلب له، كما قال أرسطو، قديماً وحديثاً ولم يصل الناس بعدُ إلى حقيقته.

استوعى ابن رشد كلام أرسطو فيما يتعلق بضرورة البحث في مشكلة الوجود قبل هيدغر بقرون؛ لكن لماذا لم تتأصّل هذه المشكلة في تراثنا، ولم يُستطلق حلّها في حداثتنا؟

الهوامش

(١)- يعلق مترجما كتاب «الوجود والزمان» من الألمانية إلى الإنكليزية جون ماكوري وإدوارد روبنسون هامش ص: ٤٠ (من الترجمة الإنكليزية): «بينما الفعل الألماني **geschehen** يعني عامياً «يحدث **happen**»، وسوف يُترجم غالباً على هذا النحو، يشدد هيدغر على النسبة الاصطلاحية فيما يتعلق -ربما- بما يكون قــد بُسِّط كلامياً على أنه ما «يحدث بطريقة تاريخيــة **happen in historical way**»؛ وينبغي علينا أن نترجــم **geschehen** بهذه الطريقة في السياقات التي يكون فيها التاريخ مُناقشاً. يجب أن نتأكد من أن القــارئ سوف يفهم مــن **historizing** ما هو من الصفات المميزة للموجودات التاريخية كلها، وليس نوعــاً من شيء كان مفعولاً فــي الأصل من المؤرّخين (كالتفلسف، على سبيــل المثال بوصفه مفعولاً من

الفلاسفة). وعلى هذا الأساس، ينبغي أن يُفهم historizing على أنه تأرّخ الموجود الإنساني بفعل أنه موجودٌ تاريخيٌّ من حيث وجوده. وهذا حادث وجودي أصيل يقتضيه الوجود عينه.

(٢)- التقويض Destroying في منظور هيدغر يعني نوعاً من الهدم لمنظومات فلسفيّة متكاملة بقصد العثور على عناصر معرفية مهمة فيها يمكن الاستفادة منها في عملية البحث عن جواب لسؤال الوجود. إنه شبيه مثلاً بتحطيم محارة للحصول على اللؤلؤة المكنونة فيها.

(٣)- أو وفق الترجمات القديمة: ما الجوهر؟

المراجع

(١)- هايدغر، أصل العمل الفني، مع مقدمة للفيلسوف غادامير، ترجمه عن الألمانية: أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠١.

(٢)- توفيق، سعيد، الخبرة الجمالية: دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢.

(٣)- يُنظر: غراندن، جان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم – ناشرون – منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ٢٠٠٧.

(٤)- الفريوي، علي الحبيب، مارتن هايدغر «الفن والحقيقة» أو الإنهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٨.

(٥)- كامل، فؤاد، أعلام الفكر المعاصر، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣.

(6)- Heidegger, Martin, Introduction to phenomenological Research, Translated By Daniel O. Dahlstrom, Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis,2005.

(7)- Heidegger, Martin, Being and Time, Translated by JohnMacquarrie and Edward Robinson, Harper and Row, New York, 1962.

(8)- Heidegger, Martin, The Metaphysical Foundations of Logic, Translated Michael Heim. Indiana University press Bloomington and Indianapolis, 1984.

(9)- Van Buren, Jon, The Young Heidegger: Rumor of the Hidden King, Indiana University Press, 1994.

النزاعات بين الغريزة والطبقية

د. أحمد ديركي

تبدو ظاهرة النزاعات في المجتمع البشري، منذ تشكلاته الأولى، وكأنها أحد العناصر الأساسية لتكوّن بنيته، ومن دونها تنهار البنية وينتفي وجود «المجتمع البشري». قد تكون الشواهد التاريخية، ومن ضمنها علم الآثار، من أبرز الأمثلة عن مدى ملازمة هذه الظاهرة للمجتمع البشري.

أمر يضع المجتمعات «الحديثة»، وما تتصف به من «عقلانية»، أمام إشكالية النزاعات التي ما زالت قائمة حتى تاريخه، على الرغم من كل التطورات التي شهدها على كل الأصعدة! لا تكمن صعوبة المقاربة في تعقد ظاهرة النزاعات، وبنيتها المعقدة، بل تكمن في تعدد المنهجيات المتّبعة لمقاربة[1] هذه الظاهرة. يعود تعدد المنهجيات في جوهره لتعدد الخلفيات الفكرية المتبعة للوصول إلى حل «عقلاني» لظاهرة النزاعات. تعدّدٌ نَتَجَ عنه تعدد في الحلول المقترحة. وإن كثرت، في الظاهر، مقاربات النزاعات فإنها في الجوهر تنطلق من إحدى الإشكاليتين:

الأولى: تعدُّ النزاعات مسألة طبيعية في المجتمع البشري، لذا لا يمكن القضاء عليها بصفتها مكوناً أساسياً من بنى المجتمع، لتأتي الحلول متوافقة مع هذه الخلفية الفكرية. ومن هذه الحلول «إدارة النزاعات»، و«نظرية اللعبة» (game theory)، وغيرها كثير من المصطلحات والعبارات المعتمدة في أساسها على هذه الخلفية الفكرية. وتصبح الإشكالية الأساسية هنا: هل يمكن استبعاد النزاعات من حياة المجتمع؟

أمـا الثانية فتعتمد في مقاربتها للنزاعات على أنها ظاهرة طارئة على المجتمع، وليست عنصراً أساسياً من عناصر بنيته، ويعود ظهورها إلى انقسام المجتمع إلى طبقات[٢]، مما يقود إلى «صراع طبقي» فيما بينهـا. فتأتي الحلول المقترحة للنزاعات متناغمة مع هذه الخلفية الفكريـة، ليكون حل النزاعـات «ليس في إدارتها»، بل إلغاء الطبقيـة في المجتمع. وتصبح الإشكالية الأساسية هنا: هل التاريخ كله كان تاريخ صراعات طبقية؟

اهتم علم الاجتماع، منذ تشكله، بظاهرة النزاعات، بصفتها أحد أبرز الظواهر الاجتماعية شيوعاً، وتطورت المقاربات وأصبحت تملك تقنياتها ومنهجياتها إلى أن شكلت فرعاً أكاديمياً خاصاً بها «علم اجتماع النزاعات».

أبرز من وضع الأسس العلمية للنظريات الاجتماعية لمقاربة النزاعات كان كارل ماركس، وفردريـك إنجلـز، ومن ثم كان ماكس فيبـر لتأتي كل التفسيـرات والتحديثات اللاحقة لهـذه الظاهرة معتمدة على منهجيتهم الفكرية أو محاولة لدمج المنهجين الفكريَّيْن معاً، وإن كانـت عمليـة الدمج تؤدي إلى منزلقـات منهجية تفقد المقاربـة صوابيتها، وتشوه الحقيقة.

هـذا التعقيد في إشكالية النزاعات، وأشكاله، انعكـس في المفردات والمفاهيم المعبرة عنه، ما دفع بعلماء الاجتماع، حديثاً، إلى محاولة دراستها لفهم أسبابها الاجتماعية.

تعريفات لغوية

يعود أصل كلمة «نزاع» في اللغة العربية إلى «نَزَعَ» وتعني: «نَزَعَ الشيء ينزِعُه نَزعاً. وانتزعه فانتزع: اقتلعه فاقتلع. ونزَعَ الأمير العامل عن عمله: أزاله. ونازَعَتني نفسي إلى هواها نِزاعاً: غالبتنـي. ونَزَعتُها أنا: غَلبتُها. والنَّزاعةُ والنِّزاعةُ، والمِنزعةُ، والمنزَعةُ: الخصومة. والتنازع: التخاصُم. وتنازع القومُ: اختصموا».

تعريـف يشير ضمنـاً إلى استخدام القوة في عملية النـزع والاقتلاع. أي لا بد من وجود طرفيـن في عملية النزاع. وإذا أكملنا قراءة التعريف يدخلنا إلى البُعد السياسي فنجد هناك سلطـة أعلى تنزع السلطة الدنيا، وهذا ما يظهر فـي قول «نزع الأمير العامل»، فالعامل أقل مرتبة سلطوية من الأمير.

أمَّا في اللغة الإنكليزية فيعود جذر كلمة (conflict) إلى اللغة اللاتينية (conflictus) وتعني «قتال (fight)»، وفي اللغة الإنكليزية يُعرف النزاع على أنه «نزاع مسلح، حرب، صراع بين مبادئ أو أهداف متعارضة. تصادم مشاعر أو مصالح». أو «١- صراع بين قوتين، معركة، حرب. ٢- تصادم، تعارض، عدم اتفاق. ٣- صراع مشاعر لحوافز أو رغبات متعارضة داخل الفرد». ويُعرِّف (The Blackwell Dictionary of Modern Social Thought) النزاع بأنه «صراع على القيم أو ادعاءات لحالات أو قوة (power) وصراع على مصادر نادرة، تكون غاية (غايات) الأطراف المتنازعة ليس كسب القيم المبتغاة فحسب، بل أيضاً إيذاء أو إلغاء المنافسين. هذه النزاعات داخل المجموعة أو خارجها هي ملامح مُعمرة في حياة المجتمع. كما أنها مكونات جوهرية للتفاعل الاجتماعي».

كما يعدّ Dictionary of Modern Social Thought النزاعات «مسألة جوهرانية للتفاعل الاجتماعي». عبارة «النزاعات مكونات جوهرية للتفاعل الاجتماعي في أي مجتمع» تعني لا يهم نوع المجتمع، إن كان طبقياً أو غير طبقي، عصرياً أو صناعياً، «بدائياً»، أو «متخلفاً»، أو ما بعد حداثي... فالنزاع موجود بوجود المجتمع البشري.

أمَّا النزاع المسلح فهو «وسائل الاستحواذ على السلطة»، إذ يكون الهدف الحقيقي «السلطة على الماضي، وأكثر من هذا السلطة على طبيعة المستقبل. الماضي كارثي وغير عادل لكنه بالنسبة إلى كل المتمردين عليه أن ينتهي بمستقبل عادل. الحاضر إذلال دائم ومستقبل مشابه لهذا لا يطاق».

هذا التشابك والتداخل في تعريف كلمة «نزاع» في المعاجم اللغوية، والموسوعات المختصة، وتداخلها مع كلمات ومفردات أخرى مثل «صراع»، و«حرب» و«نزاع مسلح»، و«خصومة»... جعل في كثير من الأحيان مقاربة موضوع النزاعات تتداخل مع تعبيرات ومفردات أخرى للدلالة عليها. وبهذا «تحت عباءة نزاع تدخل كلمات مثل قتال، ونقاش، ومنافسة، وجدال، وصراع، وحرب، وغيرها كثيرٌ من الكلمات التي يمكن ذكرها. وأحد المشكلات المفتاحية في دراسة النزاع هي معرفة أي أوصاف للسلوك تتلاءم مع عنوان نزاع».

تعريفات «لغوية» تشير بشكل مباشر، أو غير مباشر، إلى أن النزاعات مسألة ليست بطارئة على المجتمع البشري، وتوحي بطبيعيتها. فهل يختلف الحال عند الدخول إلى مفهوم النزاعات، ونظرياته، بشكل معمق قليلاً؟

النزاعات

من يعدُّ النزاعات مسألة طبيعية يذهب إلى القول إنها تأخذ أحد الشكلين «ظاهرة أو كامنة»، وبهذا تعيش المجتمعات حالات من النزاع سواء كانت كامنة أم ظاهرة، وتبقى المصالح المتنازع عليها كامنة حتى تتحرك مجموعة لتحوله إلى نزاع فعال (active). ترمي هذه المقاربة إلى تثبيت طبيعة النزاعات في المجتمع، معتمدة على فكر ماكس فيبر الذي رأى أنه «لا يمكن استبعاد النزاع من حياة المجتمع... ف «السلام» ليس أكثر من تعبُّر في صيغة النزاع». ما دامت النزاعات مسألة «طبيعية»، بمعنى «غريزية»، من غرائز البقاء، يستحيل القضاء عليها. القضاء عليها يعني القضاء على المجتمع، فالنزاعات مثل غريزة الحركة، والأكل... وغيرها من الغرائز الإنسانية التي تحافظ على وجوده من «الموت» والانقراض.

قد تكون الغريزة الجنسية واحدة من أكثر الغرائز الإنسانية تعقيداً، ولها إسهامات جمة في عدم انقراضه، لتأتي «غريزة» النزاعات مساوية لها في أهميتها، بل أكثر إلى حد عد «النزاع، مثل الجنس، عنصراً إبداعياً جوهرياً في العلاقات الإنسانية. إنه وسيلة للتغيير... وفرصة لتطوير الذات التي يمكن تحقيقها ... وجود تدفق النزاع هو الضامن الوحيد لبلوغ تطلعات المجتمع».

وفق ما تقدم وبشكل مختصر: انتفاء النزاعات يعني انتفاء المجتمع البشري، لذا يعتمد بقاؤنا على هذا الكوكب على كيفية إدارتنا لملامح النزاع المختلفة.

مقابل كل هذه المقاربات التي تحاول تكريس فكرة أن النزاعات «غريزة» طبيعية لا يمكن القضاء عليها يقول كارل ماركس وفردريك إنجلز «التاريخ كله (منذ انحلال المشاعية البدائية للأرض) كان تاريخ صراعات طبقية»، والطبقية، في المفهوم الماركسي، ليست بالمسألة الغرائزية، بل نتاج نمط الإنتاج الذي يوجد به المجتمع. أي بتغيير نمط الإنتاج القائم والقضاء على الطبقية يمكن القضاء على «الصراعات» الناجمة عن التقسيم الطبقي للمجتمعات. وما هو بين قوسين يشير إلى أن «النزاعات» ليست بالمسألة «الثابتة» في المجتمع البشري، فقد مر المجتمع بحال من «السلام»، في مرحلة «المشاعية البدائية للأرض»، ولا يعني هذا العودة بالتاريخ إلى تلك المرحلة للعيش بلا نزاعات أو صراعات، بل العكس، إيجاد نمط إنتاج يختلف بشكل جذري عن الأنماط التي سبقته للوصول إلى العيش بسلام حقيقي لا وهمي.

ارتكازاً على هذين الفكرين، وتطويرهما تشكّلت «نظريات» النزاعات.

نظرية النزاع (conflict theory)

يُعرِّف Dictionary of the Social Sciences نظرية النزاع بأنها «جسم فضفاض يصف الأعمال السوسيولوجية والأنثربولوجية خلال خمسينيات وستينيات القرن المنصرم، وتركز على:

١- دور الإكراه للحفاظ على النظام الاجتماعي مقابل النزاع.

٢- حالات العلاقات الاجتماعية التي يمكن الحصول عليها بوساطة استمرار النزاع».

في حين تقارب موسوعة (The Blackwell Encyclopedia of Sociology): نظرية النزاعات بأنّها «استخدمت هذه النظرية بشكل واسع في علم الاجتماع خلال ستينيات القرن المنصرم، عندما أصبحت بديلاً عن الوظيفية، ومنافساً لها».

أما عن نشأة نظرية النزاع فيقول Dictionary of the Social Sciences: «نشأت نظرية النزاع نقداً للنزاعات الأساسية في البنيوية الوظائفية (structural functionalism) التي سيطرت على الوجهة النظرية لتلك المرحلة. فقد ركزت على ميكانيكيات الاندماج والإجماع في إنتاج النظام الاجتماعي (social order)، ونزعت إلى تهميش دور وخطورة النزاع الاجتماعي».

في المقابل وفق موسوعة (International Encyclopedia of the Social Sciences) «بُنيت «نظرية النزاع» على التحليل الماركسي للنزاع الطبقي، لكنها في الوقت عينه نزعت عنه أي التزام أيديولوجي بالاشتراكية»، وتعيد موسوعة Encyclopedia of Social Theory أساس نظرية النزاعات في أوروبا إلى أعمال كل من «ماركس، وماكس فيبر، وجورج سيمل».

في حين تقارب موسوعة (Encyclopedia of Violence Peace and Conflict) مسألة النزاع تحت عنوان «نظرية النزاع» بالقول: «النزاع: تضارب في المصالح أو الأهداف لفردين أو لوحدات اجتماعية (social unites)».

يتضح مما سبق أن أبرز عناصر ارتكاز نظرية النزاع يقوم على ما كان لكل من كارل ماركس وماكس فيبر من إسهامات في مقاربات للنزاع، وإسهامات في نشوء هذه النظرية. فبالنسبة إلى الماركسيين: «الطبقات الاجتماعية هي مصدر النزاع في كل المجتمعات والصراع الطبقي أساس الرأسمالية، وفي الوقت عينه هو الجذر المسبب لكل صيغ الصراع أو النزاع داخلها». وحول علاقة البروليتاريا بهذا الصراع يقول البيان الشيوعي: «في كل هذه الصراعات تجد البرجوازية نفسها مضطرة إلى الاستنجاد بالبروليتاريا ... وبذلك تجرها إلى المُعترك السياسي. وهكذا فإن البرجوازية نفسها هي التي تزود البروليتاريا بعناصرها

التثقيفية أي بالأسلحة التي ترتد عليها». وبهذا يمكن لحظ أن الماركسيين ينظرون إلى النزاع لا بوصفه مسألةً طبيعية في المجتمع البشري، بل سمة من سمات المجتمعات الطبقية.

وعن إسهامات ماكس فيبر بنظرية النزاع، تقول الموسوعة International Encyclopedia of the Social Sciences: «إن فيبر عمم النزاع إلى مجالات أخرى كالسلطة والطبقة الاقتصادية. وهذا الأمر متعدد الأبعاد أصبح منتشراً بشكل كبير منذ خمسينيات القرن المنصرم». في حين في سبعينيات هذا القرن، وفق موسوعة The Blackwell Encyclopedia of Sociology بدأ بعض علماء الاجتماع بإعادة التفكير في التفسيرات التقليدية لماكس فيبر، ومن أبرزهم تالكوت بارسونس (Talcott Parsons) وسولز الذي قدم فيبر على أنه واضع نظرية نزاع شبيهة بالنظرية الماركسية، ولكنها مختلفة عنها في بعض المناحي. وبيّن أن فيبر «مفكر معقّد ومتعدد الأبعاد»، ويتشابه مع ماركس في تركيزه على دور النزاع والصراع في الحياة الاجتماعية.

وعلى الرغم من وجود بعض التشابهات في مقاربة النزاع ما بين ماركس وفيبر، هناك فوارق أربعة رئيسة في المقاربات، يمكن تلخيصها على الشكل الآتي:

١- الطبقة وصراعات أخرى: بالنسبة إلى النظرية الماركسية، الصراع الطبقي هو الأساس ويحدد كل الصيغ الأخرى، في الوقت الذي يرى فيه فيبر هذا الموقف موقفاً «اختزالياً طبقياً». منظرو النزاع الفيبري يرون الصراعات السياسية والإثنية والدينية أكثر أهمية لذا لا يمكن أن تُفسر بعلاقاتها بالصراع الطبقي ببساطة.

٢- حتمية النزاع والسيطرة وعدم المساواة: يقول الماركسيون بإمكانية القضاء على الصراع الطبقي الرأسمالي ومعه القضاء على الصيغ الصراعية الاجتماعية الأخرى الناجمة عنه. في حين ينزع الفيبريون نحو رؤية أن هناك بعضاً من النزاعات ثابتة ولا يمكن القضاء عليها.

٣- طبيعة الدولة ودورها: ماركس، ومعظم الماركسيين، ينزعون إلى رؤية الدولة على أنها الوكيل (Agent) السياسي للطبقة الحاكمة، على الرغم من أن بعض الماركسيين الحاليين يرون استقلالية محددة لأعمال الدولة. في حين ينزع الفيبريون إلى رؤية الدور المستقل للدولة وأهمية نظام الحالة الدولية (International status)، ولهذا دور كبير في نظرية الصراع الفيبرية.

٤- الصراعات البيروقراطية والمنظمة: التنظيم البيروقراطي كان له التركيز الأساسي في أعمال فيبر، لكنه شبه غائب عند ماركس. بالنسبة إلى فيبر، نتائج «الاغتراب» (alienating consequences) لتقسيم العمل الحديث ناتجة عن الصيغ البيروقراطية أكثر مما هي عن امتلاك وسائل الإنتاج. إضافة إلى هذا: صِيَغُ هذا التنظيم - أي البيروقراطية- تؤدي دوراً رئيسياً في تشكيل الحياة الاجتماعية الحديثة، وهي أيضاً بذاتها مواقع رئيسة في الصراعات على السلطة (power)».

وبهذا يتضح الاختلاف في مقاربة مسألة النزاعات. فمن يأخذ بالتحليل الماركسي يقول إنها ليست مسألة طبيعية في المجتمع البشري. ومن يأخذ بالتحليل الفيبري يقول إن النزاع مسألة طبيعية. وهذا ما تشير إليه The Blackwell Dictionary of Modern Social Thought بالقول: «انقسم فلاسفة وعلماء الاجتماع، منذ العصور القديمة، حول قيمة النزاع. وانقسمت وجهات النظر، في الوقت الحديث إلى معسكرين: هناك من يؤكد أن النزاعات يجب أن يُنظر إليها على أنها ظاهرة مَرضية، وتمثل عوارض مرض في الجسم الاجتماعي. في المقابل ثمة من يؤكد أن النزاعات أشكال طبيعية (normal) للتفاعل الاجتماعي ويمكنها أن تسهم في الحفاظ على تطور وتغيير المجتمع، بالإضافة إلى استقرار الكيانات الاجتماعية (social entities)».

النزاع الاجتماعي

وفق موسوعة (International Encyclopedia of the Social Sciences): «تفسِّر نظرية النزاع الاجتماعي بُنية المجتمع والتغيرات التي تحدث فيه بأن الفاعلين يلاحقون مصالحهم بنزاع مع الآخرين، وفق مصادرهم في التنظيم الاجتماعي»، وتضيف ليتحول النزاع من حالة «كامنة» إلى «فاعلة» «تبقى المصالح المتنازعة كامنة حتى تتحرك مجموعة لتحوله إلى نزاع فعال». ويتوافق تعريفها مع التعريف القائل: «إنَّ النزاع الاجتماعي يمكن أن يُعرّف بأنه صراع على القيم والحالات». ويضاف إليه أن «علم الاجتماع في القرن التاسع عشر ركز اهتمامه بشكل كبير على النزاع الاجتماعي، وبالمجمل كل الفكر السوسيولوجي مشتق من هيغل، وأكثر تحديداً من الفكر الماركسي بعدِّ النزاع مفتاح التفسير».

وقد وضع أنطوني أوبرشل (Anthony Oberschall) ثلاث نقاط أساسية يجب أن تشملهم أي نظرية للنزاع الاجتماعي: «المصادر البنيوية للنزاع، وتشكل مجموعة النزاع، ودينامية النزاع. ويتضمن النزاع الاجتماعي مروحة واسعة من الظواهر الاجتماعية: طبقية، وعنصرية، ونزاعات دينية وطائفية، وشغب، وتمردات، وثورات، وإضرابات».

في المقابل يقول جيمس شلنبرغ (James A. Schellenberg) في كتابه «علم النزاع» (The Science of Conflict) هناك ثلاث مقاربات للنزاع: «وجهة النظر الأولى بيولوجية تعتمد على الطبيعة البشرية كنوع ضمن المملكة الحيوانية. والثانية نفسية اجتماعية تعتمد على الفرد ومصالحه. أما الثالثة فاجتماعية تعتمد على بيئة المجتمع ومصالح المجموعات المختلفة داخل البنية». هكذا قسم شلنبرغ مقاربات النزاع الاجتماعي إلى ثلاث: بيولوجية، ونفسية اجتماعية، واجتماعية.

في حين يطرح أوبرشل التساؤل الآتي: إلى ماذا تطمح نظريات النزاع الاجتماعي أن تفسر؟ ليجيب بالقول: أي نظرية شاملة للنزاع الاجتماعي عليها أن تشمل العناوين الآتية:

١- المصادر البنيوية للنزاع الاجتماعي، وتحديداً بنى الهيمنة التي تجعل من الصراعات على القيم والمصادر النادرة متشابهة. في هذه المرحلة سوف تعتمد نظرية النزاع الاجتماعي بشكل كبير على الطبقات (stratification)، والتغيير الاجتماعي، ونظريات الماكروسوسيولوجي. وهذه النظريات سوف تحدد أهم تفسير للمتغيرات في نظريات النزاع.

٢- تشكل مجموعة النزاع للعمل المشترك ضد المجموعات المتحدية لها.

٣- ديناميات النزاع: سيرورة التفاعل بين المجموعات المتنازعة وصيغ النزاع، وحجمه، ومجاله، ومدّته الزمنية، وتصعيده، وانخفاض وتيرته. ونظم الصراع والحل، ونتائجه على المجموعات المتنافسة وبشكل أكبر على المجتمع. إنّها أهم المتغيرات المعتمدة (dependent variables) في نظريات النزاع الاجتماعي».

أمّا جورج سيمل (George Simmel) فقارب النزاع الاجتماعي بشكل مغاير، فيعيده بشكل أساسي إلى المشاعر الإنسانية كالحقد والكراهية، والرغبة. ويقول سيمل: «على النزاع أن يُعدّ، بوصفه أحد أكثر ردات الفعل كثافة ومنطقياً، محال الحصر في عنصر واحد».

يمكن القول إن النزاعات لا يمكن لها أن تكون «غريزة» إنسانية، أو «طبيعية»، تعمل على «تطوير المجتمع الإنساني» وتحافظ على ديناميتيه، بل النزاعات مسألة طارئة عليه، تعيق ديناميته للوصول إلى العيش في سلام حقيقي. وتبقى الإشكالية المنبثقة من هذه المقاربة: **مَنْ المستفيد من تصوير النزاعات على أنها مسألة طبيعية في المجتمع البشري؟**

الهوامش

(١)- مصطلح «مقاربة» في هذا البحث الصغير، يعني المقاربة العلمية القائمة على تحديد المنهج المتبع في قراءة الظاهرة.

(٢)- يستخدم مفهوم «الطبقة» بالمعنى الماركسي.

المراجع

(١)- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٢٣٣- ٢٣٤.

(٢)- كارل ماركس وفردريك إنجلز، البيان الشيوعي النص الكامل مع دراسة تحليلية، هرمان دونكر، ترجمة عصام أمين، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص٢١.

(٣)- كارل ماركس وفردريك إنجلز، البيان الشيوعي النص الكامل مع دراسة تحليلية، هرمان دونكر، ترجمة: عصام أمين، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص٧٢- ٧٣.

(4)- Collier's Dictionary, P. F. Collier, INC, New York, Toronto, Sydney, 1992, p 211.

(5)- The New Lexicon Webster's Encyclopedic Dictionary of the English Language, Deluxe Edition, Lexicon Publication, INC, Danbury, CT, 1997, p 205.

(6)- Collier's Dictionary, Opcit, p 211.

(7)- The Blackwell Dictionary of Modern Social Thought, 2nd Edition, Edited by William Outhwaite, Blackwell Publishing, 2006, p 106.

(8)- Bowyer Bell, The Dynamics of the Armed Struggle, Frank Cass, London, 1998, p 8.

(9)- Ibid, p 11.

(10)- Alan C. Tidwell, Conflict Resolved? A Critical Assessment of Conflict Resolution, Continuum, London, New York, 2004, p 30.

(11)- International Encyclopedia of the Social Sciences, 2nd Edition, V. 1, Editor – In – Chief William A. Dartity Jr., Thomson Gale, London 2008, p 414.

(12)- Max Weber, the Methodology of Social Sciences, translated by and edited by Edward A. Shils and Henry Finch, Galencoe, III, the Free Press, 1949, pp. 26 -27.

(13)- Burton, J. W., World Society, Cambridge University Press, Cambridge and New York, 1972, pp 137- 138.

(14)- Ho-Won Jeong, Understanding Conflict and Conflict Analysis, SAGE, Los Angeles, London, New Delhi, Singapore, 2008, p 3.

(15)- A Dictionary of the Social Sciences, Edited by Julius Gould, the Free Press of Glencoe, 1964, p 87.

(16)- The Blackwell Encyclopedia of Sociology, Op.cit, p 662.

(17)- A Dictionary of the Social Sciences, Op.cit, 87.

(18)- International Encyclopedia of the Social Sciences, 2nd Edition, V. 1, Editor – In – Chief William A. Dartity Jr., Thomson Gale, London 2008, p 414.

(19)- Encyclopedia of Social theory, Editor George Ritzel, University of Maryland, Sage Publication, 2005, p. 134.

(20)- Encyclopedia of Violence Peace and Conflict, V. 1, Editor – In – Chief, Lester Kurtz, University of Texas, Austin, Academic Press, Boston, 1999, p 401

(21)- Ibid, p 663.

(22)- International Encyclopedia of the Social Sciences, Op.cit , p 414.

(23)- The Blackwell Encyclopedia of Sociology, Op.cit, p 663.

(24)- Ibid, pp 106 - 664.

(25)- International Encyclopedia of Social Science, Op.cit, pp 414 - 415.

(26)- International Encyclopedia of the Social Sciences, Editor David Sills, Collier – Macmillan Publisher, London, V3, 1968, p 232.

(27)- The Blackwell Encyclopedia of Sociology, Op.cit, p 665.

(28)- Anthony Oberschall, Social Movements, Ideologies, Interest & Identities, Transaction Publishers (U.S.A) and (U.K),1995, p 38 – 40.

(29)- James A. Schellenberg, The Science of Conflict, New York, Oxford University Press, 1982, pp 9 - 44.

(30)- Georg Simmel, The Sociology of Conflict I, American Journal of Sociology, V9, issue 4, Jan 1904, p 490.

مفهوم الزمان

د. جهاد ملحم

«لا يوجد معنى لكلمة «خبرة» لا تفترض مسبقاً التمييز بين الماضي والمستقبل».

الفيلسوف والفيزيائي الألماني كارل فون فايزاكير

«الكائنات ذوات الطبيعة الأدنى أسيرة الحاضر، أما الإنسان فكائن مستقبلي».

الشاعر الإنكليزي جون دون

«جميعنا في جزء ما من أنفسنا نعيش وراء الزمن، ربما لا نعي عمرنا إلا في لحظات استثنائية، إننا في معظم الوقت أشخاص بلا أعمار».

الكاتب الفرنسي ميلان كونديرا

كل المفكرين، قديمهم وجديدهم، بما فيهم كبار العلماء واللاهوتيين والفلاسفة، الذين تصدوا لشرح مفهوم الزمان أصابتهم الحيرة في تحديد ماهيته. فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيان التوحيدي يعلن في كتابه «الهوامل والشوامل» صعوبة الخوض في أمر الزمن، لأنه فن ينشف الريق ويضرع الخد، ويجيش النفس، ويفضح المدعي، ويبعث على الاعتراف بالعجز والتقصير.

وفي أدبنا العربي، عبّر الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى عن إحساسه بالزمان بإجراء مقارنة في غاية الواقعية، عدَّ فيها اللحظة «الآنية» من حياته هي كامل عمره:

كأني، وقد خلّفتُ تسعين حجة
خلعتُ بها، عن منكبيَّ، ردائيا

أمـــا الشاعر المتيّم **قيس بن الملوح** فيلامس الزمـــان بإشراقية نادرة، تنتمي بما لا يقبل الشك إلى المفهوم النفسي للزمان، وربما النسبوي أيضاً:

عجبت لسَعي الدهرِ بيني وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدَّهرُ

ويرى **هنري برغسون** أنَّ الزمن هو المعضلة الأساسية في الميتافيزياء، وعندما تستطيع الإنسانيـــة أن تقـــدم إجابة واضحة عن ســؤال الزمن، فإنها تستطيع تجـــاوز كل الإشكاليات والمعضـــلات الوجودية التي تواجـــه حياة الإنسان والبشريـــة جمعاء. أما **ريتشـارد فينمان**، الحاصـــل على جائزة نوبل في الفيزياء سنـــة (١٩٦٥م)، فيقول في هذا الصدد: نتعامل نحن – ويقصـــد علمـــاء الفيزياء – مع الزمان يومياً، ولكن لا تسألنـــي عن ماهيته، إنه أصعب مما نستطيع إدراكه.

الزمان وفق مفهوم نيوتن

في فيزياء **أرسطو** ــ كما نقلها مفكرو العصور الوسطى ــ كان مفهوم الزمان مقياساً أو وظيفـــة للحركة. والزمان متعلّق بالحركات الفعلية للأجسام، أي متعلّق بالصيرورة، وانعكست هـــذه العلاقة خـــلال التطور العلمي الذي شهـــده القرن السابع عشر. أصبـــح الزمان آنذاك يُفَسَّـــر على أنه بُعْدٌ كلي، أو بعـــد أساسي يمكن أن تقاس عليه الخصائص الفيزيائية الأخرى (كالحركة مثلاً)، فانفصل الزمان عن مضمونه الفيزيائي.

يقول **نيوتن** في مستهل كتابـــه «الفلسفة الطبيعية للأصول الرياضية» (١٦٨٧م): «الزمان المطلق الحقيقي، الرياضـــي، ينساب من تلقاء نفسه، وبطبيعته الخاصة، باطراد دون علاقة بـــأي شيء خارجي. من الممكن أن تتسارع الحركات جميعاً أو تتباطأ، غير أن انسياب الزمان المطلـــق ليســـ قابلاً للتغيـــر. إن الزمان المطلق يتدفـــق بسرعة متسقة خـــلال الكون، وكل الراصدين ــــ أينما كانوا، وأيّاً تكن حركتهم ــــ يتفقون على الأوقات التي تقع فيها الحوادث، وعلى السرعة التي يتدفق بها الزمان».

لاقت فكرة الزمان والمكان المطلقين قبولاً بوصفهما مظهرين أساسيين للكون، ولم تتبدل هذه النظـــرة حتى بداية القرن العشرين مع مجيء نظريـــة النسبية الخاصة. ومن الإنصـــاف القول: إن رأي نيوتن في المكان والزمان ما زال حتى اليوم منسجماً مع ما يراه معظم الناس وصفاً صادقاً للعالم الطبيعي. وقد تدعّم مفهوم الانسياب المتسق للزمان مع التزايد المطرد

في دقة الساعات الذرية، منذ اختراعها على يد العالم الأمريكي **وليام ليبي** سنة (١٩٤٨م). في المتوسط تبلغ دقة الساعة الذرية بحدود (١) نانو ثانية في اليوم أي ما يعادل خطأً مقداره ثانية كل (٢,٧) مليون سنة. وفي سويسرا، بدأت الساعة الذرية FOCS 1 المصنوعة من السيزيوم المبرد باستمرار عملها رسمياً عام (٢٠٠٤م) ويقدر مقدار الخطأ بحدود ثانية واحدة كل (٣٠) مليون سنة.

لم يقبل الفيلسوف والرياضي **غوتفريد ليبنيز**، أحد معاصري نيوتن، مفهوم هذا الأخير عن الزمان والمكان، وبيّن أن ليس لأحدهما وجود منفصل بذاته. فالحديث عن المكان معناه الحديث عن العلاقة بين الأشياء. فكما أن الحب أو الكراهية ما مِن وجود منفصل لهما بل لا بد من وجود شخصين يمارسان الحب والكراهية، كذلك المكان لا يوجد من دون موجودات. أما الزمان فهو مجرد ترتيب للحوادث، وليس كياناً مستقلاً في ذاته. ويمكن تلخيص رأي ليبنيز بقوله: «أنظر إلى المكان على أنه نسبي تماماً، كما أن الزمان نسبي... وأراه ترتيباً لموجودات مشتركة، كما يكون الزمان نظاماً من التعاقبات». وفي مناسبة أخرى يقول: «اللحظات، بمعزل عن الموجودات، ليست شيئاً على الإطلاق، إذ لا وجود لها إلا في النظام المتتابع للأشياء... أنا لا أقول: إنَّ المادة والمكان شيء واحد بعينه، وإنما أقول فحسب لا مكان حيث لا توجد مادة، وإنَّ المكان نفسه ليس حقيقة مطلقة».

نظرية العلاقة المشتركة بين الزمان والمكان التي نادى بها ليبنيز، في كثيرٍ من جوانبها أكثر اتفاقاً مع المفهوم النسبي الحديث من نظرية نيوتن عن المكان والزمان. وقد استمر الخلاف بين الطرفين حتى اليوم، وإن يك ذاك في إطار مختلف. ومهما يكن من أمر، فإن النظرة النيوتنية إلى الزمان والمكان هي التي نالت الحظوة، والتي أصبحت العقيدة المركزية للعلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. غير أنه في أواخر القرن التاسع عشر اصطدم علم الفيزياء بعدد من الصعوبات نشأت عن قبول الزمان والمكان المطلقين، وأسفر حل هذه الصعوبات بوساطة نظرية النسبية عن تدمير هذين العمودين التوءمين للفيزياء الكلاسيكية.

الزمان وفق مفهوم آينشتاين

شهد بداية القرن العشرين تدشين عصر جديد في ميدان الفيزياء مع ظهور ثلاث نظريات ثورية هي النظرية الكمومية ونظريتي النسبية الخاصة والعامة. وجاءت نتائج هذه النظريات عميقة ومربكة للفلاسفة والعلماء على حد سواء، كما مثّلت تحدياً للمفاهيم

السائدة حول فهمنا لنشأة الكون وطبيعة الزمان والمكان. وقد ظهر ذلك بأوضح صوره في معالجة مفهوم الزمان، وهو موضوع وثيق الصلة بجميع الأديان الكبرى والأفكار العظيمة في التاريخ الإنساني.

دخل **نيوتن** وتفاحته المأثورات الشعبية الحديثة مثالاً على الاكتشافات غير المتوقعة. لكن حادثة أقل شهرة قادت **آينشتاين**، الذي كان يعمل بعد ذلك موظفاً مغموراً في مكتب براءة الاختراع في برن، سويسرا، إلى النسبية الخاصة. في أحد الأيام، حينما كان **آينشتاين** يستقل سيارة أجرة عائداً إلى بيته، حدثت منه التفاته إلى الساعة المنصوبة في أعلى برج كنيسة المدينة. تخيَّل آينشتاين لو أن سرعة السيارة ازدادت حتى بلغت سرعة الضوء، فستبدو له الساعة ساكنة، في الوقت الذي تبقى فيه ساعته الجيبية تتكُّ بالطريقة المعتادة، وإن قياس الزمان بوساطة الساعة، يشبه الحركة تماماً، يجب أن ينسب إلى جملة مرجعية واحدة.

بدا واضحاً لآينشتاين أن هناك تناقضاً بين حركة الأجسام المادية وانتشار الأمواج الكهرطيسية، وأن حل هذا التناقض يكون باعتبار قوانين الطبيعة ليست نفسها في جميع الجمل المرجعية[١]. اعتمد آينشتاين هذه الفكرة، على الرغم من أنه كان عازفاً في البداية عن قبولها لاعتبارات فلسفية، ثم شرع في تفحص نتائج ذلك. وهكذا اعتمدت النسبية الخاصة على فكرة مؤداها أن سرعة الضوء، الموجودة في معادلات مكسويل، هي نفسها في جميع الجمل المرجعية.

تمدد الزمن

يمكن اختبار تنبؤ النسبية بتمدد الزمن بطرائق متعددة. يتم ذلك عادة بمقارنة ساعتين ذريتين مضبوطتين أقصى حدود الدقة، واحدة على الأرض وأخرى موجودة في طائرة نفاثة. على الرغم من أن سرعة مثل هذه الطائرات أقل بكثير من سرعة الضوء، فإن الفرق الحاصل في الزمن بين الساعتين يمكن تسجيله. كما يمكن أيضاً قياس تقلص الزمان بوساطة مسرعات الجسيمات عالية الطاقة التي تنتج جسيمات دون ذرية غير مستقرة. عمر النصف النظامي لمثل هذه الجسيمات معروف جيداً. فعند تسريع مثل هذه الجسيمات إلى ما يقارب سرعة الضوء، سوف تستمر هذه الجسيمات زمناً أطول، نظراً للتباطؤ النسبي في معدلات التفكك.

إذن، علــى الرغم من أن فكــرة الساعات المتحركة تدقُّ أبطأ من تلك الساعات الموجودة في مكان ثابت يخالف إحساسنا العام، يبدو أن التجربة تدعمها جيداً. لكن، لماذا لا نلاحظ هــذا المفعول فــي حياتنا اليومية المعتادة؟ السبب بكل بساطة، هــو ضآلة تباطؤ الزمن في الساعات المتحركة بالسرعات العادية. فمن أجل ساعة موجودة في سيارة تسير بسرعة ستين كيلومتراً في الساعة، فإن مرور الزمن فيها لا يختلف عن مروره في ساعة موجودة على الأرض إلّا بمقــدار جزء من المرتبــة العشرية السادسة عشرة. في حين تصل قيمة التباطؤ إلى نحو واحــد إلى سبعة من قيمته على الأرضــ، إذا كانت سرعة الجسم المتحرك تصل إلى (٩٩٪) من سرعة الضوء.

هكــذا حطمت النسبية الخاصــة فكرة أن الزمن مطلق وعالمي. علــى العكس من ذلك، أصبــح مرناً ويمكن له أن يمتط، أو يتقلص بالحركة. في الجملة العائدة لنا، لا يظهر الزمان منحنياً أبداً، لكنه يمكن أن يظهر منحنياً بالنسبة إلى مراقب آخر.

نحن مسافرون في الزمان، متجهون نحو المستقبل، لكن مرونة الزمان تسمح لبعض الناس بالوصول أسرع من بعضهم الآخر. مع الاقتراب من سرعة الضوء، يتزايد انحناء الزمان حدة. لا يمكن لأحد أن يسافر بسرعة تفوق سرعة الضوء، لأن ذلك يعني عودة الزمن إلى الوراء.

بشــكل متساوٍ فإن المفاعيل فــوق العادية تؤثر في المكان، الذي يتمتــع بالمرونة أيضاً عندما يمتط الزمان بتقلص المكان.

الطيــران في الفضاء، يجعل ساعــة الطائرة تتكُّ أقل مما تتكُّــه الساعة الموجودة على الأرض. وبالمثل، تظهر الطائرة المتحركة أصغر من مثيلتها على الأرض. وعلى كل حال، فإن ثانية واحدة من الزمن تعادل كمية هائلة من المكان نحو (١٨٦٠٠٠ ميل).

مفارقة التوءم

فــي الفيزياء، متناقضة التوءم هي تجربة فكرية فــي النسبية الخاصة التي تنطوي على التوائم المتماثلة، إذ يقوم أحدهما برحلة إلى الفضاء في صاروخ عالي السرعة، وبعد عودته إلــى المنــزل يجد أن التوءم الذي بقي على الأرض قد أمضــى زمناً أطول من ذلك. فلو كان الصاروخ يسيــر بسرعة تقارب سرعة الضوء، فإن رحلته التي استغرقت سنة واحدة فحسب، يكــون قــد انقضى خلالها أكثر من سبــع سنوات على الأرض. إن تحريــر الزمان من مفهوم العالميــة المطلق، والسماح لكل مراقب زمني أن يتدحرج نحو المستقبل بشكل حر ومستقل،

يجبرنا على التحرر من فرضيات عاشت طويلاً. لا توجد لحظة عالمية حاضرة. لا يوجد إجماع على اختيار «اللحظة الآنية». فالآن عند الأول بالنسبة إلى مراقب، ليست نفسها عند الثاني بالنسبة إلى مراقب آخر.

من الصعوبة بمكان فهم فكرة عدم التمايز بين الماضي والحاضر والمستقبل، لأنَّ فرضية (الحاضر فحسب هو من له وجود فعلي) تشكل إغراءً كبيراً. ونحن نقبل عادة، من دون برهان، أن المستقبل مثل الحاضر غير متشكل وربما غير محدد؛ أما الماضي فقد ذهب دون رجعة، يمكن تذكره لكننا نقلع عنه. ويرى كثير من الفيزيائيين أن الماضي والمستقبل غير موجودين زمنياً، وأن اللحظة الحالية للواقع هي الوحيدة التي يبدو أنها تحصل في زمن، لكن النظرية النسبية تَعدُّ هذه الأفكارَ سخيفة تماماً، لأن الماضي والحاضر والمستقبل يجب أن تحصل بشكل متساوٍ. فالماضي بالنسبة إلى شخص أول، هو المستقبل لشخص ثان والحاضر لشخص ثالث.

الثقوب السوداء والزمان

كلما كانت الثقالة قوية، كان انحناء الزمان واضحاً. فمن المعلوم أن بعض النجوم تكون فيها قبضة الجاذبية شديدة جداً إلى درجة أن الزمن يتباطأ عدة أجزاء في المئة بالنسبة إلينا. في الواقع، تقع هذه النجوم على حافة العتبة التي يبدأ فيها تباطؤ الزمان يتسارع. فإذا كانت جاذبية مثل هذه النجوم أكبر بعدة مرات، فإن انحناء الزمن سيزداد تباطؤه حدة، حتى عند قيمة حرجة للجاذبية، يتوقف تماماً.

إن مراقبة هذا المشهد من على سطح الأرض، يظهر سطح النجم متجمداً بلا حراك. على كل حال، لا يمكننا أن نراقب هذا التوقف الزمني غير الاعتيادي، لأن الضوء الذي نرى بوساطته هو واقع أيضاً في قبضة النجم، وسيتناهى تواتره إلى ما وراء المنطقة المرئية من الطيف. يظهر النجم بلون أسود.

أيهما على صواب؟ مراقب على الأرض يرى رائد الفضاء يتسارع نحو الثقب الأسود، أم رائد الفضاء نفسه الذي يبعث بإشارات ضوئية نحو الأرض. مع اقتراب رائد الفضاء من سطح الثقب الأسود، تصبح المدّة الزمنية بين الإشارات الضوئية التي يرسلها أطول فأطول، وتأخذ الساعة التي يحملها بالتباطؤ قياساً إلى ساعتنا الخاصة إلى أن تقف عند أفق الحدث تماماً، حيث يتوقف الزمان. ويعود السبب في ذلك إلى أن مجال الجاذبية يزداد قوة إلى أقصى مدى يمكن تصوره. أما رائد الفضاء، ضمن إطاره المرجعي، فيتهادى إلى المركز في

زمــن قصير للغاية ليلاقي مصيره المحتوم. يظهــر أن كلا المراقبيْن على صواب من داخل إطارهمــا المرجعي، ولا يستطيع أحدهما أن يزعــم أن الآخر على خطأ. وهذا المشهد يدل بشكل قاطع على أن لكل منهما زمانه الخاص، وأن الزمان نسبي وليس مطلقاً.

سهم الزمان

خــلال الأبحــاث الجارية حول حل لغز تدفــق الزمان أصبح كثير مــن العلماء مشوشين جــداً حــول هذه الظاهرة، وذلك أن انسياب الزمان يتطلب أن تقاس سرعته في ضوء نوع من الزمــان أكثر أساسية، أو أن يكــون البديل هو أن ينساب الزمــان بالنسبة إلى نفسه – وهذا باطل منطقياً. أما لو قبلنا وصفاً زمكانياً رباعي الأبعاد للكون، فسيكون الزمكان مجرد وجود فحســب، وحينئذٍ لن يستطيع أن ينساب. وبدلاً من فكرة انسياب الزمان، يفضل العلماء فكرة عــدم تناظر الصيــرورات الزمانية. فعدم التناظر بين الماضــي والحاضر في الكون، يسببه القانــون الثانــي في الترموديناميك. لكن عندمــا يُتَفحَّص أساس القانــون بعناية، فإن عدم التناظر يختفي تماماً.

عند نزع سدادة قارورة عطر في غرفة محكمة الإغلاق، سيتبخر العطر وينتشر في أرجاء الغرفــة وتصل رائحته إلى كل شخص فيها. إن الانتقال من عطر سائل إلى عطر غازي –من الترتيب إلى الفوضى– عمليــة ليست قابلة للعكس، ومهما انتظرنا طويلاً، فلن تجد جزيئات العطــر المنتشرة في الهواء طريقها إلى القارورة لتعيد تكوين السائل مرة ثانية. طريقة تبخّر العطر وانتشاره، تقدم نموذجاً كلاسيكياً لعدم التناظر بين الماضي والمستقبل.

لكــن هذا الأمر ليس المشهد النهائي تماماً، فقد ينعكس سهم الزمان وتتحطم فكرة عدم التناظــر تماماً على المستوى الذري. لأن أي اصطدام بين جزيئين منفردين ما هو إلا عملية قابلــة للعكس، أي متناظرة زمنياً. لذلــك فإن تشكل العطر من جديد عملية ممكنة الحدوث، لكن احتمال حدوثها ضئيل إلى درجة شبه معدومة تقريباً.

لغز سهم الزمن ووحدانية الاتجاه ــ أي كيف يمكن لعدم التناظر بين الماضي والمستقبل أن يصدر عن جسيمات تصدم بعضها تناظرياً ــ حرّض خيال كثير من الفيزيائيين البارزين.

بــدءاً من **جيمس بولتزمان** في القرن التاسع عشر وحتــى الآن، لا يزال الجدال مستمراً دون انقطاع، فقد أكد بعضهم وجود مواصفة خاصة لا مادية، تدفق زمني، يكون مسؤولاً عن سهم الزمان، وأن حركات الجزيئات الاعتيادية غير مؤهلة لترك بصمات عدم تناظر الماضي

- المستقبـل على الزمان. بُذِلَت جهود مضنية تعزو مصـــدر التدفق إلى عمليات كمومية أو إلى تمدد الكون، ويشابه تدفق الزمان من وجوه كثيرة - بشكل مساوٍ وملتبس - الاعتقاد بقوة الحياة.

عــدّ كثير من العلماء اكتشاف القانون الثاني فـــي الترموديناميك في القرن التاسع عشر حادثـــة مشؤومة. كانت الفلسفة المهيمنة في ذلك الوقت هـــي أن الحياة، المجتمع، والكون، بوجه عـــام، في حركة لولبية صاعدة لا تنتهي أبداً. وعندما نشر **داروين** كتابه «أصل الأنواع» عـــام (١٨٥٩م)، الذي افترض فيه أن أشكال الحياة المعقدة يمكن لها أن تنشأ من أشكال أقل تعقيداً، تعززت الفكرة الخاصة لكون يتطور باستمرار. في هذا المناخ المتفائل، كان اكتشاف تَفـــكّكِ طاقة الكون تتفكك بثبات وبشكل غير قابـــل للاستعادة، قد شكّل صدمة كبرى لعلماء وفلاسفة القرن التاسع عشر.

فـــي الحقيقة، أصبح الشعور السائد أن القانون الثانـــي يعني في نهاية المطاف استحالة تجنـــب تفـــكك الطاقة إلى حرارة ضائعة، وأن كل شيء في هـــذا الكون سيكون له في النهاية درجـــة الحرارة نفسها. وقد أطلق العلمـــاء على ذلك مصطلح «الموت الحراري للكون»، ورأوا في ذلك النهاية الحتمية التي لا مفر منها.

أثّـــر هذا المفهوم التشاؤمي، الذي أوحى به القانون الثاني في الترموديناميك، حتى على الأدب والموسيقـــا في ذلك العصر. ونسوق فيما يلي بعضـــاً من أبيات قصيدة كتبها الشاعر **ألجرنون سوينبورن**، يظهر فيها عبثية الحياة وسوداويتها:

لا نجمة ولا شمس سوف تذوي
ولا تغيّر يعتري النور
ولن يتبدل صوت خرير المياه
ولا أي صوت أو منظر
لا أوراق شتوية أو ربيعية
لا أيام ولا أشياء نهارية
لن يعتريها التغير
كل ما هناك نوم أبدي
في ليل أبدي.

باستثنـــاء القانون الثاني في الترموديناميــك، فجميع قوانين الطبيعية الأساسية لا تعتمد على جهة الزمان، فهي صالحة سواء كان الزمان ينساب إلى الأمام أم إلى الوراء.

فلو رصدنا دوران نجم مذنب حول الشمس في اتجاه معين، ثم انعكس الزمان، لوجدنا أنَّ هــذا النجم سيتبع المدار نفسه، ولكن في الاتجاه المضاد. كذلك الحال، لو تصورنا كرة تقع على الأرض ثم ترتد ثانية إلى نقطة البدء، وانعكس اتجاه الزمان، لظلت الكرة تقع على الأرض وترتد إلى نقطة البدء. فمن المؤكد أن قانون الجاذبية متناظر فيما يتعلق بالزمان.

هــذا التناقض بين السويتين الجهرية والذرية يمكن إزالته إذا كان تناظر الزمان فحسب، مثــل الحياة، مبدأ تكاملياً لا يمكــن اختزاله إلى خواص جزيئــات أحادية. لا يوجد تناقض بيــن التناظر على المستوى الذري، وعدم التناظر علــى المستوى الماكروسكوبي (الجهري). ببساطــة هما سويتان مختلفتان من الوصــف. عندئذٍ يتوهم المرء، أن الزمن لا يتدفق عملياً على الإطلاق؛ إنما الموضوع بأكمله في العقل.

عندمــا نحــاول أن ننقب بعمق عن مصدر تدفــق الزمان في إحساسنــا سنواجه تشابك المتناقضة والاضطراب نفسه الذي يواجهنا عند أيٍّ محاولة جادة لفهم الذات، ومن الصعب مقاومة الشعور بأن المسألتين متقاربتان فعلياً.

خلال تدفق نهر الزمان فحسب يمكن أن ندرك أنفسنا. ويرى الأستاذ في العلوم المعرفية **دوغلاس هوفســتاتر** أن الدوران الدوامي للإشارة الذاتية هو الذي ينتج ما نطلق عليه الوعي والوعي الذاتي، وهو يؤمن بقوة أن هذه الدوامة نفسها هي التي تدفع بتدفق الزمان النفسي. لهذا السبب يؤكد أنه لا يمكن أن يُحلّ لغز العقل دون حلّ لغز الزمان.

يرتبط مفهوم الزمان مع مفهوم الإرادة الحرة والحتمية، وهي مسألة فلسفية ما تزال تشغل أذكــى العقول في التاريخ البشري. وبغضــ النظر عن الاعتبارات الفلسفية، يعتمد التنظيم في حياتنا اليومية بشكل أساسي على مفاهيم الماضي، والحاضر، والمستقبل، ومسألة مرور الزمن ليست مهمة أبداً. حتى إن الفيزيائيين عندما ينقطعون عن تلك الطريقة من المحادثة والتفكير فإن مقدرتهم على التحليل تُنسَى. يجب الإقرار بأنّه كلما تفحصنا هذه المبادئ عن قرب، بدت أكثر مراوغة وغموضاً، وتغدو جميع مقولاتنا تنتهي إما حشواً وإمّا من دون معنى.

لا يحتاج الفيزيائي إلى تدفق الزمن ولا إلى الآن في عالم الفيزياء، وفي الحقيقة، إن نظرية النسبية تحذف الحاضر العالمي لجميع المراقبين. وإذا كان من معنى لهذه المفاهيم (وكثير

من الفلاسفة ينكر أن يكون لها ذلك)، فإنها على ما يبدو تعود إلى علم النفس أكثر مما تعود إلى الفيزياء.

نحـن جميعاً أبناء الزمان، ولكـن يجب ألا ننسى أن الزمان يلتهـم أبناءه، ولا حيلة لأحد لمقاومتـه. أدرك المتنبي هـذه الحقيقة الأبدية، فلجأ إلى بـاب التمنيات للتعبير عنها وهو غاضب وحانق:

ولـو بـرز الـزمـان إلـيّ شخصاً
لخضّب رأسَ مفرقه حسامي

الهوامش

(١)- حسب الرؤية النيوتنية: ينعدم الفارق بين الأجسام المتحركة حركة منتظمة والأجسام الساكنة، مما أدى إلـى نشوء فكرة الإطار المرجعـي أو الجملة المرجعية العطالية، وهي جمـل مرجعية ساكنة أو متحركة حركة منتظمة غير متسارعة.

يلاحظ جميـع المراقبين في الجمل المرجعية العطالية القوانين الفيزيائيـة نفسها، فالمراقب الساكن على الأرض يرى الكرة الصغيرة تسقط سقوطاً حراً بشـكل عمودي، كما المراقب في جملة عطالية متحركة بانتظام (مثل قطار ذي سرعة ثابتة) سوف يرى الكرة تسقط بشكل عمودي أيضاً. في الجمل اللاعطالية التـي تتحرك بشكل غير منتظم حركة متسارعة، تخضع الأجسام والمراقبون ضمن هذه الجمل إلى قوى افتراضية مثل قوى كوريوليس، مثل هذه القوى لا يمكن نشوؤها ضمن الجمل العطالية.

مئة عام على مؤتمر السلام في باريس

مازن المغربي

قبل قرن من الزمان عقد مؤتمر السلام في باريس عام (١٩١٩م) بمشاركة ممثلين عن القوى المنتصرة في الحرب العالمية الأولى. تمخض المؤتمر عن مجموعة من النتائج، وكانت له تداعيات مهمة ما زالت قائمة حتى الآن في منطقة شرقي البحر المتوسط. تمكنت أوروبا من تجاوز نتائج الحرب العالمية الثانية في حين عجزت الكيانات السياسية؛ التي قامت بالاستناد إلى نتائج مؤتمر فرساي عن حل معظم المشكلات التي رافقت تأسيسها، الأمر الذي يعزز رأي الباحث دافيد فرومكين؛ الذي عرضه بشكل شائق في كتاب حمل عنوان «نهاية الإمبراطورية العثمانية ونشوء الشرق الأوسط الجديد»، وكان عنوانه الفرعي «سلام ينهي كل سلام»، إذ إن ما ورد في الكتاب يشير إلى أن الكيانات السياسية التي حملت أسماء سورية والعراق، ولبنان، وفلسطين والأردن قامت بمعزل عن مشاركة سكانها وخُطِّطت حدودها وعُدّلت بالاستناد إلى توازنات دولية بين القوى الأوروبية المتنافسة. رُسِمَت حدود العراق وفق توجيهات حكومة الهند البريطانية، وفُصِلَت فلسطين عن سورية الطبيعية، وأنشئ الكيان اللبناني على حساب الداخل السوري الذي انتزعت منه أربعة أقضية بالإضافة إلى ميناء طرابلس، واختُلِقَ كيانٌ سُمّي شرق الأردن في البداية ليكون حاجزاً بين قوات ابن سعود والمستوطنات اليهودية في فلسطين. لم يمتلك أيٌّ من هذه الكيانات مقومات الدولة الحديثة، ولم يضع أي إستراتيجيات لبناء هويات وطنية. وعندما نراجع الظروف التي

رافقت انعقاد مؤتمر فرساي (١٩١٩م) نكتشف أن مصير الكيانات التي سكنتها أغلبية ناطقة باللغة العربية في شرقي البحر المتوسط وفي العراق كان محكوماً مسبقاً بالإخفاق نتيجة لكثيرٍ من العوامل، واليوم ونحن نعيش مرحلة مخاض تشابه تلك التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى. نجد أن هناك الآن فرصة حقيقية لبناء دولة سورية عصرية توفر الحياة الكريمة والآمنة لكل سكانها وسيكون من المفيد محاولة التعلم من دروس الماضي، وربما كان مؤتمر السلام في فرساي من أهم المراحل التي يجب إخضاعها للدراسة على خلفية واقع أنه كان العامل الأبرز في تشكيل بلداننا.

كان مؤتمر باريس للسلام حدثاً غير مسبوق، فقد استمر ستة أشهر وجمع شخصيات أتت من مختلف أصقاع العالم، ومن الصعب تخيل تكراره. فعلى مدى أشهر متتالية اجتمع أبرز قادة الدول المنتصرة وتحاوروا وتوافقوا واختلفوا وكان لاجتماعاتهم نتائج مهمة. كان رئيس الولايات المتحدة هو أبرز المشاركين، فبالإضافة إلى واقع أن بلاده خرجت من الحرب بوصفها القوة العالمية الكبرى، كان للمبادئ التي سبق له إعلانها في عام (١٩١٨م) تأثير كبير في كثيرٍ من اللاعبين الثانويين.

ضم المؤتمر رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وأستراليا وكندا وملكة رومانيا. وكان هناك مجموعة من ممثلي بعض الحركات التي تمردت على سلطة الإمبراطورية العثمانية واصطفت إلى جانب بريطانيا متوهمة أن حكومة صاحبة الجلالة ستكون حريصة على الوفاء بالوعود التي قطعتها لها. وشارك الأمير فيصل بن الحسين في المؤتمر بوصفه ممثلاً لمملكة الحجاز نتيجة لرفض فرنسا القاطع قبوله ممثلاً لمملكة عربية، وفق الصيغة التي تولدت في ذهن الشريف الحسين بن علي بالاستناد إلى مراسلاته مع السيد هنري مكماهون. كما شارك في المؤتمر أيضاً البطريرك الماروني الذي اعتمد على دعم فرنسا الأم الحنون للكيان اللبناني. وكان للحركة الصهيونية مقعد في المؤتمر تقديراً لدور الفيلق اليهودي الذي قاتل تحت قيادة الجنرال إدموند اللينبي في معارك فلسطين. وسعى سعد زغلول إلى المشاركة في المؤتمر على رأس وفد من الزعماء الذين أبرزتهم ثورة (١٩١٩م)، ولكنه جُوبِه بمعارضة بريطانية شديدة. كما كان هناك ممثلون عن الأكراد والأرمن والسريان والآشوريين، لكن لم يكن هناك أي ممثل عن الفلسطينيين بسبب موقف لندن المعارض لمشاركة ممثل عن عرب فلسطين بذريعة أن عرب فلسطين حافظوا على ولائهم للدولة

العثمانيــة حتى اللحظة الأخيرة. جاء الجميع بهدف الإسهــام في بناء عالم ما بعد الحرب. كانــت الحرب التي ظلت أوروبيــة حتى فصلها الختامي مع نزول قوات الولايات المتحدة في أوروبــا بهــدف دعم بريطانيا وحلفائها، مجزرةً بشعة أودت بحيــاة ٢٠ مليون شخصٍ وتركت عدداً مماثلاً من المصابين. وعقد المؤتمر في ظل استمرار القتال والمعارك في روسيا وفي تركيــا. ففي روسيــا انقلب الوضع السياسي إثر الإطاحــة بالقيصر في شباط عام (١٩١٧م) وتعقــد الأمر أكثر مع استيلاء الحزب البلشفــي على السلطة في تشرين الأوَّل عام (١٩١٧م) وانــدلاع حــرب أهلية شرسة نتيجة لرعب البلدان الرأسمالية مــن انتشار لهيب الثورة غرباً. أما في تركيا فقد انتفض كمال أتاتورك ضد اتفاقيات السلام مع الحلفاء وتمكن من تعديلها علــى حساب المناطق الناطقة باللغة العربية شرقــي البحر المتوسط، ولم يكن لكلا البلدين مندوب في مؤتمر السلام.

عمــل قادة الدول الكبرى المنتصرة تحــت ضغط جماهيري كبير، ففي تلك المرحلة كان هنــاك إعلام مستقل أسهم في تشكيل رأي عام لا يمكــن تجاهله. الدمار الرهيب والخسائر فــي الأرواح فرضت علــى الناس فكرة البحث عن جهة يجب عليهــا تحمل مسؤولية الحرب والتعويض عن الخسائر، الأمر الذي كان متعارضاً مع مبادئ ويلسون.كانت النقاط التي أعلنها الرئيس ويلسون واضحة إذ نصت النقطة الخامسة على وضع إدارة عادلة للمستعمرات تضمن مصالــح سكانها دون أن يكون هناك رفض لمنطق الاستعمار في حد ذاته، أمَّا النقطة الثانية عشرة التي حسمت مصير بلادنا فنصّت على ضمانة سيادة تركية على المناطق التي يسكنها الأتــراك ومنح سكان الولايات العثمانية مــن غير الأتراك حق تقرير المصير وإمكانية إقامة حكم ذاتي. بالمقابل كان إدراج نص إعلان بلفور ضمن وثائق المؤتمر الرسمية بمنزلة ضمانة أكثــر من كافية لإنشاء كيان سياســي يهودي في فلسطين مع تجاهل ما ورد في نص الإعلان من عدم الإضرار بمصالح باقي سكان فلسطين من غير اليهود.

سيطرت القــوى الخمس الكبرى فرنسا وبريطانيا وإيطاليــا والولايات المتحدة واليابان علــى مجريات المؤتمر، لكن نتيجة مواقــف الغطرسة الأوروبية هُمِّشَ دور اليابان التي مثلت وقتهــا قوة عسكرية صاعــدة، وشُكِّلَت (٥٢) لجنــة، عقدت (١٦٤٦) جلســة وكانت ما يشبه حكومة عالمية شارك فيهــا ممثلون من مختلف أصقاع الأرض. وكانت النتيجة مجموعة من الاتفاقيــات التي أعادت رسم حدود البلدان الأوروبية. أمــا فيما يخص بلادنا فكانت نتائج

المؤتمـر كارثة حقيقية ما زلنا نعاني من تداعياتها. كان احتـلالُ الجيشِ الفرنسي الساحلَ السـوري عام (١٩١٨م) أوَّلَ مؤشر علـى تراجع بريطانيا عن وعودهـا بإقامة مملكة عربية فـي ظل العرش الهاشمـي. كانت حجة بريطانيـا أن الحسين أساء تفسيـر مضمون رسائل مكماهون وأنه لم يكن من الوارد بالنسبة إلى بريطانيا، الملتزمة بمعاهدة سايكس بيكو وبوعد بلفور، إنشاء كيان سياسي يتعارض مع هذين الالتزامين لذا بادرت لندن إلى فرض إدراج نص إعـلان بلفور ضمن وثائق المؤتمر. كان هنـاك كثيرٌ من الظروف الموضوعية المتعارضة مع مصالـح سكان ولايات الدولة العثمانية الناطقة باللغة العربية، لكن الأدهى أن العامل الذاتي أدّى دوراً سلبيـاً لا يقـل أهمية عـن دور الظروف الموضوعيـة. وإذا استعرضنا الدور الذي أدّاه المشاركـون من المكونات الاجتماعية التي عاشت فـي ظل الحكم العثماني فيما عرف بمنطقة الهلال الخصيب، نكتشف مجموعة من العوامل التي أعاقت تحقيق أماني سكان تلك البـلاد. ففي واقع الأمر لم يعـرف سكان تلك المناطق نظام حكم مركزي، ولم تؤدِّ محاولات السلطة العثمانية تطبيق الإصلاحات التي حملت اسم التنظيمات إلى خلق شعور بالانتماء إلى منطقة جغرافية محددة تتكلم لغة وطنية واحدة، ويجمعها ماض مشترك، وتتطلع إلى مستقبل أفضـل. قامت الدول الكبرى بتسمية مندوبي سكان الولايات العثمانية السابقة إلى المؤتمر، ولـم يكن للشعب أي دور في اختيار أولئك الممثلين الذيـن كانوا في حقيقة الأمر مرتبطين سياسياً ومالياً بالعواصم الأوروبية.

بالمقابـل كان حاييـم وايزمان زعيم المنظمـة الصهيونية العالمية معتمـداً على شبكة علاقـات واسعة جمعته مع كثيرٍ من قادة العالم بما في ذلك ممثلي السوريين واللبنانيين في المؤتمـر وقد بَذَلَ جهوداً استثنائية تُوجّـت بمعاهدة فيصل - وايزمان. ومن المثير للدهشة واقع نجاح الحركة الصهيونية في كسب تأييد معظم الزعماء العرب وبشكل خاص عائلتي ابن سعود والحسين بن علي.

وفـي السابع والعشرين من عـام (١٩١٩م) استقبل المجلس الأعلى للحلفاء وفد المنظمة الصهيونية العالمية الذي ضم: حاييم وايزمان، وناحوم سولوكوف، ومناحيم يوسيكين، وأندريه سبير، ووسيلفان ليفي.

كان ناحوم سولوكوف ممثلاً للمنظمة الصهيونية في فلسطين، وعبَّر في كلمته عن فرحته باقتـراب تحقيـق الحلم الصهيوني، وطالـب بانتداب بريطاني على فلسطيـن. أما وايزمان

الذي سبق له ترؤس لجنة زارت فلسطين ودرست أوضاعها فقد قدّمَ تقريراً مفصلاً تضمن المطالبة بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وعبّر يوسيكين وسبير عن آراء مماثلة لكن كان لسيلفان ليفي موقف مغاير، إذ قال:

«أنا لست صهيونياً. أنا يهودي من أصل فرنسي، وأشعر بأنني فرنسي، قبل كل شيء». لكنه شكك بقدرة فلسطين على استيعاب يهود أوروبا والعالم، كما عبر عن عدم اقتناعه بإمكانية تشكيل أمة من مجموعات يهودية عاشت على مدى قرون ضمن مجتمعات مختلفة، وكان يقصد بحديثه يهود شرق أوروبا، أي روسيا وبولونيا بشكل أساسي انطلاقاً من فكرة أن اليهود في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة نالوا حقوق المواطنة الكاملة. واعترض على فكرة وجود شخصية وطنية يهودية، ورأى أنه من غير المقبول أن يكون لدى شخص مثله يحمل الجنسية الفرنسية ويمارس حقوق المواطنة في بلده، مشاعر ولاء لكيان سياسي آخر، وكان يعبر بذلك عن رأي البارون روتشيلد وعن آراء معظم يهود بلدان أوروبا الغربية. كان الأمر بمنزلة صدمة لوايزمان لكن المجلس الأعلى للحلفاء تجاهل سيلفن ليفي على أساس أنه لم يمتلك تفويضاً لتمثيل أي مجموعة يهودية، بل دَعَتْه الحكومة الفرنسية بصفته شخصية يهودية بارزة. وفي مساء ذلك اليوم أعلن ممثل فرنسا في المجلس الأعلى للحلفاء إقرار مشروع الانتداب البريطاني على فلسطين ودعم إنشاء ملاذ وطني لليهود. والغريب أنه لم يبرز خلال المؤتمر صوت آخر عارض المشروع الصهيوني، بل إن حاييم وايزمان أورد في مذكراته أن نوري السعيد كان السياسي العربي الوحيد الذي عارض الصهيونية. كان لدى نوري السعيد خبرة في التعامل مع البريطانيين وأدرك أنهم لن يتراجعوا عن مخططاتهم وهو بدوره لم يبذل أي جهد حقيقي لمعارضتها.

وكان ممثل الموارنة في المؤتمر هو البطريرك الياس حويك الذي تولى منصبه في التاسع من كانون الثاني (١٨٩٩م)، وسار على درب من سبقوه في المنصب بالاستناد إلى دعم فرنسا والفاتيكان، وبذل كثيراً من الجهود لتحصين وضع رعيته. وعلى الرغم من أن الحويّك كان يُعبِّر دائماً عن تعلُّقه بالمواطنة العثمانية، إلا أنه كان يسعى إلى تحصين نظام المتصرفية الخاص بلبنان والامتيازات التي ينعم بها، ويُطالب بإصلاحات إدارية ونظامية وبتحسين سبل العيش وجعل البلاد قادرة على الحياة وإيقاف الهجرة. وكان له نشاط ديبلوماسي دولي ففي عام (١٩٠٥م) قام برحلة إلى الفاتيكان والتقى البابا بيوس العاشر، كما زار فرنسا واجتمع هناك مع رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وانتقل بعد ذلك إلى حاضرة الدولة العثمانية

حيث التقى بالسلطان عبد الحميد الثاني. كان لدى فرنسا مسوّغات قوية لمنح الموارنة مندوباً في مؤتمر السلم، صحيح أن الموارنة لم يقاتلوا إلى جانب الحلفاء كما فعل فيصل بن الحسين، لكن اندلاع الحرب العالمية وانحياز الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا أدى إلى إلغاء نظام المتصرفية في لبنان وفُرِضَت سلطة عثمانية مباشرة حاصرت جبل لبنان وتسببت في مجاعة رهيبة.

شهدت نهاية الحرب انهيار سلطة الدولة العثمانية في بلاد الشام، وعندما تألفت حكومة الأمير فيصل العربية في دمشق، أرسلت اللواء شكري الأيوبي حاكماً عاماً على ولاية بيروت وجبل لبنان، فحضر إلى بيروت في ٧ تشرين الأول، وأعلن دخول البلاد تحت الحكم الفيصلي، ثم توجه إلى مركز الحكومة في بعبدا وأعلن في احتفال حاشد قيام الحكومة العربية في جبل لبنان، ورفع العلم العربي على السرايا، ودعا مجلس الإدارة الشرعي المنتخب سنة (١٩١٢م) إلى الاجتماع، وكلّف رئيسه حبيب باشا السعد بتولّي رئاسة الحكومة في جبل لبنان من جانب الأمير فيصل باسم والده الشريف حسين. فقبل السعد هذا التكليف وأقسم يمين الولاء والإخلاص للشريف حسين. وكان الأمير محمد سعيد الجزائري قد أبرق إلى البطريرك الحويّك يطلب منه باسم العربية (العروبة) والوطن أن يؤسس الحكومة العربية المستقلة في جبل لبنان، وهذا ما طلب إنفاذه عدد من وجهاء كسروان وممثلين عن عائلاتها، لكن الحويّك لم يتجاوب مع هذا المطلب. وخلال أيام وصلت القوات البريطانية ودخلت بيروت كما قامت فرنسا بإنزال بحري، وأُنزِل العلم العربي عن دار السرايا، وانتهى الحكم العربي في لبنان ورحب الحويك بدخول الحلفاء.

«وفي (٩/١٢/١٩١٨م)، أرسل مجلس إدارة جبل لبنان إلى مؤتمر الصلح في باريس أوّلَ وفدٍ لبناني رسمي، برئاسة داود عمّون الماروني وعضوية إميل إدّه الماروني أيضاً وعبد الله خوري سعادة من الروم الكاثوليك وعبد الحليم حجّار السنّي ونجيب عبد الملك الدرزي، للمطالبة باستقلال لبنان الكبير. وفي (١٨/١/١٩١٩م)، افتتح مؤتمر الصلح أعماله في باريس. وفي (١٥/٢/١٩١٩م)، كانت مداخلة الوفد اللبناني الأوَّل، لكنه لم يلْقَ أيّ جواب».

وحاولت فرنسا عن طريق مراسلات بين بكركي وجورج بيكو إقناع البطريرك بمحاسن الإبقاء على الوحدة مع سورية، لكن جواب البطريرك كان حازماً بطلب الاستقلال الكامل.

في الواقع كانت تلك المرحلة مرحلة تقرير مصير شعوبِ منطقة الشرق الأوسط وأوطانِها، ولكلٍّ من الأطراف المؤثِّرين مشروعه ويسعى إلى تحقيقه. وكان الأمير فيصل يُمثِّل التيار العربي الإسلامي الذي يُطالِب بالوحدة السورية التي تضمّ لبنان إلى سورية عادّاً هذا الأمر خطوة تقود نحو الوحدة العربية. وللوصول إلى غايته، حاول إيقاظ الحس القومي العربي والديني الإسلامي وتحالف مع الإنكليز.

تلا ذلك إعلان استقلال لبنان في حدوده التي أقرت عام (١٨٦٠م)، الأمر الذي رفضه فيصل، لكن البطريرك اللبناني حظي بدعم مجموعة من الوجهاء منحوه تفويضاً لتمثيلهم في مؤتمر الصلح. حمل البطريرك معه طلباً بمنح لبنان استقلالاً تاماً لكن ردود فعل السلطات الفرنسية جعلته يعدل موقفه، ويقبل فكرة انتداب فرنسي على لبنان وبذل كثيراً من الجهد لتحقيق أهدافه:

«من (١٩١٩/٨/٢٣م) حتى (١٩١٩/١١/٧م) أجرى البطريرك الحويّك لقاءات واتصالات بأعضاء مؤتمر الصلح ورجالات الدولة وأعضاء المجلس النيابي الفرنسي القادرين على مساعدته، لاستيعاب تطلُّعات فيصل ولإقناع الفرنسيين بـ«القضية اللبنانية». وفي (١٩١٩/١١/١٠م) حصل البطريرك الحويّك على تعهُّدٍ خطي من رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ورئيس مؤتمر الصلح كليمنصو، يَعِد فيه اللبنانيين بالاستقلال، والجبل اللبناني بالسهول والمرافئ البحرية الضرورية لازدهاره. وعُدَّ هذا التعهُّد بمنزلة وثيقة الاستقلال.

وسعى الآشوريون إلى تحقيق استقلال وطني من خلال إسهام مندوبتهم سورما خانم وفق ما ورد في كتاب وثيل ما نصه: «إن الآشوريين يبحثون عن الاستقلال، ليس على أساس المكافأة واللطف، بل لأنهم يدركون تماماً بأنهم يستحقونه، لذا فإنهم ينشدونه تماشياً مع قوانين العدالة. فقد قاتل الآشوريون للحصول على هذا الاستقلال وطرزوه بدمائهم الطاهرة التي سالت في ساحات القتال. وتشهد المقابر المنتشرة في كردستان وتركيا وبلاد فارس وروسيا وبولندا وفرنسا، التي تقف شامخة هناك لتمثل الثمن الذي دفعوه من أجل استرداد أراضيهم واستقلال شعبهم. لذا فإن الأمة التي فقدت ثلث قدرتها وقوتها بسبب اشتراكها في الحرب لا بدّ أن تكون مؤهلة لتمييز ومعرفة الاستقلال الذي تنشده في ظل الشعارات السياسية المتصاعدة التي تدعو إلى حق تقرير المصير».

ونصل في النهاية إلى مندوب العرب الرئيسي إلى مؤتمر الصلح الأمير فيصل بن الحسين الذي اكتفى بتقديم المذكرة الآتية إلى المؤتمر:

مذكرة الأمير فيصل إلى مؤتمر الصلح في باريس

٢٩ كانون الثاني سنة ١٩١٩م

«جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الإسكندرونة ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً، معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم. ويستثنى من هذا الطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة، وعدن وهي محمية بريطانية. وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا، مثل تثبيت الدول القائمة فعلاً في تلك المنطقة، وتعديل الحدود فيما بينها وبين الحجاز، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن، وإنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها، وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة، وإني لأستند في مطلبي هذا إلى المبادئ التي صرَّح بها الرئيس ولسن (وهي مرفقة بهذه المذكرة)، وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية».

وهكذا لخص فيصل بن الحسين مطالب الشعوب الناطقة باللغة العربية بعشرة أسطر بدأها بالإقرار بأن والده انتفض ضد الدولة العثمانية بناء على طلب بريطانيا وفرنسا. وكان فيصل يدّعي أنه يمثل العرب، لكنه بكل بساطة أخرج كل سكان شمال إفريقيا من الناطقين باللغة العربية من حساباته. ولنقارن ما ورد في مذكرة فيصل مع ما ورد على لسان ممثل الآشوريين الذي طالب بحقوق مُهِّدَ الطريق لها بالدماء، أو لنقارن ممارساته في المؤتمر بممارسات حاييم وايزمان، ولنكتشف أن هذا الرجل الذي حمل رتبة جنرال في الجيش البريطاني كان لا يحتاج إلى من يذكره بحقيقة وضعه بوصفه شخصاً مرتبطاً تماماً بالسياسات البريطانية. لا يتعلق الأمر هنا بإطلاق أحكام على الزعماء العرب ففي تلك المرحلة لم يكن الوجود اليهودي في فلسطين يمثل أي تهديد جدي إذ لم يتجاوز عدد اليهود في فلسطين ستين ألفاً، لكن الغريب هو توقيع الرجل على اتفاقية تتعلق بمصير مناطق لا تربطه بها أي

علاقــة، إذ تضمنت اتفاقية فيصل- وايزمان اعتــراف فيصل بوعد بلفور وقبوله بقيام دولة يهودية تضم كامل فلسطيــن، بالإضافة إلى جنوبي لبنان وهضبة الجولان. وصحيحٌ أنه ربط موافقتــه بالتزام بريطانية بتعهداتها لوالده، لكن الوقائع تشير إلى تمكن وايزمان من تحقيق مكســب سياسي شديد الأهمية. لكن تتبع المســار السياسي لفيصل الساعي إلى تلبية طموح شخصي يجعلنا ندرك عجزه عن تبني أي موقف معارض للمشروع البريطاني.

لم يكن قرار وضع فيصل على رأس قوات العشائر العربية من اختيار الحسين بن علي الذي كان ميــالاً إلى ابنه عبدالله الذي عُرِفَ بشدة دهائــه، بل بناء على رأي ضابط الاستخبارات البريطانيــة الكولونيل لورنس. وبالرجــوع قليلاً إلى الخلف نجد أن الحسين بن علي لم يفكر قــطّ بالخروج علــى السلطان، وكانت مشكلته الحقيقية مع ضبــاط حركة تركيا الفتاة الذين أرادوا تعزيز سلطة إسطنبول على الجزيرة العربية من خلال مد سكة حديد تمر بمكة لتصل إلــى مينــاء جدة، في حين كان كل هــمّ الحسين حصر منصب شريف مكــة في ذريته. وكان النــواب الناطقــون باللغة العربية في مجلس المبعوثان العثمانــي قد طلبوا من الحسين عام (١٩١١م) تزعّم حركة تمرد ضد الدولة العثمانية لكنه رفض.

وكان الحسين يعتمد على ولديه عبدالله الابن المفضل وممثل مكة في البرلمان العثماني الــذي حث أباه على معارضة الباب العالي، وفيصل نائب جدة الذي دعا أباه إلى التفاهم مع الحكومــة. أدت تطورات الأحداث إلى دفع الحسين بــن علي إلى الاتصال بالبريطانيين بعد أن شعــر بتعاظم تهديــدات منافسيه المحليين، مثل ابن سعود زعيــم نجد، ومثل آل الرشيد فــي حائل. وبعد أن وصلته أنباء عن عزم قادة تركيا الفتاة على عزله، تلقى من اللورد كتشنر وعــداً بمنح العرب الاستقلال وكان المقصود، مــن وجهة النظر البريطانية، استقلال العرب عن الأتــراك وجمعهم في اتحاد فيدرالــي مرتبط ببريطانيا. انتبهت أجهــزة الاستخبارات البريطانية إلى واقع وجود أعداد كبيرة من الناطقين باللغة العربية بين صفوف ضباط وجنود الجيشــ العثماني، والتقطت إشارات عن وجود حالة تذمر نتيجة التمييز بين الناطقين باللغة التركيــة والناطقين باللغة العربية. وكان فيصل قد أخبر البريطانيين بأن معظم جنود الفرق العثمانيــة الثلاث المتمركزة في منطقة دمشق كانوا من العرب. لكن جمال باشا انتبه للوضع فزجّ زعماء العرب في السجون، وشتت أفراد الفرق الثلاث، وقضى بذلك على إمكانية تنفيذ تمــرد عسكري كبير. ولاحقاً كتــب السيد هنري مكماهون بأن أنحس أوقات حياته كانت تلك التي رافقت تكليفه بمهام رعاية تمرد عربي ضد الدولة العثمانية.

سعى جمال باشا لنيل دعم فرنسا، لتنصيبه حاكماً على الدولة العثمانية لقاء إخراج الدولة العثمانية من الحرب، وضمن هذا السياق تمكن من الحصول على أسماء السياسيين العرب الذين لهم علاقات مع باريس، فشنقَ مجموعة منهم وهكذا تخلصت فرنسا بضربة واحدة من نخبة سياسية كانت ستعارض مخططاتها ووسعت الشرخ بين الباشا والعرب. ولم يحظ الحسين وفيصل ورجالهما بأي تقدير من المكتب العربي في القاهرة بل إن الكولونيل لورانس المتعاطف بشدة مع فيصل كتب: «أظن أن جماعة من الجنود الأتراك المحصنة في أرض مفتوحة كانت قادرة على هزيمة قوات الشريف... نزعَتُهم الفردية غالبةٌ عليهم، ولا يمكن أبداً تشكيل قوة منظمة منهم... هم بارعون في حرب العصابات فحسب».

وفي الواقع العملي لم تحظ تحركات الحسين بأي تأييد شعبي في البلاد العربية والإسلامية وهو إخفاق في تنظيم تمرد بين صفوف الجنود والضباط العرب، ولم يلتحق به سوى مجموعة محدودة من الضباط الناطقين باللغة العربية مثل عزيز المصري الشركي، ونوري السعيد الكردي، من ذوي الرتب المتوسطة، أما باقي الضباط العرب فظلوا على ولائهم للدولة العثمانية، ومن أبرزهم القائد البطل يوسف العظمة الذي تمكن من الارتقاء إلى مراكز سامية في الجيش العثماني. ومع توالي الأحداث شعر الحسين بانقلاب فيصل عليه وقال بمرارة: «لقد قلبوا ولدي ضدي ليعيش في كنف دول أخرى متمردة على والده... إن العيش مع ابنٍ غير مطيع وخائن قد أثقل كاهلي». لكن لم تكن خيبة الأمل من نصيب الحسين وحده، إذ صُدِمَ فيصل بتغير لهجة البريطانيين بعد السيطرة على دمشق، فقد أعلموه أن سلطته ستنحصر في سورية الداخلية، ولن يكون له أي علاقة بلبنان وفلسطين، وأن سورية ستكون تحت وصاية فرنسية، وقد حاول فيصل الاعتراض لكن الجنرال اللنبي كان واضحاً وصارماً إذ ذكر فيصل بأنه ضابط وعليه الاكتفاء بتنفيذ الأوامر دون مناقشة.

مما سبق نتبين أن مسار حياة فيصل لا يمكن أن يؤهله بأي شكل ليكون ناطقاً باسم الشعوب العربية، فهو لم يحصل على تفويض شعبي، ولم يتبن مشروعاً يتعارض مع المصالح البريطانية، بل عمل وفق إملاءات لندن. قد تكون نواياه حسنة لكن التاريخ لا يحكم على نوايا القادة، بل على إنجازاتهم. لا يمكن القول: إنه كان مخدوعاً إذ كانت هناك مجموعة من الوقائع التي تشير إلى مسار الأمور، مثل اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور، ومنع قوات فيصل من المشاركة في معارك فلسطين.

عـــاد فيصل من مؤتمر الســلام خالي الوفاض، قائلاً: إنه لم يكـن بالإمكان أفضل مما كان، أمــا الزعيم الفيتنامي هوشي منه، الــذي كان وقتها عاملاً في مصنع سيارات ستروين الفرنسيــة، فكانت ردة فعله علـى المؤتمر أن الفيتناميين سيجــدون طريقة أخرى لتحرير بلادهـم لذا صــار فيصلٌ ذكرى باهتة لدى الشعوب العربية، فيمــا بقي هوشي منه حاضراً بوصفه القائد العملاق الذي هزمــت قواته جيوش إمبراطوريتين استعماريتين، وتمكنت من تحقيق استقلال سياسي.

المراجع

(١)- أعمدة الحكمة السبعة.

(٢)- دايفيد فرومكين، نهاية الدولة العثمانية، ص١٠٨-١٠٩.

(٣)- موقع مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

(4)- Margaret Mac Millan, Des leçons de l'histoire? La conférence de paix de Paris de 1919.

https://www.international.gc.ca/odskelton/macmillan.aspx?lang=fra.

(5)- The flickering light of Asia: or The Assyrian Nation and Church by Joel E. Werda -1942.

(6)- http://judaisme.sdv.fr/perso/sylvlevi/conferen.htm.

(7)- http://www.bkerke.org.lb/patriarchs.php?patparam=18&catparam

موقع البطريركية المارونية - بكركي.

بسمة شيخو

شِعْر يلعب مع الألم

بيان الصفدي

القصيدة عند بسمة شيخو قطعة من حلم يقظة، من مَنام، فهي قد اهتدت مبكراً إلى الشعر، كترتيب مدهش جديد لكل ما نعرفه، وما نحلم به، وهي لا تقتفي أثر أحد، سوى أثر مخيلتها الخصبة وقلبها الدافئ الحزين، وأدواتها الطريَّة مثل دموع ورد مدعوك.

ندر أن تحمَّستُ لموهبة على هذا النحو، وعلى كثرة المواهب التي صادفتني، ظل يجمعني بها أمر عام مألوف، أناس يتعلمون «حرفة» الشعر، فمن الطبيعي أن يتعلَّموه من الكتب، ومن شعر غيرهم، فيقلّدوه، ويحاولوا الإضافة إليه، فيَسِمُوه بلغتهم وهمومهم، ولكن بسمة كانت استثناءً غريباً حتى الآن.

صدَّقتها – وهي المختصة بالفن التشكيلي- عندما قالت لي قبل أربع سنوات: إنها لا تقرأ شعراً لأحد، ما عدا ما يصادفها عرَضاً، ولم تقرأ في النقد الأدبي، ولم تمتلك اللغة امتلاكاً احترافياً، بل تقرأ روايات، وفي نيتها أن تفعل، وتستدرك هذا النقص.

صحيح أن تلقائية شعرها وسمتَ لغتها بفطرية لافتة، وسليقة لمَّاحة، لكن المدهش أن هذه الشاعرية الطازجة تألقت في نظري لأنها امتلكت أربع ركائز أساسية، هي روح مثقفة عميقة، وإحساس مرهف بالأشياء، وخيال قادر على التركيب العجيب للتفاصيل والمشاهد، ولغة عفوية حارة وبسيطة، تنقل الحالات والصور بلا استعراض لمهارات لغوية أو بلاغية، فقصيدتها على الدوام سيناريو مدهش، لحياة تتكسَّر على أدراج الزمن والأحداث.

حتـى سليقتها اللغوية لافتة، فعلى قلـة زادها من مائدة اللغـة الكلاسيكية، قلما تتعثَّر، بـل هي تحسُّ بروح الكلمات، وقدرة المفردة علـى التعبير، وعندما طلبت مني أن أدلَّها على مرجع يفيدها في امتلاك اللغة، فعلتُ وفي داخلي خشية من أن تفقد هذه الشاعرة قدراً من انسيـاب لغتها، وحريتها ودفئها، فتخسر شيئاً من هـذا التعبير التلقائي الحاذق، الذي يشبه بوحاً محموماً لعاشقة مهجورة، أو اعترافاً أمام مذبح! فهي تتحدث عن «حلم ملوَّن/ في دنيا لا تبث إلا بالأبيض والأسود» (شهقة ضوء، ص٥٩).

يقول الشاعـر شوقي بغدادي في تقديمه لها: «**من أين جاءت بهـذا الفيض الجميل من قصائد النثر؟**» (شهقة ضوء، ص٣).

ويتابع: «**كنت أقرأ وأفهم وأسبح وأطير وأتجوّل وأعاني وأفرح وأكتئب...كنت أعيش حقاً مع تجربة لا تخصُّـني، وشـيئاً فشـيئاً صارت كأنها لا تعني أحداً سـواي**». (سا. ص٣) ويضيف أنه أمام «ظاهرة مدهشة بحق» (سا. ص٤)

أمـا الناقد سعيد يقطين فيُعـرِب في تقديمه لمجموعتها «آخر سكان دمشق» عن دهشته من هذه اللُّقْية النابعة من عذابات دمشق المدمَّاة:

«**هـل يمكـن أن يخرج من قـذارة ما يجري على تراب دمشـق هذا التِّبـر الخالص؟**» (آخر سكان دمشق، ص٣).

قلمـا احتُفي بشاعرة وليدة كما حصل مع بسمة، حضوراً وكتابة عنها من أدباء مرموقين، ففـي تجربتهـا ملامح نكهة جديدة فـي المشهد الشعري السوري، نكهـة غير عابئة بدخان المعارك النقدية والشعرية التي تدور غالباً دون أن تترك أثراً في القصيدة وتلقِّيها.

السخرية المرّة

لـدى الشاعرة على الدوام حياة وكثافة وبساطة وتخيُّل وجمالية نابعة من هشاشة الروح، ومن تكسُّر طفولة تسكن الأعماق، كل ذلك يجيء في إطار من المرح الدامع، فتلعب حتى مع الفجيعـة، وترقص مع الألم، وتداعبه، حتى يغدو جـزءاً من عزاء موهوم، فها هي تسرح في خيالها وسط الدم الذي غطَّى مدينتها، وترسم مشهداً للسلام، بطفولة أخَّاذة:

عندما تنتهي الحرب

سأترك نداءاتك تتقافز من فمي

كحمامات الساحر البيضاء

سيعيد لنا النهرُ كلَّ الظلال الغارقة

سأنفخ بالوناً

أعبِّئ الحربَ فيه

أفجِّره تحت قدمي

هناك حيث تستحقُّ كلُّ الحروب أن تكون

(آخر سكان دمشق، ص١٢٨)

وهي تَعِد نفسها بالغرق في لُجَّة الحياة، وأن تكون أهلاً لهذه المخاطرة:

أريد أن أعرف رائحة الإثم

وأقترب من النار

وأنا كفيلة بألا أحترق

(عبث مع الكلمات، ص٢٦)

وهل أتاكم مثل هذا المزج الخادع بين الموت والفرح، في إطار مدهش، فيجمِّل الوحشة، ويلهو مع العدم:

يحق لي أن أملك قبراً واسعاً

أتقلَّب فيه وأغني

(آخر سكان دمشق، ص٥٨)

ألوِّن الخراب

(آخر سكان دمشق، ص٦١)

استلقِ عند قدمي

كورقة خريفية

سأغرقكَ في كوب ماء

وأشربه صباحاً

سأرتوي بك

هذا كافٍ لأكمل العمر مزهرةً

في غرفة بلا باب

بلا نافذة

(آخر سكان دمشق، ص١٢٢)

ويبلغ هذا اللهو الفني باللغة والصورة والفكرة حدّاً من المهارة، في بناء يحوي قدراً من سيريالية لا تغلق التواصل، بل سيريالية مشعَّة دافئة، كأنها قادمة من إحدى لوحات «ماغريت»:

كلما مددت رجليّ اتسع الغطاء

يوماً ما سألفُّ الأرض كاملة بلحافي

(بحر يخشى الغرق، ص١٠٠)

غجرية تقرأ أكفَّ الأموات

تحاول أن تسحب من جيوبهم بعض المال

لتسقي زهور ثيابها

لتلمِّع رنَّات خلخالها

لتفتح طرقاً مسدودة بآلاف الجثث

داخل أكفِّنا

(آخر سكان دمشق، ص٣٢)

أنفض الجثث عني

وأخرج للتنزُّه

(بحر يخشى الغرق، ص١٥)

إن ثقافة بسمة الفنية جعلتها تحول القصيدة إلى لوحة، وربما لوحة قادرة على الغوص أكثر في داخلها، وفيما يحيط بها من عوالم، فاللغة عندها تأخذ مداها في غواية التشكُّل عبر مهارات البناء، في سخرية دامعة، تقودها روح طليقة لا يوقفها شيء عن محبة الحياة:

لففتُ نفسي بالحرير

وصنعتُ شرنقتي

سعيدةً بها

وحدها تذكِّرني بأن الغد مشرق

(آخر سكان دمشق، ص ١٠٨)

ليلٌ أعرج يتعثّر على سريري

يوقظني للأبد

ويترك أحلامي نائمة

(آخر سكان دمشق، ص٣٧)

عليك أن تبتلع الدخان

لتتّضح الرؤيا

(شهقة ضوء، ص٥٧)

شُجاعة بما يكفي لأقفَ على طاولة في حانة

أؤذن،

وأن أقف في المسجد وأرقص

(آخر سكان دمشق، ص٥٤)

كعصا في يد أعمى

يمسكني لأدلَّه على الطريق

(شهقة ضوء، ص١٧)

من جيب معطفي الشتوي

أُخرج ربيعاً

(آخر سكان دمشق، ص٢٥)

تُعِدّ موائدَ للحب

من خبز يابس

وأمل متعفِّن

(آخر سكان دمشق، ص٦٨)

على الشّرفة وردةٌ اصطناعية

أسقيها كلَّ يوم

(آخر سكان دمشق، ص١٠٠)

لا تكتفي بسمة بهذا التأمل اللافت الذكي، فبعد أن تلعب هذه اللعبة الفنية الذكية، فتزيد من إحساسنا بفجائعية ما يجري، تترك شِعرها يفيض، وينداح في لعبة فنية أخرى، تجرِّب انطلاق الجُمَل بِحرِّية، فتتبعثر الصور، وتتداخل المشاهد، وتتقافز، فتتركنا في دهشة أمام هذا الحشد الجميل من المشاهد التي تنساب في تدفق ساحر:

اليوم أنا الحقيقية الأخيرة هنا

أشبهُ نرجسةً بين الثلوج

أرنّ أجراسي للمساء

أنا القطار الأخير هنا

أنا المقاعد

والبطاقات

أنا التي لكثرة ما انتظرتْ

أصبحت محطة

(آخر سكان دمشق، ص٣٤)

حسُّ الفَقْد

وإحساس الفقد محور شعرها، فقد الحبيب وفقد الأماكن، كلُّ شيءٍ قد رحل عند بسمة شيخو، أو على وشك الرحيل، لهذا فهي على الدوام في حالة تلويح دائمة، حتى تعيد مفقوداتها إلى حياة على الورق، إنها ترسم دوماً عالماً يرحل أو يتلاشى، يبتعد، يلفُّه غبار النسيان، حتى الحب، فهو عندها مدار كبير لحزن ينبجس من كل الزوايا والمشاهد والأحلام، لذا فالحب عندها أكثر صورها حزناً، إنه على الدوام ذكرى تقضُّ المضاجع، أو وعد مستحيل يتأرجح في القلب، الحب هو وعد دائم لا يتحقَّق، ربما هو ما رحل ولن يعود إلا كذكرى:

نسجت عقداً

زَيّنته بالدَّقائق والثواني

لففته حول عنقي

أنا التي أرتدي الأيام أثواباً

أبدِّلها

أجمِّلها

وأجمعها في خزانة العمر

أنتقي أجملَها

وأرتدي عقد انتظارك

في مقهى الأمل

أفرط عقدي

لتتدحرج مواعيدك ووعودك

مصدرة ألحاناً

أرقص على أنغامها

وحين أنتهي أعود لأحيكه من جديد

(عبث مع الكلمات، ص٥)

أو:

يطول الغياب

أتسلَّى برمي جمراتِ شوقي

عالياً في السماء

ليحسبوها نجوماً

...

يطول العمر

أشذب أيامه

وأرمي ما يزيد عن حاجتي

على ضفاف الساعات المعطَّلة

...

يطول الشوق

فأنفخ في الصور

وأخرج أجداث من أحب

(شهقة ضوء، ص٧٠)

نحس دوماً ألَم هذا الحب، واستحالة تحوُّله إلى معايشة، ومعالجته، وترميم زواياه المهددة بالتصدُّع، ومحاولة استعادتـــه، وبعث ما يثيره، والقبض على طائره الهارب، أو انتظاره الذي يكاد يكون انتظار ما لا يجيء، كل هذا الخليط من التوجُّس والرغبة والحلم والفراغ والامتلاء العابـــر وحافة العبث، كل ذلك تجعله الشاعرة مسرحَ دهشة، وتكويناً جديداً، وتركيباً لمشاهد وعوالم تنقل الجرح فنياً إلى نبض وألَق:

يرمي مفاتيحه للمرة الألف

تحت نافذتي

دقائق ويعيدها لجيب قميصه الأيسر

تنبض مع قلبه

فيرتجف بابي الخشبي

هو لم يغادر

سأخرج وأجلس معه

وأراقب حياتي من ثقب الباب

(آخر سكان دمشق، ص١٢٥)

مهاراتٌ شِعريّة

بسـمة شـيخو حاملـة ريشة كلمات، فهي مـن مزاج الشعراء الذيـن يصنعون من الصورة اللغوية -ثابتةً ومتحركةً- ملمحاً أساسياً في بنية قصيدتها، وصورها مزيج من تشبيه واستعارة ومجـاز، في بناء غرائبي شفّاف، مع استخـدام للمشهد الواقعي المنقول من حولها، فتدخله في المشهد العام للقصيدة:

من خيوط الأمل اليابسة

نسجت شالاً ورميته عالياً

(شهقة ضوء، ص٩)

يا الله... لست متطلِّبة

أحتاج فقط خوذة ضخمة لهذه المدينة

(شهقة ضوء، ص١٠)

أعود كلَّ مساء بأقدام مبلَّلة

أعصر روحي وأنام

(آخر سكان دمشق، ص٦٧)

أرمي نفسي في بركة الماء

أحاول أن أنقذ الأسماك داخلي

(شهقة ضوء، ص١٢)

أشاهدك تذوب وتسيل من ثقب صغير في قلبي

(آخر سكان دمشق، ص١٣١)

اليوم أحني ظهري لأكون عكَّازاً لك

(آخر سكان دمشق، ص٥٦)

على الشرفة

لا يعنيها حزننا

ثيابنا ترقص وحدها

...

على الطاولة

غاردينيا ذابلة

رائحة الأمس تملأ المكان

(بحر يخشى الغرق، ص٧٨)

أسكن خيمة من شعر المسافرين

(آخر سكان دمشق، ص٣٦)

وحيدة

تحاول أن تخلق أصحاباً من حبر

(شهقة ضوء، ص١٢٩)

لم أعد أفكر بالحرب كالسابق

وضعتها في رفٍّ عالٍ لا يصله الأطفال

وتركت أمرَها للغبار

(آخر سكان دمشق، ص٩٥)

ونحو هذا المسعى تقوم بسمة شيخو بخلق عوالم تخصها، تعيد تصفيف الدنيا حولها، مثل طفلة تتأمل البيت والحارة والمدينة، وحتى العالم، على كيفها، وبكل ما يحيط بها من بهجة أو ألم أو كوارث، وتجعل من ذلك لعبة شعرية تذهب بالقصيدة اليومية إلى مَدَيات جديدة، فتعطي قصيدتها ملمس الأعاجيب الطفلية:

تستند إلى حائط أحزاني

تمنعه من السقوط

تبقيه مرفوعاً على أكف غيابك

لأستظلَّ به من المَلَل

(عبث مع الكلمات، ص١١)

دون أن نثير ريبة الآلهة

نتسلَّل على رؤوس أصابعنا

نغلق الباب على الكون

نحبسه في غرفتنا

ونحلِّق في الفراغ

(شهقة ضوء، ص٤٧)

سنعيش ببساطة

إلى أن نعلق بين أسنان الأرض

لتفترسنا ببساطة

(شهقة ضوء، ص٦٦)

ومــرة تلو مرة تعمد الشاعــرة إلى مفاجأتنا بما تخبِّئه من شِــراك شعرية جميلة، فتمسّ حواسنـــا وذاكرتنا بما يشعلها أو يستفزها، تبحث في الحيـــاة والمألوف والمحرَّم فتبعث فيه كثيراً من حيوية المفارقة والمداعبة الشاعرية:

مَن غيري

لجسدها عناقيد

تنتظر نظراتك لتعتِّقها

وتفاح محرَّم

ينتظر أن تقبل وجنته

ولقلبها خرائط مدفونة بكفيك

(آخر سكان دمشق، ص٩١)

لم أدرك أني سفينة

إلا حين خرقتها كلمة (أحبك)

وبدأت أغرق

...

لم أُدرك أن أصابعي حلوة

إلا حين أكلتها ندماً

على كل ساعة مرت بدونك

(شهقة ضوء، ص٧٨)

أعدُّ أسماء الله الحسنى

يتسلَّل اسمك بينها أغمز الله وأضحك

(آخر سكان دمشق، ص١٠٥)

أدخل الحكاية من بابها الواسع

من باب بيتك

(شهقة ضوء، ص٨٤)

جدار زجاجي يفصلني عن الغد

إنَّها الرسالة

تثأر مني

تحبسني في زجاجة

وترميني

في قاع البحر

(شهقة ضوء، ص١٢٦)

كل يوم أحضر حلماً

أجفِّفه

ليصبح صالحاً للتعليب

ألقيه في حصالة الأحلام

(عبث مع الكلمات، ص٧٢)

وللشاعرة قدرة على منح قصيدتها ذلك الدفء الذي ينبع من حيوية الذات الشاعرة، فهي لا تصنع القصيدة، ولا تستعير همومها، فقصيدة **بسمة شيخو** دائماً هي نبضها الشخصي، وحرقتها وجروحها الشخصية، وألمها مما حصل لوطنها سورية، وهي تجاوب عميق مع ما عاشته بشكل يومي، وانعكاس للحرب على صفحة روحها، لذا نحس بهذا الدفق المتوهج لمشاعرها منقولاً بلغة سهلة ملوَّنة متجهة إلى قلوبنا مباشرة:

أخاف أن تسيلَ من عيني لكثرة ما حدَّقتُ بصورتك

المنديل بيدي دائماً

أحملك داخله بعد كل دمعة

(آخر سكان دمشق، ص ١٠٦)

لم أعد أسمع شيئاً

إلا ثرثرة أحلامي

(شهقة ضوء، ص١٠٠)

لا أحتاج شيئاً مميزاً

أريد فقط أن أبقى كما أنا

ساحرة بالفطرة

(شهقة ضوء، ص٦١)

مازلت طفلة صغيرة

تقع في الطرقات

وتعود للبيت بركبة مجروحة

(بحر يخشى الغرق، ص١٨)

هو أن يركض قلبي خلفك مغمض العينين

لا يريد مشاهدة خط النهاية

هو أن أتورَّط دون قصد

وأقصّ حبل الدلو الذي أوصلني إلى القمر النائم أسفل البئر

(بحر يخشى الغرق، ص٢٤)

وقلـق الشاعرة قلق أرضي مملـوء، فهي ليست مشغولة بتأمُّلٍ خـارج العيش، هي تلميذة مجتهدة في حضرة الحب والعدل والجمال والحرية، فمكوِّنات همومها بسيطة–معقدة، ليست مشغولـة بالمُطْلَقات، ولا الماضي، ولا أسئلة الحياة والمـوت الكبرى، إنها باحثة عن الحب كما يجري، والموت كما تراه، والوحشية كما تمارَس على الأرض، والدم الذي سال غزيراً في مدينتها، لذا تلاحق الحب بأكثر أشكاله حرارة وصدقاً، وكما يجري بين أناس بسطاء شغوفين مثخَنيـن بالألم، وهي مفجوعة لما يحـلُّ بالشجر والحجر في مدينتهـا، ولما يحطِّم الحلم الأبدي للإنسان بحضن يضمُّه، ولقمة كريمة، وأصابع تصنع الجمال في كل شيء، لكنها تمنح هذا اليومي من الألم فسحةً ليصير أسطورتَها التي تريدها شعلة تضيء قلبها، وبلا هدنة مع الحلم والحب والجديد والساحر المختبئ في ثنايا الأيام:

أحلم أن أسيرَ بطريق طويل

ولا أنشغل بنهايته

(آخر سكان دمشق، ص١١٨)

أنا امرأة لا تنتظر شيئاً

......

الوداع هو استجداء للبقاء

(آخر سكان دمشق، ص١٢٩)

الغيوم تسخر من الجبل الرزين

تصنع له شاربين

وتضع له قبعة مضحكة

(بحر يخشى الغرق، ص٦٦)

امرأة تغزل أرواح الرجال على نول يدوي

ترميه تحت أقدام النسوة

(بحر يخشى الغرق، ص٧٣)

لفتنـــي أن الشاعرة التي تعتــرف بأن علاقتها بالتراث والقــراءة الشاملة مازالت ضعيفة قَدَّمت مؤشرات على تناصَّـــات ذكية وناجحة، فالتناص تقنية جمالية ترفع من مستوى البناء الشعري، لما له من تعالقات فكرية ونفسية تضخُّ داخل النص حياةً شعرية مضافة، وبطريقة شديدة الانسياب:

دعك منهن

قف نبكِ

ذكرى حبيبٍ تاه في الزحمة

(آخر سكان دمشق، ص٩٨)

ولعــل المفارقات والتضاد من أساسيــات ما تفعله قصيدة **بسـمة شـيخو**، فتزداد بذلك توهّجات المعنى، وغنى الظلال الشعرية. ومما يزيد من قوة هذه المفارقات أنّهَا مُستلَّة بعناية من عوالم لصيقة بنا، بطفولتنا، بشبابنا، بمحيطنا الاجتماعي والطبيعي:

أخشاب عواطفه رطبة

لم أستطع إشعالها

(شهقة ضوء، ص٧٧)

عام كامل وأنت معي

تدخل من خرم إبرتي

وتملأ السماء

(آخر سكان دمشق، ص٩٤)

الحلم نفسه

أن يكون يوماً راعياً

ويذبح كل الخراف

(آخر سكان دمشق، ص١٠)

رجل منظم بجداول مزدحمة

حشرني بين مواعيده يوماً

فضعت بين السطور

(آخر سكان دمشق، ص٢٥)

الأمواج أيادٍ تحاول الإمساك باليابسة

البحر أيضاً يخشى الغرق

(بحر يخشى الغرق، ص٦٤)

أنا زجاجة فارغة

يلاحقني العشاق بحثاً عن رسالة ضاعت في البحر

(بحر يخشى الغرق، ص٦٤)

امرأة تنتظرك لساعات خلف النافذة

وعندما تقرع الباب

لا تفتح

(بحر يخشى الغرق، ص٧٤)

انكسرت دواة الله

فكان الليل

(بحر يخشى الغرق، ص٨٧)

رسائلي لا تصل

ساعي البريد لا يعتبر القُبلة طابعاً

(بحر يخشى الغرق، ص٨٨)

أهرول نحوك

تتدحرج الأرض تحت قدميّ

وتجلبك إليّ

(بحر يخشى الغرق، ص٩١)

نَبتَ للجدران أقدام

صرنا نلاحق بيوتنا في الطرقات

(بحر يخشى الغرق، ص٩٣)

صعدتُ المئذنة

وناديت عليك بأعلى صوتي

أليس هذا ما كانوا يفعلونه للضائعين عنهم.

(بحر يخشى الغرق، ص٩٩)

تعدُّ موادَّ للحب

من خبز يابس

وأمل متعفِّن

(بحر يخشى الغرق، ص٥٨)

نفخة صغيرة من فم الموت

ونتطاير كزهرة كسَّار الزبادي

(بحر يخشى الغرق، ص٩)

قصائدي أشبه بفهرس للعلاقات الفاشلة

(بحر يخشى الغرق، ص١٧)

أعتذر لأنني أشبه الأشياء البسيطة

(آخر سكان دمشق، ص٤٩)

تعال ضمِّد أغصاني المكسورة

تلق جذعي

وأمسك بالغد النائم على كتفي

(آخر سكان دمشق، ص٥٢)

ككل عام أحاول تصحيح خطأ وجودي

(آخر سكان دمشق، ص٥٥)

دهست مراراً بأيام مسرعة

(آخر سكان دمشق، ص٩٩)

وأشير إلى قصائد مميزة في مجموعة «**شهقة ضوء**»: «شجرة» (ص١٤)، و«حقيبة» (ص٧٤)، و«سعيدة» (ص٩٨)، و«وحيدة» (ص١٢٩).

وفي مجموعة «**آخر سكان دمشق**»: «الغجرية لم تغادر» (ص٣١)، و«القطار الأخير» (ص٣٣)، و«أبتسم تحت التراب» (ص٥٧)، و«عاشقة من الستينات» (ص٦٩)، و«كرسي واحد» (ص١٢٠)، و«زنبرك معطل» (ص١٢٣)، و«داخل البالون» (ص١٢٦).

وفي مجموعة «**بحر يخشى الغرق**»: «الحب» (ص٢٣)، و«وعاء زجاجي» (ص٣٨)، و«القطار الأخير» (ص٤٣).

عثراتُ الرِّحلة

إن رحلة **بسمة شيخو** متسارعةٌ إلى الأمام وبأقل العثرات، فهي ماضية بمحبة ودأب وصدق مع الكلمات والحياة، معنيَّة بأن تُقدِّم لنا «مشغولاتها» الشعرية بإتقان ودفء، متخطية على الدوام ما نعثر عليه من ثغرات هنا وهناك في قصائدها، إذ نقع أحياناً على عبارة نثرية، أو جافة متحذلقة:

اليوم تماهينا معاً

(عبث مع الكلمات، ص٨)

وأدمنّا سلبيتنا

(عبث مع الكلمات، ص١٥)

وكأن السادية تعتنقني

(شهقة ضوء، ص١١٨)

وقد وقعتْ في سجع مكروه، ولاسيّما في مجموعة «عبث مع الكلمات»، وفي قصائد «من نحن؟» (ص٣٠)، و«أُحبّ» (ص٣٣)، و«أيامك عادت تناديني» (ص٤٣)، و«أغار» (ص٤٨)، و«كفى بكاء» (ص٦١):

كلٌّ منا يعيش بسلامْ

يملأ كل يوم ثغره ببحر من الكلامْ

(ص٣٠)

كُفّي عن البكاء

كُفّي أيتها الحمقاء

كنت تعرفين بروده ولمحت فيه الجفاء

(ص٦١)

وتسلَّل هذا العيب إلى مجموعة أخرى:

أيها الجبل

سامحني ستبقى واقفاً

أيها النهر

سامحني ستبقى نازفاً

أيها الإنسان

سامحني ستبقى خائفاً

(شهقة ضوء، ص١١٠)

هذا العيب سيتلاشى في المجموعات الآتية بعد أن تنبهت الشاعرة إليه.

وقد نتعثَّر بنهاية ضعيفة كما في قصيدة «قصة كاملة»:

قصة حبٍّ لم يولد

لعاشق عقيم

(عبث مع الكلمات، ص٣٢)

وتكرار «أغار» على نحو باهت في قصيدة حملت العنوان نفسه (عبث مع الكلمات، ص٤٨).

بل هنـــاك قصائد ضعيفة في مجموعة «**عبث مع الكلمـات**» كما في: «عبث مع الكلمات» (صــ١٨)، و«من نحن؟» (صـــ٣٠)، و«أنتظر عودتك» (ص٦٤)، و«خلــف الشاشات» (ص٦٨)، و«مفرق الأيام» (ص٧٤).

هذه إطلالة عامة على إنجاز الشاعرة **بســمة شــيخو**، لعلهــا وضعتنا أمام لوحة واضحة: شاعــرة ممتلئة بالحياة، وغنيـــة الموهبة، تمتلك القدرة على أن تجعل قصيدة النثر متوهّجة، تقيم أحسن علاقـــة مع القارئ، لأنها تحمل إليه بهجة العوالم، وحرارة العاطفة، وذكاء البناء الشعـــري، ممـــا يتركنا مستمتعين بموسيقا خفيـــة، تتسلّل من الجمل، ومـــن التكوين الجميل الماهر للقصيـــدة، تلك القصيدة التي تمدُّ أصابعها للألـــوان والأصوات والروائح والأسماع، فتصل إلى منجزها المطلوب، من رسم الحياة كأنها لوحة أو نهر أو شجرة.

المصادر

(١)- آخر سكان دمشق، مركز التفكير الحر، ٢٠١٧م.

(٢)- بحر يخشى الغرق، دار نينوى، دمشق ٢٠١٨م.

(٣)- شهقة ضوء، شعر، مركز التفكير الحر، ٢٠١٥م.

(٤)- عبث مع الكلمات، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٣م.

الشعر والتنوير

مقاربة دلالية في الكنه المعنوي

يحيى محي الدين

يُعرَّفُ التنوير بأنّه إنارة العقول لتحريرها من سطوة التقاليد، والعادات القديمة والخرافات التي كانت سائدة ما قبل عصر النهضة الأوروبيّة، وقد انتقل هذا الفكر إلى مصر مع حملة نابليون سنة (١٧٨٩م)، ومن ثمَّ إلى العالم العربي، حيث تأثر به بعض المفكرين العرب آنذاك مثل: (محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وقاسم أمين وسواهم)، ومن الأجيال اللاحقة طه حسين، ثمّ انتشرت أفكاره بين كثيرٍ من المثقّفين العرب في سورية والمغرب العربي.

جاء التنوير للتخلص من عصور الظلام، ومن الواقع الذي كبّل الإنسان بالأوهام، والتعصّب، وكان ردّاً على أسئلة الواقع وتحدّياته، إذ أتاح للمجتمعات الغربية نفض غبار الماضي، والتهيؤ إلى دخول المستقبل بفكر عقلاني جديد. وقد تلقّف روّاد النهضة العرب هذه الأفكار، وحاولوا الربط بين الثقافتين الغربية والعربية. ولكن لم تقطع حركة التنوير في الفكر العربي علاقتها بالتراثين العربي والإسلامي، كما هي في الفكر الغربي، بل عوّلت على إحياء جوانب التراث العقلانية والعلمية، وربطها بالحضارة الحديثة، فلم تكن حركةَ تقليدٍ للقديم بكلِّ معنى الكلمة، كما أنها لم تكن انخراطاً كلياً في الحداثة.

إن للأدب كما للثقافة تأثيراً في حياة الشعوب من خلال القيم الإنسانية والجمالية التي يحملها ويسعى إلى نشرها وترسيخها منظومةً فكرية وأخلاقية عالية المستوى، (وذلك نتيجة لخصائصه البنيوية والتركيبية وقدرته على التنقل في الزمان والمكان، والوظيفة الشعرية

تتعـــدى التوصيل والإخبار إلى الإقناع. هذا الإقناع إما للاجتناب أو الإقبال على أمر أو قولٍ أو فعـــل)، ولهذا فالأدب هو جزء من حركة التنوير الناشطـــة على مستوى الوعي يوازيها في كنهها وبعدها ومنهاجها العام.

يقـــول رولان مورتييه: (لكي نفهم مصطلـــح التنوير ينبغي أن نقـــارن الأنوار بالظلمات، أو الواضح بالغامض). وهنـــا يلتقي المفهومان الشعري والتنويري. إضافة إلى ما للشعر من أهميةٍ في التراث العربي، فقد سمّي ديوان العرب لما له من دورٍ في تسجيل وقائعهم وأيامهم، إذ نقـــل لنا صورةً عن التراث العربي الاجتماعي والسياســـي، وتصدَّر الإشارات والومضات التـــي تحثُّ على فتح نوافذ الروح للضوء، وفتـــح شرفات المجتمع للنور والتحرر. وقد تطوّر الشعـــر فاختلفت أغراضـــه ومراميه وأساليبه وذلك نتيجة تطّـــور المجتمع، وتغيّر الظروف متأثـــراً بحركة الترجمة وبالبعد الثقافي الغربي، ومـــا ظهور قصيدة التفعيلة إلا مؤشرٌ على ذلك. ولا يخفى أن التطوّر في المبنى كان نتيجةً طبيعيةً لتطوّر أساليب الشعراء وأغراضهم، بعد أن اصطفّ الشعر إلى جانب الجماهير للتعبير عن معاناتها في مطلع خمسينيات القرن العشريـــن، إذ رافق حالة الصعود والمدّ الثوري العربي وحالات التحرر الفكري والاجتماعي والسياســـي التي شكلت ما سمّي بالنهضة العربية الحديثـــة. وإذا كان عصر التنوير قد وُلِدَ ولادةً صعبةً، فتاريخ الأمم هو دائمُ التناوب بين مراحل الظلمة، ومراحل الصحوة، والمعرفة الحقيقيـــة تنشأ عن طريق التجربة والملاحظة وطموح الإنســـان للمعرفة. وعلى الرغم من الاختـــلاف في طبيعة التفكير مـــا بين المجتمعين الغربي والعربـــي، هذا الاختلاف العائد لخصوصيـــة ولطبيعـــة كل مجتمع، فقد وصلـــت أفكار التنوير وفلسفة العقـــل إلى المنطقة العربيـــة. وبما أن للفكر التنويري جذوراً في تاريخنا تتمثل بفلسفة ابن رشد الذي حمل لواء التمـــرد آنذاك، وفي حركات أخرى أبعد في التاريـــخ، كحركة الصعاليك التي قام بها بعض الشعراء، إذ شكلت حالة تنويرية من خلال تمردهم على ظلم القبيلة ونظامها الاجتماعي إن لم نقل: ونظامها الفكري أيضاً.

والراصـــد للملامح الشعرية فـــي شعر الصعاليك يرى في موضوعاتهـــم كثيراً من الرؤى المختلفـــة عـــن السائد آنذاك، يصوّر الشنفـــرى إحدى المَراقِب التـــي كان يعتليها مترصّداً متربّصاً في قوله:

ومَـرقـبـةٍ عـنـقـاء يـقْـصُـرُ دونـــهـا

أخـو الضِّرْوة الرّجل الحفيُّ المخفّفُ

نعيْتُ إلى أدنى ذُراها وقد دنا
من الليل مُلتفُّ الحديقة أسدفُ
وليس جهازي غيرَ نعلين أسحقتْ
صُدورهما مخْصورةً لا تُخصَّفُ

لا يريد الشاعر هنا الارتقاء المادي من خلال تفرّده بارتقاء المرقبة، بل يريد من وراء ذلك الارتقاء المعنوي والاستقلالية، والتخلّص من الآخر الظالم والمستبد. إنها نزعة نحو الحرية حافلة بقيم التنوير في لحظة مبكرةٍ من تاريخنا، وهناك كثيرٌ من المحطات الشعرية التي لو وقفنا عليها لاكتشفنا جذوة التنوير واضحةً جليةً فيها، وسأكتفي بالإشارة إلى ابن عربي الذي قال يوماً:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ
فمرعىً لغزلانٍ، وديرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ، وكعبةُ طائفٍ
وألواح توراةٍ، ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ
ركائبُه، فالحبُّ ديني وإيماني

هذه الرؤية المستنيرة، ونقاط ضوء أخرى شكّلت مع الفلسفة الرشدية والانفتاح على التنوير الأوروبي، وبعض القراءات الإسلامية المتقاطعة مع حركة العقل ملامح تنوير عربي محتمل.

وقد استطاع المفكرون العرب بناءً عليه تحقيق كثير من فكرهم الذي تمثل في تجاوز الفكر الخرافي والانتباه إلى مستوى التعليم، وإشراك المرأة بالحياة وكثيرٍ من القيم الاجتماعية الأخرى، فقد حاولوا استلهام القيم الدينية للاتكاء عليها في بعث مفهوم التقدم والتطور. كانت دعوة المفكرين العرب للتنوير محفوفة بالمخاطر والمنزلقات، ولهذا حاولوا الانطلاق من داخل المنظومة الفكرية الدينية، والاشتغال على قراءة معاصرة وجديدة للتراثين الإسلامي والعربي، بما لا يخلخل الثوابت الاعتقادية عند المجتمعات العربية والإسلامية. أمّا المثقف فقد تلقّى الإشارات التقدمية والتنويرية، وتفاعل معها، مما سهّل قليلاً عملية نشر الفكر العلمي، بعد أن شكل الشاعر والأديب أحد روافع العمل الثقافي الجديد. إذ كان الشاعر حالةً متقدمةً فكرياً وشعرياً أدى ذلك إلى انعكاس التنوير على الشعر العربي، ضمن نظرية المعرفة

العربية الناهضة وسأعتمد في دراستي نماذج معاصرة من شعرنا السوري، لأرى مدى تأثرها بالفكر المتنور بل إنني لأجزم أنه لا شعر دون تنوير، بل لا يمكن للدارس التفريق بين الشعر والتنوير بوصفه حالةً معرفية إلا - اللهم- من خلال التفريق في الشكل الفني ما بين السرد الذي يميز الفكر والقالب الفني الذي يميز الشعر، أو إذا كان التفريق من أجل الدراسة. ولم أنطلق من باب المفاضلة بين قصيدة وأخرى لأن الغاية من الدراسة ليست بحثاً من هذا القبيل، ولذلك فقد اعتمدتُ ما تَبيّنَ لي أنه روح الشاعر ورؤيته الجمالية والحياتية وما تحمله من قيم إنسانية نبيلة، نتلمّس فيها روح التنوير وثقافته بشكل عام، ولذا فقد مررت على القصائد مروراً سريعاً، لأستطيع الوقوف على عددٍ أكبر من الشعراء وقصائد أكثر، لتأكيد مدى تحقق ثقافة التنوير في شعرنا السوري المعاصر.

إلا أن ذلك لا يعني أن لغة الشعر التنويرية هي لغة الفكر نفسها، ومرد ذلك إلى اختلاف طرائق التعبير، وخصوصيةِ كلّ منهما. بحيث إنَّ تناول الشعر لموضوعاته هو تناول هامس غير مباشر، بعيد عن الخطابة والتقريرية والسردية بخلاف الفكر الذي غايته إيصال المعلومات بدقة وعناية دون زخرفات لغوية.

تطبيقات شعرية للحالة التنويرية العربية
(الشعر السوري أنموذجاً)

الشعر علامة بارزة في معجم الفن والأدب، ومنارة للوعي يهتدي بها المبحرون في كراريس الأسئلة المعرفية والجمالية، فعندما يفقد الإنسان بوصلته، يصعد نحو الشعر مكللاً بالدهشة والأسئلة الأخرى، ولكن أي شعرٍ هذا الذي يصعق حِيادنا؟ فما نلبث نتكئ على تميمته السحرية، لنستدرك ما فاتنا من الدهشة والذهول.

إنه الشعر الذي نفخ الشاعر فيه من روحه، وسوّى إزميل معرفته في تضاريس حجارته ليخلق حصانه المرابط على أسوار الاكتشاف، والبوح الجميل، حينها يطلع الحب بكل لغاته العالية، ليرشدَ نبضنا، ويأخذ بيد نفوسنا نحو أيقونات الفرح والاستبشار بأزمنةٍ تقلّص الكراهية إلى ما تعنيه كمفردةٍ نستطيع تأويلها بما هو أحسن، ليزورنا الحب بلا مناسباتٍ فنفتح قلوبنا للحزن. ولكن أي حزن نبيلٍ هذا الذي يدخل قلوبنا؟ مستأذناً وجيبها الدائم، وأي أنثى ستسكن قلوب الشعراء؟ هل هي الأفق الأجمل أم هي الأنثى الحبيبة؟ ومَنْ تلك التي ستسكن قلب شاعرنا العاشق؟

الشاعر ثائر زين الدين في قصيدته عيد الحب، من مجموعته «ورميتُ نرجسة عليك» يقول:

«ما الذي تعنيه يا عيدُ

وأيامي من قبلُ ومن بعدُ

غرامٌ وصبابهْ؟

ما الذي تعنيه يا عيدُ

وقلب الشاعر العاشقِ

قد شُرّع للمرأة

والأحزان بابهْ!!».

ونمضـــي برفقة شاعرنا زين الديـــن نستضيء بأنوار الكلمات، إذ يقول في قصيدة وصايا الحب العشر:

«الحبّ روح الله، فاعشقْ ما أردتَ وما استطعتَ

إنما تهوى الإله مجسّداً فيمن تحبُ،

وإنما تبصر نور بهائه في وجه من تهوى

وليس إليه من دربٍ سواها

ليس إلا عبر عينيها الوصولُ...».

لـــم نعد نفرّق هنا بيـــن العشقين الحسّي والمعنوي الذي يرتقـــي بالشكل إلى ما هو أبعد بكثيـــر. أليـــس الارتقاء بالإنسان وظيفةً من وظائف التنوير؟! نعـــم، لقد التقط شاعرُنا فكرةً غايـــةً في الأهمية هي أنَّ الصعـــود نحو الله طريق الإنسان عندما يجسّد صورة الإله ويخلفه لإعمار الكون.

وهكـــذا عندما يكتب الشاعر عن الأمل فإنه يؤسس لغدٍ آخر، وعندما لا يكتب عن الأمل، لا يعني ذلك أنه يكتب لليأس، فقد تخلد القصيدة للهدوء من خلال تسللها الحالم إلى العتمة، وذلـــك لاستنبـــاط مفاهيم جديدة هي مفاهيم النور، فتنطلق نحـــو فضاءٍ من شأنه رفع حالة المتلقّي، وزجّه في زحمة تساؤلات مغايرة.

كما تترك قصيدة الشاعر **حسين عبد الكريم**: (بيت اللحن الريح... بيت القداسات البراهين) شيئـــاً مـــن روحها وأحلامهـــا الطالعة من تفاصيل القـــرى بما يوازي الأثر الـــذي يتركه الفكر

التنويري في تربة العقول الخصبة، فعندما تطلع صباحات القرى من زنود الآباء، ويقرأ الأبناء مـا جاء فيها من معاني الخصوبة منهمكين بتفسيـر العالم غيرَ عابئين بصقيع الأمم السالفة، فهم يعزفون سيمفونية التجدّد طالعين من مناسك العمل القديم نحو غزارته الجديدة.

يقول:

«إنها تشبهكم يا أبي

عنيدةٌ في وجه اليباس كأحلامكم

وتعرف أسرار البيادر والأعراس مثلكم

...

نراكم تعتصرون من الغيمات

أنخاباً للحقول

تحملون القرى على أكتافكم

والسهول

كل حقلٍ مدرسة

نفتش في صباح أجسادنا عن

/ تقوى/ أيامكم/ لنزرعها في العقول».

نعـم هي جدلية مستمّرة في الاشتعال، تغرسها الأيادي وتستثمرها العقول، فتنتج أبجدية توزعها على الدنيا، تنير زواريبها لتحتفي القارّات بحوارٍ كان قد أنجزه الإنسان مع الكون أولاً، كما أنجزه الإنسان السوري منذ دبّت الحياة في الصلصال.

ونمضـي مع شعرائنـا في رحلةٍ لا نستطيـع فيها التفريق بينهم وبيـن نصوصهم، فنرى الشاعرة ليندا إبراهيم في نصّهـا المعنون «لدمشق هذا الياسمين»، من مجموعتها بالعنوان نفسـه، تقول وتؤكد: إنَّ القصيـدة ليست عزفاً منفرداً في مهبّ الـروح، أو في مهب الريح، فالشعـر على الرغم من خصوصيته وذاتيته أحياناً، يشكّل مفرداً بصيغة الجمع، وحالةً تُحوّلُ مدنَ الكلام صهيلاً، يبشر بفجرٍ صاخبٍ بالحياة... تقول:

«هذا المجد من قِدَمٍ... تباركه

خيول الفاتحين

وقوسُ غارٍ فوقَ بواباتها

ولها من الفردوس حورٌ مائساتٌ

عند غوطتها/ يفحنَ شذى على عتباتها

ولها تراتيل الصلاة/ مآذن النجوى/ نواقيس التذكّر،

إلى أن تقول: ودمشق بادئة الزمان ومنتهاه... المصطفاة».

وهكذا لم نعدّ نفرّق بين المكوّنات الواقعية والشعرية، فقد ارتقى النص إلى مستوى المكان متجاوزاً التوظيف المعتاد للأمكنة الخالدة، وهو يشير إلى دلالة هذا الحشد من الرموز التي تؤلف قصيدةً حافلة بتاريخ عريق. قصيدة من تراتيل وابتهالات تسكنها الحور والمعاني واخضرار الغوطة، ولا تنتهي إلا بعد أن تعيد تشكيل دمشق بُعداً آخر للفردوس. الفردوس، الذي صنعه الفاتحون بأيديهم وليس بتأويلاتهم الغزيرة.

وأما الشاعر **فرحان الخطيب**، في نصّه المعنون: «وطني».

فهو لا يتحدّث عن القضايا الكبيرة لأنها كذلك، ولكن لأنها تؤلف مجموع التفاصيل الصغيرة المحمومة بالإنسان، والمنشغلة بهمومه وإنّ لم نرَ هذه التفاصيل بجزئياتها داخل النص، بل سنلمس دلالاتها بشكل واضح، فعندما يتناول ثنائية الماضي والمستقبل فهو يمرُّ على الحاضر مرور الدارس المتأني الذي ينسج من الثنائيات الأخرى كالجبال والسهول، الرعد والبرق، الرشد والتيه، القنابل والورد، بمجازها هدوءاً ومحبة وسلاماً، أو ينسج من كل ذلك أحلاماً لجيلٍ عانى ما عاناه من الحرب، ويرسم وجهاً آخر لوطنٍ يبحث عن الخلاص.

يقول:

إلى متى نرنو لماضٍ هدّنا
يا ليتنا نصحو ويرشدنا الغدُ

وطني هل جَبَلٌ تربّع ضافياً
فوق التلال... وبالسنا يتعمّدُ

لو أبرقتْ في الدير حتى شامِنا
لمشى إلى سوق المنايا يرعدُ

وطني أمَا غير القنابل هاهنا
والورد أين الورد لا يتورّدُ

إلى أن يقول:

وتـلـمُّ أمٌ... لـو تـبـقّـت... ضـحـكـةً
وتـضـمُّ أحـلام الـصـغـار.. تـهـدهـدُ

ثم نمشي الهوينى بين دفاتر شعرنا السوري نسأله ونتساءل معه: هل يمكن للشعر العربي أن يشكل قطيعة جمالية وأخرى معرفية مع الماضي؟ بل هل يمكن للفكر العربي أن يشكل مثل هذه القطيعة؟

وكما أسلفت فلكلِّ مجتمع بُناه الفكرية والجمالية، وبناءً على ذلك فالقطيعة التي شكلها الشعر السوري مع الماضي، كانت عبارة عن محاولات قراءة جديدة للتراثين الفكري والشعري، ومحاولة لاستلهام كل ما هو جمالي وإنساني، وإعادة صياغته بأسلوب فني تبرز فيه خصائص الشاعر السوري بوصفه شاعراً وإنساناً، وما ذلك إلا لأنَّ الإبداع لم يولد من العدم، وإنما من حركة التاريخ وثوابته الإنسانية المتمثلة بقيم الحق والخير والجمال.

هذا شاعرنا **صالح سلمان** في قصيدته: «ارتقاء» يرى مثل هذه القطيعة (غير المنقطعة) - إذا جاز التعبير- عن الماضي فيقول:

«أيها الشعر ضعْني على أول الدرب

لا تحمِني من عيون العذول

ائتمنّي على سرّ أن يصبحَ الدرب صعباً

ويا أيّها السلّم المرُتقى

هل ستوصلني حين أغدو بلا خافقٍ

هل تُراها ترى حيرتي؟

كيف أبدو؟

وهل سوف تسعفني الطريق

إلى خدِرها خطوتي؟

يا لأسئلةٍ تجعل العمر أحجيةً!

يعبر المرءُ أيامه باحثاً

عن جوابٍ لها... ثم تخذله الأجوبة!».

أليســت الدهشة الأولى والسؤال الأول هو بدايــة التنوير، إني لا أرى الخذلان ها هنا إلا بدايــة المشكلة، وبداية الأسئلة، نعم فعندما يتساءل الشاعر قائلاً: **يا أيها السلّم المُرتقى/ هل ستوصـلني حين أكون واهن القلب... يا لأسـئلة تجعل العمر أحجيةً**. إن الشاعر يستنطق المعنى الداخلي الكامن في جواب سيقوله الإنسان يوماً ما ليملأ الفراغ المعرفي حتماً، فما معنى الحياة بلا خافق نعلق عليه أسئلة الراهن... لنتسلق مستقبل المعرفة...

أمــا شاعرنا **عباس حيروقة** في قصيدته «ألا من مجيبٍ يحنُّ عليّ... ألا من جواب؟» فهو يعيد صياغــة التنوير على شكل أسئلة من دم ولحم، تتداخل مع الذات الإنسانية حتى تندمج بهــا... فيصبح السؤال والجواب عمقاً آخر لمعنى الحيــاة، ألم يتلمّسِ الشعر السوري لحظة الكآبة، ويكتشفُ المجهول فينا من خلال سِفر أسئلةٍ موجعةٍ؟ يقول الشاعر:

«تفصّدَ وجهي وكلي دماء

ذررتُ التراب بوجه السماء

ورحتُ أخبُّ وأصرخ/ أسأل روحي

أهذا أنا... أم؟ وأينكِ أنتِ/ أين الشوارع/ أين الحدائق

أين المدارس... أين الترابْ».

ألم يجعل الصمتَ عمقاً للغةٍ جديدة، توازي ما يثير الروح في بحثها عن الخلاص، وليس القصد من ذلك الخلاص الفرديّ، فليس هذا دأب القصيدة الطالعة من وراء الحجاب، الحجاب الــذي مــا أراده الشاعر إلا كشفاً لما ورائه من تعب نبيلٍ، وكدح وسعي حثيثٍ نحو الحرية، لم يعد من فرق بين الذات والآخر، عندما تصبح الحياة استحقاقاً إنسانياً بامتياز...

ثم يفيق الشاعر من ذهوله ليتساءل من جديد:

«أصختُ... طيورٌ تحوّم في أفق المدينة

تنقر، تنهش كل العيون

التي قد ترى.... ما وراء الحجابْ

ألا من مجيب يحنُّ عليّ... ألا من جوابْ».

ويستمرُّ النــور طرائق وأساليب مختلفةً للتعبير، ووظائف كامنــةً خلف القصيدة، تراود فتى الحياة عن نفسها في معنىً موازٍ للنص، معنىً يتشكل ما بين سطور العالم النائم في قصيدة...

أما الشاعر **سليمان السلمان** في قصيدته «نادميني»، فعلى الرغم من الأسى والجراح، وعلى الرغم من الذين يحاولون تشويه المعاني النبيلة للحياة، مازال يعتني بالحب، وبالأنثى شريكته في صنع الجمال، الأنثى التي هي شكل آخر للبلاد لم يتخلّ عن همسه الطالع من حنين الروح والمتطلع نحو السلام والطمأنينة، نحو عالم لا حروب فيه ولا اقتتال، فالحرب لم تكن يوماً إلا دماراً، وهدماً لما بناه الإنسان عبر التاريخ، من أجل ذلك اتكأ الشاعر على ما وراء المعنى، فهو لم يرد المعنى المباشر للألفاظ، وقصده من وراء ذلك الالتفاف على ما هو كائن من أجل ما يجب أن يكون يقول:

«نادميني

واشربي كأس الخلاصْ... لا مناصْ

هرب السلمُ إلى الحرب

فقد لاحتْ وجوه

لا ترى الدنيا سوى أنشودةً/ للموت

تستعدي أراجيف الرصاص... نادميني

إنّ كأسي من شروق الشمس

من جمر المآسي

فاسكبي دمعاً... لأسقي العمر حباً

من دموعي وأواسي».

التقط الشاعر السوري صورة الحياة من كل الزوايا واستمدّ إصراره وعزيمته من مآسيه عندما لم يفرق لحظةً واحدةً بين روحه والآخر، بين نبضه ونبض الأرض النابتِ فيها أبجديةً خالدةً، وسيمفونيةَ نهوضٍ من الرماد، يتابع الشاعر فيقول:

«كلّ أمّ شهدت أدمعها

كأس الدم المهراق

في تربة... روحي

وسقتْ قبراً أراه من قياسي

يا بلادي نادميني».

واضحـةٌ هي صورة تجلي الوطـن بالمرأة، حينما تأخذ البلاد معنى الأنثى، وتجلياتها في الخصوبة والولادة من خاصرة التجدد.

وأمـا الشاعر **بديع صقور** في نصّه المعنون: «لو تركـتُ الفراشة»، من مجموعته (دعوا الحمام ينام)، فهو يتساءل والغصَّة في حلق قصيدته، بل يحاول صياغة الأسئلة الموجعة على شكل مفاضلةٍ بين الحياة والموت، الموت الذي أراد من ورائه معنى الحياة... بلغةٍ بقدر ما هي واضحة بقدر ما تخبئ من المعاني، إذ لا مجال إلا للصّدمة وهي تعتني بأفق المتلقي فتضعه وجهـاً لوجهٍ أمام خياراته الأخيـرة، فهو يريد انتزاع الحياة ممن لا يريدون الحياة، وذلك من أجل أبناء الحياة. يقول:

«زهرة ورصاصة/ أيهما أجمل؟

ينبوع وساطور/ أيهما الأفضل؟

أرواح وتعاويذ/ قناصون وحمام/ أن تقتلَ كشربة ماءٍ

أن تموتَ الأغنية على شفتيك؟! أيها القناصون

ما السبيل لأن تدعو لنا أغانينا؟».

كيف ستكون لغة التنوير وكيف ستنتشر ثقافة التنوير في هذا المستوى من الجهالة، لا بدّ للقصيـدة أن تضع الجمال كله في مواجهة القبح كله، ولا بـدّ للإنسان من التأسيس لمشهد النـور المنتزع من بطن الظلمة، ومن التأسيس لقيم الحياة الفاضلة على الرغم من كل شيء، فيعـدُ الشاعـر بناء على ثقافته الطالعة مـن الأرض الطيبة ومن ثقافة السـلام، يَعِدُ الذين يسلبوننا الحياة فيقول:

«نعدكم إذا ما تركتم لنا أغانينا

سندع لكم: أنهار العسل/ وينابيع الخمر/ ورياحين السماء».

ثم نمضي مع شاعرٍ آخر، إنه الشاعر بشير دحدوح في قصيدته «زليخة» يقول:

«هذي زليخة/ ملءُ روحك/ فانتبه...

لقميصك الولهان يا مستعصمُ...

رشقتْ عليك من الغواية صبوةً

وفؤادك الظميان/ راح يهمهمُ

غلّقت لك الأبواب/ إلا قلبها

فنفرتَ كالمهر الغرير راح يحمحمُ

ورمتكَ في زنزانةٍ من حفظها

فعلمتَ وهن السجن/ ما لم تعلم».

فـي هذه الانسيابيـة المتزاحمة جنباً إلى جنـب مع المعنى المفاجئ، الـذي يباغت ذاكرتنا المتشكلـة من خلال السـرد القرآني، فيستحضر الشاعر دهشةً مواربـةً بعد أن علا التناصُّ إلى شرفة التعبير المبتكر، فلم يخرج الجمال هنا من سرير الأنوثة إلا ليطلع نُبلاً من تعفف الأنبياء.

إنها حالة نورانيـة ستبقى منصّةً نصيّةً حافلةً بالتأويل، وبالسرد الجميل، لاستنباط شكلٍ سرديٍّ موازٍ هو الآخر لأسئلة العزة والكرامة الإنسانية أليس التنوير إلا كرامة دائمة؟

وأشير إلى قصيدةٍ لكاتب السطور بعنوان «طقس الأنوار» إذ التقى مفهوم الأنوار فيها مع عنوان دراستنا، جاء فيها :

«يا أمي

من سلب النايات/ حنين المزمارِ؟

ومن كالريح يداهمني

وأنا شرفاتٌ/ مشرعةٌ

لهدوء الأمطارِ

أنا لا أعرف/ خاتمة الماء

بوارف حرفٍ

إذ تتجاور في الطين/ وتحيا أنواعٌ من أزهاري».

يخاطـب الشعر هنا الأمَّ التي تعني البلاد، وسكانها مـن البشر والشجر، يسألها : إذا كان هنـاك من يسلب الإنسانيـة معناها، ويحاول غزو الطمأنينة والسـلام والحياة الآمنة بأفكار وأدوات معادية للحياة، فإنَّ هناك من يجيب بلغة الحب، والإخاء مشرعاً شرفاته وقلبه للمطر الساقـي لهذا التراب، الذي يفتـح صدره ويديه للعيش مع الآخر بتجـاورٍ يعني ما يعنيه من التعـاون والمحبة والإخاء، من أجل وطن أجمل، في لوحـة وعَتّ دورها التنويري والإنساني، رسمها الشاعر السوري بجدارة العاشق، وخلّدتها الحياة.

جرجي زيدان لغويّاً

أحمد الحسين

يُعدُّ جرجي زيدان واحداً من رواد النهضة العربية وحملة مشعلها في العصر الحديث، وعلماً من أعلام الأدباء والكتّاب الذين فتحوا أبواب التأليف في مجالات: التاريخ والأدب والترجمة والرواية التاريخية، منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين.

ولد في بيروت عام (١٨٦١م)، وفي مدارسها تلقّى مبادئ القراءة والكتابة، والتحق بمدرسة «الشوام» فتعلّم الفرنسية ودرس الإنكليزية في مدرسة مسائية، ثمَّ تابع تعليمه العالي فالتحق بالكلية السورية البروتستانتية «الجامعة الأمريكية» ليدرس الطبَّ لكنّه انصرف عن الطبّ إلى دراسة الكيمياء؛ التي تركها أيضاً مغادراً إلى مصر كحال كثير من أدباء لبنان وكتّابه أمثال: نقولا رزق الله، وخليل مطران، وطانيوس عبده، وغيرهم، وهنالك تابع دراسة الطبّ ولكنه هجره من جديد واتجه إلى معالجة شؤون العلم والأدب والصحافة. فتولّى تحرير مجلة «الزمان» وأنشأ مجلة «الهلال» سنة (١٨٩٢م)، وأدار مجلة «المقتطف»، ثمَّ أَسَّسَ مطبعة الهلال كما عمل في حقول الترجمة وميادين التعليم والتدريس.

وكان زيدان ميّالاً إلى العلم والأدب منذ نشأته ونعومة أظفاره، وقد شجّعه على هذا الميل احتكاكه بأعلام الأدب اللبنانيين، ومنهم يعقوب صروف، وفارس نمر، وإبراهيم اليازجي، وسليم البستاني، إذ أدى احتكاكه بهم إلى انكبابه على مطالعة الكتب والتحصيل العلمي والمعرفي، والإقبال على تعلّم اللغات الشرقية والقديمة والغربية: (السريانية والعبرية

والفارسية واللاتينية والألمانية والإنكليزية)، فضلاً عن العربية ما مكّنه إلى جانب ثقافته الواسعة من امتلاك وسائل البحث والكتابة والانصراف إلى التأليف في علوم مختلفة منها البحث في علوم اللغة العربية وتاريخها، ما أتاح له أن يكون عضواً في المجمع العلمي الشرقي والجمعية الآسيوية الإيطالية.

وتوفي **زيدان** في مصر عام (١٩١٤م)، وهو في ذروة العطاء الفكري والنشاط الأدبي وقد رثاه من الشعراء: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وسواهم، تاركاً ثروة نفيسة من المؤلفات القيِّمة في مجالات الأدب والتاريخ والرواية والدراسات الأدبية واللغوية من بينها: «تاريخ مصر الحديث، وتاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ العرب قبل الإسلام، والتاريخ العام، ومختصر تاريخ اليونان والرومان، وتاريخ مشاهير الشرق، وتاريخ الماسونية، وطبقات الأمم، وعلم الفراسة الحديث، وأنساب العرب القدماء، وعجائب الخلق، ومختصر جغرافية مصر، وفضلاً عن (٢٢) رواية تاريخية حَمَلَتْ اسم روايات تاريخ الإسلام، ومذكرات **جرجي زيدان** التي نشرها صلاح الدين المنجّد عام (١٩٦٨م)».

أمّا مؤلّفاته في الدراسات اللغوية والأدبية فكانت:

١- الفلسفة اللغوية (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية)، وقد صدر في بيروت سنة (١٨٨٦م)، ثم صدرت له طبعة ثانية عن دار الهلال في مصر عام (١٩٠٤م)، وأعيدت طباعته أكثر من مرَّة.

٢- تاريخ اللغة العربية (باعتبار أنها كائن حيٌّ نام)، وقد صدرت له عدة طبعات منها طبعة دار الهلال عام (١٩٢٢م)، وطبعة دار الحداثة في بيروت عام (١٩٨٠م).

٣- تاريخ آداب اللغة العربية، نشرته دار مكتبة الحياة في بيروت ضمن مشروعها المتضمن طباعة آثار **جرجي زيدان** كاملة، ويقع في قسمين كبيرين، أولهما اختص بآداب العربية قبل الإسلام، وثانيهما تناول آداب اللغة العربية بعد الإسلام، وأكد فيه أن آداب اللغة العربية موضوع هذا الكتاب تعدّ أغنى الآداب الساميّة، بل هي أغنى آداب لغات العالم كما يقول.

زيدان اللغوي

وحين ننظر في مؤلفات **جرجي زيدان** اللغوية آنفة الذكر، نجده قد بسط آراءه اللغوية وعرض أفكاره التحليلية فيما يتصل بنشوء اللغة وتكوّن مفرداتها ثم تطوّرها بعد تكوّنها، ومن ثم نتاجها وتراث الناطقين بها، فضلاً عمَّا نشره من مقالات دارت حول الموضوع نفسه في المجلّات والصحف المصرية آنذاك، ومن خلال النظر فيما كتبه **زيدان** وما نشره من آراء

وتحليــلات يمكن للباحث أن يقف على الجانب اللغــوي في فكره ويتبيّن رؤيته ومنهجه الذي سار عليه، والركائــز والمنطلقات التي اعتمدها في دراسته للعربية وتبيان صورتها وقدراتها الفائقة سواء من حيث النشأة والتكوّن والتطوّر والخصائص والسِّمات التي تتفرد بها.

والواقــع أن **جرجــي زيدان** بنــى رؤيته اللغوية على منهج علمي تحليلــي طبَّق فيه قوانين النشوء والارتقاء على اللغة وألفاظها مستفيداً من دراسته للطب والكيمياء فيما يتصل بقضايا النســج والخلايا، وكذلك من خلال اطلاعه على نتاج أبحــاث علماء اللغات من مستشرقين، وساعده على امتلاك معرفة تحليلية عميقة معرفته بكثيرٍ من اللغات الشرقية والغربية.

ومــن الواضح أنَّه درس اللغة على أساس النظرية الاجتماعية والتوافقية وعليه فالمجتمع والحاجــة إلى التعبير والتواصل والاتفاق بين الأفراد والجماعات كانت العوامل الأساسية في نشوء اللغات بشكل عام من وجهة نظره.

أما حول الكيفية التي نشأت بها اللغة، والكيفية التي نطق بها الإنسان الأول فكان تفسيره أن الألفــاظ اللغوية في جميع اللغات تولّدت من محــاكاة الأصوات الطبيعية الخارجية مثل: (قصــف الرعد وهبوب الريح وصوت القطع والكسر وحكايــة التف والنفخ والتأوّه والزفير)، ثم تنوَّعت تلك الأصــوات وتحوَّلت إلى لفظ ومعنى بالنحت والقلب والإبدال والاشتقاق حتى صارت ألفاظاً مستقلة، ومنها انبثقت لاحقاً الأسماء والأفعال والحروف فصارت لغة على نحو مــا هــي عليه، وهو في هذا الجانب يبني على ما ذكره علمــاء اللغة العرب من قبل في أصل اللغــة ونشأتها مثل: (الخليل بن أحمد، وابن جني، وابن فارس، والسيوطي، وسيبويه، وسواهم من علماء اللغة المعاصرين من عرب ومستشرقين).

علــى أن هذا التكوّن لم يحــدث في يوم وليلة كما يذكر **جرجي زيــدان** بل امتدَّ إلى آلاف السنيــن، ورافق نشوء اللغة تطوّر حيــاة الإنسان، فاللغة عملية مكتسبة وهي خاضعة لناموس التطوُّر والارتقاء، ويصفها **زيدان** بأنها كائن حيٌّ في نموّها وتطوّرها وما يسري على الطبيعة مــن تغيّرات وتطوّرات يسري على اللغة أيضاً، ويقارن في هــذا المجال بين اندثار الأنسجة وموت خلايا الجسد، وتولّد ما يحلُّ محلّها من نسج وخلايا جديدة باندثار بعض ألفاظ اللغة وموتها، وولادة ألفاظ جديدة محلّها. ونراه يطابق بين اللغة والجسم الحيّ فيذكر أنهما دائماً فــي انحلال وتولّد دائمين، وإذا ما حدث ما يمنع التجدّد في الجسم الحي فإن مصيره يؤول إلى الموت والفناء وليست اللغة بمنأى عن هذا القانون، ويبرهن على ما يذهب إليه بانقراض

كثيرٍ من اللغات البشرية ويعزو ذلك إلى عجز تلك اللغات عن التجدد الضروري لبقائها واستمرارها، فاللغة حين لا تجدد ذاتها تؤول إلى الموت والاندثار.

العربية وشقيقاتها

اعتمد **زيدان** هذه الرؤية الفكرية وطبق منهجها ونتائجها في دراسته نشوء العربية وتكوّنها لافتاً إلى صعوبة تحديد تاريخ نشوئها كسائر اللغات الأخرى، لكنه يميل إلى الأخذ والاستئناس ببعض الفرضيات التي تشير إلى أن اللغة العربية نشأت ونمت – أي تميّزت فيها الأسماء والأفعال والحروف وتكوّنت فيها معظم الاشتقاقات والمزيدات –وهي لا تزال في حجر أمها، أي قبل انفصالها عن أخواتها: الكلدانية والعبرانية والفينيقية وغيرها من اللغات السامية الأخرى.

ويعتقد **زيدان** أن تكون الكلدانية أمَّ اللغات الساميَّة دون جزم أو تأكيد وأنَّ هذه اللغة بصرف النظر عن اسمها أو أصلها نمَتْ وتكوّنت أفعالها وأسماؤها وحروفها واشتقاقاتها ومزيداتها قبل تشتّت أهلها، ونزوحهم من المنطقة التي كانوا يسكنونها إلى فينيقيا وجزيرة العرب وما بين النهرين، إذ اختلفت بعد تشتُّتهم لغة كلِّ قوم منهم باختلاف بيئاتهم الطبيعية وأحوالهم الاجتماعية، وعليه فالعربية واحدة من اللغات السامية وهي والعبرية والسريانية والفينيقية والآرامية والكنعانية كانت لغة واحدة ثم تفرّعت إلى لغات كثيرة، وما يؤكد ذلك ما وجده علماء اللغة من قدر غير قليل من الألفاظ والمفردات المشتركة فيما بينها التي تشير إلى جذر مشترك نبتت عليه هذه اللغات مع الأخذ في الحسبان ما طرأ على ألفاظها من اختلافات في النطق أو الدلالة أو المعنى بسبب من اختلاف أحوال ناطقيها فمن ذلك كلمة: (الشتاء) فهي من المفردات المشتركة في اللغات الساميّة، إذ تدلّ في العربية على الفصل المعروف من فصول السنة، وجذرها (شتا) ومعناها مرتبط بهذا الفصل، فقالوا: شتا في المكان: إذا أقام فيه شتاءً، وشتا فلان: دخل في الشتاء، وقد احتفظت بقيّة اللغات السامية بهذه اللفظة ولكن بدلالة أخرى فاقترن معناها بالريّ والشُّرب، والجذر «شتا» يحمل معنى الرطوبة والريّ في اللغة السامية الأم، فلما تفرَّقت القبائل أخذت بعض اللغات معنى وأهملت معنى آخرَ وهذا ما نجده على سبيل المثال من فارق بين دلالة «شتا» في اللغة العربية ودلالتها في العبرية وبعض اللغات الساميّة الأخرى، والأمثلة التي توضّح هذا المنحى كثيرة، ومنها مثلاً لفظة (اللحم): فهي في الساميّة الأمّ تعني الطعام على إجماله، فصارت في السريانية تدلُّ على الخبز، في حين يدلُّ معناها في العربية على أحد الأطعمة التي تكون من مادة اللحم وهكذا.

خصائص العربية وسماتها

القــول فيما هو مشتــرك بين العربية وشقيقاتها لا ينبغي بحــال من الأحوال - كما يرى **جرجـي زيـدان**- أن ينفي حقيقية استقلال العربية بذاتها واكتسابها هويتها وما تفرّدت به من خصائصــ وسمات، إذ نمت هذه اللغة كما يرى أكثر من شقيقاتها الساميات، ثم تفرّعت إلى فــروع وأغصان بوصف سكن القبائل العربية وطبيعة حياتها ومجاورتها للأقوام واقترابها من بعضــ اللغات الأعجمية الأخرى، وتكوّنت لها لهجات قبليــة كالقول بلغة تميم ومضر وقيس وهذيل وقضاعة، ويذهب **زيدان** إلى أن أقرب لهجات القبائل شبهاً باللغة السامية الأمّ ما كان أبعدهــا عن الاختلاط ومجاورة اللغات والشعــوب غير العربية، واستطاعت العربية أن تطوّر مفرداتها وتكتسب معاني جديدة كما في قولنا :(بنى بأهله أو على أهله)، أي تزوّج، ومثل هذا التطــوّر الدلالي الجديد والمعنى المكتسب اعتمدته العربية كثيراً مما زاد من مرونتها وثراء ألفاظها وتجدد معانيها، وقد حدد **زيدان أبرز سمات العربية ومميزاتها**، وتتمثل بالآتي:

١- **الإعـراب**: فالعربيــة لغة مُعربة، تتغيَّر فيها حركــة أواخر الكلمات حسب موقع الكلمة والعوامــل المؤثــرة فيها، وهذه سمة من سمــات اللغة الساميّــة الأمّ، حافظت عليها العربية والحبشية دون اللغات السامية الأخرى كالسريانية والعبرانية والآشورية.

٢- **دقّــة التعبيـر**: إذ اتسمــت بدقّة تعبيــر ألفاظها وتراكيبها فيما يتصــل بأداء المعاني وفروعهــا وجزئياتها فعلــى سبيل المثال: نجد لكل ساعة من ساعــات النهار اسماً خاصاً بها، فالسَّاعة الأولى الذُّرُور، ثم البُزوغ، ثم الضُّحَى، ثم الغَزَالة، ثم الهَاجرة، ثم الزوَال، ثم العَصْر، ثم الأصِيل، ثم الصَبُوب، ثم الحُدُور، ثم الغُرُوب، ويقال فيها أيضاً البَكُور ثم الشُرُوق، فالإشرَاق، فالرَّأد، فالضُّحَى، فالمتُوع، فالهَاجِرة، فالأصِيل، فالعَصْر، فالطَفَل، فالحُدُور، فالغُرُوب.

أمــا دقّتُها في تفريع المعاني فقولهم في تفرع فعل النَّظر/ نَظر/ : رمق، ولمح، وحدج، وشفن، وتوضَّح، ورنا، واستكفّ، واستشفّ، ومثل ذلك في فروع أفعال الجلوس والقيام والمشي والنوم وضروب الأصوات للحيوان والإنسان وغير ذلك.

٣- **التــرادف**: ويعنــي وجود عدّة ألفاظ للمعنى الواحــد وهي سمة في اللغات لكنَّ العرب فاقــوا في ذلك سائر أمم الأرضــ ففي لغتهم (للسنة ٢٤ اسماً)، و(النور ٢١ اسماً)، و(الظلام ٥٢ اسماً)، و(الشمس ٢٩اسماً)، و(السحاب ٥٠ اسماً)، و(المطر ٦٤ اسماً)، و(البئر ٨٨ اسماً)، و(الماء ١٧٠ اسماً)، و(اللبن ١٣ اسماً) و(العسل نحو ذلك) و(الخمر ١٠٠ اسم) و(الأسد ٣٥٠ اسمــاً)، و(الجمل والنمر والحيــة ١٠٠ اسم) و(الناقة ٢٥٠ اسماً)، ويسري ذلك على الصفات

فعندهم (للطويل ٩١ لفظاً)، و(القصير ١٦٠ لفظاً) ونحو ذلك للشجاع والكريم والبخيل ما يضيق المقام على استيفائه أو الإحاطة به.

٤- **تعدد معاني اللفظ الواحد**: فمن ألفاظ العربية مئتا لفظ ونيف، يدل كلٌّ منها على ثلاثة معانٍ، ومثل ذلك يدلُّ الواحد منها على أربعة معانٍ، ومثلها التي تدلُّ على خمسة معان، وهكذا ما يدل على ستة وسبعة وثمانية وتسعة إلى خمسة وعشرين معنى كلفظة /الحميم/ ومما تزيد مدلولاته على ذلك، فالخال تدلُّ على (٢٧) معنى، والعين على (٣٥) معنى، والعجوز على (٦٠) معنى.

٥- **أسماء الأضداد**: ففي العربية مئات من الألفاظ يدلُّ كلٌّ منها على معنيين متضادين كقولهم (الجَوْن) للبياض والسواد، و(قعد) للقيام والجلوس و(نضح) للعطش والريّ، و(ذاب) للسيولة والجمود، و(أفِد) للإسراع والإبطاء، و(أقوى) للافتقار والاستغناء.

٦- **لغة المصطلح**: إذ تكاثرت الاصطلاحات الكلامية والصوفية والفقهية والأصولية في اللغة العربية حتى صارت تعدّ في الألوف، فاضطروا إلى وضع المعجمات الخاصة في تفسيرها وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم كما في: الصلاة، والصوم، والزكاة، والبرهان، والمؤمن، والكافر، والنحو، فكانوا إذا ذكروا لفظاً منها أوردوا معناه اللغوي ثم الاصطلاحي في الفقه أو الكلام أو التصوّف مع ما يناسب ذلك من المعاني الرياضية أو الطبيعية أو النحوية، وهذا ما نجده ونقف عليه في التعريفات للجرجاني، وكشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، والكلّيات لأبي البقاء، والفتوحات لابن عربي.

وإذا كانت العربية كما توصف بأنها لغة إعجاز وإيجاز، وأن من خصائصها دلالة لفظ قليل على معنى كثير فإن هذه السمات التي أشار إليها **جرجي زيدان** لم تنشأ في يوم وليلة، وإنما رافق نشوؤها تطوّر المجتمع والحياة بجوانبها الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولاشك أن أحدث الألفاظ أكثرها استعمالاً وأقدمها أقرب إلى النسيان والإهمال.

دفاعٌ عن العربية

ومما يصبُّ في دائرة اهتمام **زيدان** باللغة العربية وعشقه لها ودفاعه عنها وقوفه إلى جانب اللغة الفصحى وتصدّيه لدعوات هدمها وتخريبها على يد بعض أبنائها وبعض المستشرقين المحرّضين عليها، وهنا لا بدّ من التنويه بما قام به **جرجي زيدان** في ردّه على مهندس الري الإنكليزي السيد وليام ولكوكس الذي أطلق حملة ضد اللغة العربية الفصيحة

يتهمها فيها بأنها وراء فَقْدِ قوة الاختراع عند المصريين، ودعاهم إلى إغفالها وإلى استبدال اللغـــة العامية بهـــا اقتداء بالأمم الأخرى، وقد رد **زيدان** بمقـــال مطول على ولكوكس مفنداً آراءه، داحضاً حججه في مقالة نشرها بمجلة «الهلال» وكان عنوانها «اللغة العربية الفصحى واللغـــة العاميّة» ما يدل علـــى تمسكه بقوميته ووطنيته من خلال تمسكه باللغة العربية، ودعا إلـــى إهمال رأي ولكوكـــس وإغفاله، لأنه رأي عقيم ولا يصمد أمـــام الحجج والبراهين التي ساقها **زيدان** في رده، متمثلة في الآتي:

١- إنَّ الإنكليـــز باستبدالهم باللغة اللاتينية اللغة الإنكليزية قد استبدلوا بلغة أجنبية لغة وطنية وليس كذلك الحال في اللغة العربية.

٢- إنَّ استبدال باللغة العربية الفصحى اللغة العاميّة إن أنقذنا من شرٍّ فإنه يوقعنا في شرٍّ أعظم منه، لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العاميّة باختلاف الأصقاع التي يعيشون بها.

٣- إنّ اللغـــة تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاءً وانحطاطاً، ولغة العامَّة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها، وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى، ولاسيّما العربية، لأنها أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامَّة عن القيام بمثله.

٤- إنّ الجامعـــة العربيـــة قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحـــى، إذ لولا القرآن الكريم والمحافظـــة عليه منذ صـــدر الإسلام وَعَوّدنا إليه في إصلاح ما تفســـده الطبيعة من لغتنا، لتشتـــت شمل الشعـــب العربي وأصبح كلّ قطر من الأقطار العربية مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلماً كما حصل بالأمم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية.

٥- إن إغفـــال اللغـــة الفصحى يستوجب إغفال كلّ ما كتب بها مـــن علوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمئـــة سنة (وهي خسارة لا تعوض مهما قيل في فائـــدة اللغة العامية في الكتابة، ولهذا فالقول باستبدال العامية باللغة العربية الفصحى مضر باللغة والناطقين بها علمياً ودينياً وأدبياً.

ويطول بنا المقال طويلاً لو رمنا الإحاطة بكلِّ ما عرضه **جرجي زيدان** حول قضايا الدخيل والمولّد والمصطلح، وبيان ما أخذته العربية أو اقتبسته من اللغات الأخرى مثل: (الفرعونية، والحبشيـــة، والسنسكريتية، والكلدانية، والآرامية، والعبرية، والسريانية، واللغات الإفرنجية)، لكنَّ العربية وإنْ أخذت فإنها أعطت أكثر مما أخذت كما يقول **زيدان** ، وإن سرَّ نموّها وقوّتها وتطوّرها واستمرارها يعود إلى عدم انكفائها على ذاتها أو انطوائها على ألفاظها ومفرداتها، وبذلك يكون **جرجي زيدان** أحدَ المنافحين عن العربية والداعين إلى المحافظة على سلامتها

وبلاغتها وفصاحتها وعدم الخروج عن قواعد نحوها وصرفها أو إفسادها بتراكيب ومفردات من لغات أخرى كي لا تغدو هجينة كاللغة الأوردية أو التركية والمالطية، ودعا الأدباء والكتاب والمبدعين وأصحاب القرائح إلى إطلاق أقلامهم في التوليد والاشتقاق والتفريع لإنماء اللغة العربيـــة وإثرائها والارتقاء بها على ألا يفهم من ذلك على الإطلاق الخروج على قواعد اللغة فــي نحوها وصرفها كما حثّهم على ألّا يتهيّبــوا استخدام لفظ جديد لم يستخدمه العرب، إذ قــد يكون تهيُّبهم مانعاً مــن استثمار قرائحهم، وربما ترتّب علــى إطلاق سراح أقلامهم علــى هذه الصورة فوائد عظمى تعود علــى الأدب واللغة العربية بالخير الجزيل، والواقع أن **زيدان** بذل جهوداً كبيرة مخلصة في خدمة العربية وتراثها ، واتسمت أبحاثه بالريادة والعلمية والرصانة والجرأة والعمق التحليلي والرؤية المستقبلية النافذة، وكان مصيباً في أكثر ما ذهب إليــه من آراء وتحليلات على الرغم مــن وصفه لما كتبه وأبداه من آراء بأنها خواطر فتح بها بــاب البحث داعياً أئمة اللغة وكتابها وعلمائها إلــى استيفاء الكلام في تاريخ اللغة وألفاظها وتراكيبهــا ، وأن يوفوا هذا الموضوع حقّه من البحث والدرس العميقين خدمة لنهضة العرب ولغتهــم التي تعدّ أسمى اللغــات السامية وأرقاها ، وأوسعها نطاقــاً ، وأغناها ألفاظاً ، وأدقها تعبيــراً ، وحسبك في ذلك عما ينمّ عن اعتزاز **زيدان** بهذه اللغة وتراثها وعن تواضعه العلمي وهذه سمة من سمات العلماء والباحثين الذين كان **جرجي زيدان** واحداً منهم بكلّ تأكيد .

المراجع

(١)- جرجي زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، مراجعة: د. مراد كامل، دار الهلال، ١٩٦٩م.

(٢)- جرجي زيدان، تاريخ اللغة العربية، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

(٣)- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مكتبة الحياة، بيروت، [د. ت] .

(٤)- الزركلي، الأعلام، ط٣، [د. ت] .

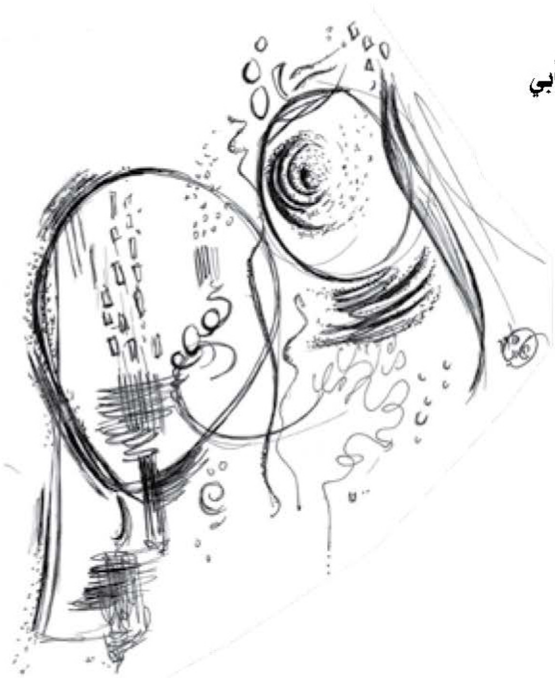
(٥)- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي: [د. ت] .

(٦)- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية، [د. ت] .

(٧)- مجلة الهلال: مصر، السنة الأولى، العدد الأول، مقال: اللغة العربية الفصحى واللغة العامية.

مشاهد سوريّة

ثائر زين الدين



مشهد

إلى روح أبي

والدي لمْ يُكمِلِ الواحدَ والسبعينْ،
عاشَ حروباً سبعَةً.
تروي لنا الجدَّةُ:
- لا أُعلمُ من قاتَلَ في لبنانَ؛
أسطولاً... ورجعيينْ!
لكنَّهُ كان فتىً ما طَرَّ بعدُ شارباهُ؛
عادَ مسكوناً بوديانٍ...
جبالٍ...
بالصنوبَرِ في السفوحِ...

- العمل الفني: الفنانة ناديا داود.

وَتقطَعُ الجدَّةَ أُمّي:
- بالتنانيرِ القصيرَة... والنساء العينْ!
يَبسِمُ مَزهوّاً، فتُكمل:
- ربما تذكرُ كيفَ رجعتَ من «أيلولَ»؟
كيفَ غمستُ في الماء المُسخَّنِ، ساعةً
قدميكَ ثمَّ نزعتُ جورَبكَ المُدمّى!
ربما تذكرُ كيفَ رجعتَ من «تشرينْ»؟
حَدَّقَ فينا مُشرقَ القسماتِ...
ثمَّ تكدَّرَ الوجهُ الجميل،
تَخَضَّبتْ عيناهُ:
- ليتَ الجسمَ ظلَّ مُكفَّناً بالثلجِ
في الجولانِ...
ليتَ العينَ ذابت في الترابِ وما رأتْ
ولداً يقاتلُ أهلَهُ...
وأباً يُزنِّرُ طفلةً بالموت...
ليتَ العمرَ يرجعُ بي فأغفو هانئاً
في خندقٍ يرنو إليه «أبو الندى»،
فإذا تكاثفت الغيومُ
وجادَهُ الغيثُ...
استفاقَ العشبُ جذلانَ،
وغطّى جُثتي الدحنونْ.

٢٠١٣/٤/٥

مشهد

صَعَدوا الحافلةَ
فتّشونا
تَمَلَّوا وجوهَ النساءِ... الرجالِ،
بطاقاتِهِمْ،
وبفوّهةِ البندُقيّةِ نَبَّهَ أطولُهم لحيةً
مَرأةً غافلةً:
- أصلحي فوقَ رأسِكِ هذي الملاءةَ!
ثُمَّ تعالى صراخُ فتىً
سحبوهُ كما تُسحبُ الشاةُ:
- عنديَ طفلانِ
وامرأتي حاملٌ /يتوسَّلُ/
لم أؤذِ عصفورةً...
ما حملتُ السلاحَ على أحدٍ...
لم يَقُودوهُ أبعدَ من خطوتينِ،
بكى...
انكبَّ فوقَ مداساتهم...
ضحكوا وأشاروا لسائقنا أن يسيرَ،
وكبَّرَ قائدُهم، ثُمَّ ضَجَّ الرصاصُ.
بكت جارتي.
وعلا صوتُ شيخ:
- إلى أينَ تأخُذُنا هذهِ السافلةُ؟!

دمشق ٢٠١٣

مشهد

تقبِّلُ الأمواجُ رجليه
ويلهو نورسٌ أخرقُ «بالسترةِ»،
هلْ يلفتُهُ الأحمرُ فوقَ الصفحةِ الزرقاءْ؟!

تجمَّعَ الناسُ... الصحافةُ... غيرُ شرطيٍّ
وبضعةُ نازحينَ...
ولمْ يُعرهُم أحمدُ النائمُ بالاً؛
كان قد ألقى قميصاً بالياً
لجزيرةِ اليونان
ثمَّ مضى يرفرفُ عائداً
صوبَ هضابِ الغوطةِ الغنّاءْ.

السويداء ٢٠١٦/٨/٢٩

مشهد

قربَ مفرق قريتها
وقفت تترقّبُ حافلةَ الصُبحِ:
- لن تتأخَّرَ، والدربُ آمنةٌ،
والحواجزُ صارتْ صدى.
وتُتابعُ سربَ فراشٍ
يحوِّمُ فوقَ أزاهيرِ نيسانَ...
تضحكُ لاهيةً:
- قالَ لي أنت مسكونةٌ بالرياحِ،
ولكنَّ قلبك غرٌّ...
وتضحَكُ ثانيةً؛
- لا تحبُّ الدُخولَ إلى قاعةِ الدرسِ
بَعدَ المُدرِّس؛
سوفَ يُحَدِّجُها الأشقياءُ بأنظارِهمْ،
وستَطفرُ من وجنتيها الورودُ،
ويطفو الشذا،
تتأمَّلُ ساعتها...
أفقٌ من بهاءٍ تزيِّنه الطيرُ
ظلَّلَ أجفانها،
شَجَرٌ يتناوَحُ ملءَ المدى.
ما رأت كيفَ تنفَتحُ الآنَ
أبوابُ سيّارة!
كيفَ حاقَ بها الليلُ!
تُحمَلُ ريشَةَ طيرٍ،
وتُرمى على مِقعَدٍ بينَ مسخينِ
تصرُخُ
يَجفَلُ سِربُ قَطاً
كان يهجَعُ في الشجراتِ القريبةِ،
يزقو..
ويضربُ في الريحِ مُبتَعِدا.

٢٠١٨/٦/١٦

مشهد

يقولُ المهاجرُ
وهو يهرولُ بينَ جذوعِ الصنوبر:
أعلَمُ... ما من صديق
وما من غريبٍ
يزورُ ضريحيَ!
لن تضعَ امرأةٌ زهرةً فوقَ قبريَ؛
وهي تُلملِمُ دَمعَتها،
غيرَ أنَّ عنادلَ عابرةً

ستُغَرِّدُ فوقَ تُرابيَ عندَ الربيعِ
تُنَقِّرُ ما أنبتَ القبرُ،
ثُمَّ تُغادرُ...
تتركُهُ ضائعاً
للأبــدْ.

دمشق ٢٠/٨/٢٠١٧

مشهد

غَفَوا كما لو أنهم في البيتْ!
ما جَمَّعتْ طفلتُهم أوصالَها،
وما احتمَتْ تحتَ جناحَي أُمِّها،
ولا هفا الوالدُ كي يدفَعَ شيئاً عنهما.
حقيبَةٌ صغيرةٌ ضائعةٌ تحتَ ركامِ الثلجِ...
معطَفٌ كقطعةِ الزجاجِ
مرميٌّ على الطفلةِ.
هلْ تاهتْ بهم بوصلةُ الروحِ؟
أم الوديانُ والقمّةُ... والعاصفةُ الهوجاءُ
ما أبقت لهم من سمتْ!
كونُ بياضٍ باهرٌ من حولهم،
وفي سوادِ المُقلِ الشاخصةِ الآنَ إلى الربِّ
يُرى طيفُ ملاكٍ دامعٍ
يحمي بقايا حُلمِهم
من هدهداتِ الموتْ.

١٥/١/٢٠١٨

مشهد

لم تكنْ غرفةُ النوم باذخَةً،
غيرَ أنَّ السريرَ العَريضَ،
الذي صمدتْ بعضُ أجزائه
لمْ يزلْ ينضحُ الآن بالحبِّ،
حتى المرايا التي كسَّرتها القذيفةُ
ظَلَّتْ تخبئُ صورَتَها...
إنَّهُ الآن يَلمَحُ بسمَتَها تتراءى...وتهربُ.
نافذتانِ مخلَّعتان، بغيرِ زجاجِ.
جدارٌ تنازلَ عن لوحةٍ ومصابيحَ خضرٍ
لعابرِ دربْ.
شظايا تناثرُ في كلِّ صوبْ!
تنبَّهَ؛ كيف نجا الفونوغرافُ العتيقُ؟!
أزاح الغبارَ، أدارَ الذراعَ
فضاعَتْ من البوقِ أنغامُ ساحرةٌ،
رفرفتْ كالفراشاتِ...
أغلق عينيه بضعَ ثوانٍ...
فغابَ أزيزُ رصاصٍ بعيدٍ،
تلاشى انفجارُ قذائفَ...
ها هي ذي الآنَ غرفةُ حبِّهما جنّةٌ؛
لا يدُ الشرِّ عاثت بها...
لا نحيبٌ... دماءٌ...
نعم هو طيفٌ قبيحٌ؛
تشبّثَ في كلِّ شيءٍ
وها هو ذا الآنَ يهربُ

تقذفهُ النغماتُ بعيداً
وتذروه شرقاً وغربْ.

٦ أيار ٢٠١٨

مشهد

إلى مهند أبو عمار

حبسَ الصحبُ أنفاسَهَمْ
واجمينْ!
كان علجٌ تلفّعَ بالليل
قد وضعَ الآن خنجرَهُ تحتَ ذقنِ الفتَى
وجثا مثلَ ثورٍ على الجسدِ الغضِّ
صَاحَ مُحمّدٌ: «ما ذنبُهُ؟!»
رَدَّ صابرٌ: «ذنبُ العصافيرِ حينَ تُغرِّدُ!،
ذنبُ الكروم تقدّمُ للناسِ لوزاً وتينْ!»
ثُمّ تمتمَ سلمانُ: «أجدادُهُ قبلَ ألفِ سنهْ!
قرؤوا ما تنزلَ من سورٍ
مثلما يقرأُ العاشقونَ أناشيدَهم...»
قفزتْ من جواريَ ليلى
وقد بلَغَ النّصْلُ حنجرةَ الطفلِ...
أطفأت التّلفازَ وخضَّلَ دمَعٌ دمٌ مُقلتيها...
فهبّتْ نسائمُ مثقلةٌ بزفيرِ «تلولِ الصفا»
بنحيبٍ بعيدٍ
وهمهمة
ونواحِ مئات السنينْ!

السويداء ٢٠١٨/٨/٧

المشهد

كانَ من قبلُ يحلمُ أن يعتلي مِنبراً،
أن يُحدِّثَ أُحدوثَةً،
أن يُقدِّمَ نقداً عن الأدبِ العربيِّ؛
يقولَ الكثير... القليلَ مِنَ الكلماتْ!
كانَ... كانَ...
وها فجأةً جاءت الحربُ
صارَ أشهرَ منّا جميعاً،
غدا المتحدِّثَ باسمي وباسمِكَ،
صارَ لهُ الصدرُ دوني ودونَكَ...
صارَ يمثِّلُ كُلَّ الذين مضوا
في درْبِ الكتابةِ؛
من عاشَ منهم
ومن قدْ طواهُ المماتْ!
كانَ من قبلُ يَحْلُمُ أن يعتلي مِنْبَراً
ثُمَّ ها هو ذا اليومَ يُسْبِغُ مِنْ لدُنه
ما يَرى – أو يرونَ لهُ – من صفاتْ!
وما شاءت البارحاتُ أواناً
وما شاءت السانحاتْ...
كانَ من قبلُ...
ثُمّ هو اليومَ
يكتبُ للمبدعينَ
صكوكَ الحياةْ.

٢٠١٧/١٢/٣

مشهد

طفلتانِ تنامانِ فوقَ بلاطِ الرصيفْ
توسَّدتا حُزمتي ورقِ
ورمتْ فوقَ جسميهما جارةٌ
قطعةً من دثارٍ قديمٍ خفيفْ
يمرُّ المشاةُ بقربِهما مُسرعينَ
ويخشى التوقّفَ سِربٌ من السيّداتِ الحِسانْ!
طفلتانْ
كزنبقتين
يرفرفُ حولهما حُلمٌ كالفراشةِ:
أمٌّ تُعدُّ الفطورَ... تناديهما
وأبٌ أشعَلَ الآن مدفأةً؛ تهدرُ النارُ فيها
ومازالتا تغرقانِ بدفءِ فراشٍ وثيرٍ
وأغطيةٍ من فراء وصوفْ!

٢٠١٨/١١/١٢

مشهد

- هذي الحياةُ طويلةٌ جداً،
كنهرٍ قادم من ظلمة الأعماقِ
نحوَ النورِ- قالَ الجدُّ-
فانظرْ ما الذي تستطيعُ أن تُعطيه،
أنْ تُهديه للدنيا؟!
وبدِّدها كَمالٍ زائلٍ،
في راحتي رجلٍ كريمْ.

- هــذي الحيــاةُ طويلةٌ جــدّاً - تقــولُ المرأةُ
الثكلى- كنصلٍ باردٍ،
كخيوطِ بيتِ العنكبوتِ،
كلحظةِ الزلزالِ،
كالدربِ الغريبةِ في المتاهة،
كالوداعاتِ الحزينةِ بينَ عشّاقٍ صغار
- هذي الحياةُ قصيرةٌ جداً - يقولُ مُجنَّدٌ
ثقبَ الرصاصُ ضلوعَهُ-
روحي تَشبَّثُ بالحجارةِ،
تطرقُ الأبوابَ منذُ الفجرِ،
ثمَّ تفرُّ كالرجلِ الغريبِ...
وراءهُ تعدو كلابُ الحيِّ؛
لا ترتدُّ عنهُ مُضرَّجاً بدمائه،
إلّا وقد عبرَ التخومْ.

دمشق ٢٠١٩/٢/٨

مشهد

كان ليلُ دمشقَ يُضاءُ بألعابهمْ
قلتُ: من أينَ تأتي مئاتُ الصواريخِ؟!
قالَ صديقي:
لقد أصبحَ النسرُ يا صاحبي
مُستباحاً!
تُدفِّعهُ بالجناحِ الكليلِ بغاثُ الطيورِ،
فيُغضي على ذُلِّه...
ها قد اختارَ وكراً لهُ في السفوحِ...

بكى ساعةً واستراحا.
هممتُ أُؤكدُ ما قالهُ؛
غيرَ أنّيَ أبصرتُ أهلَ دمشقَ
على شُرُفاتِ البناياتِ...
فوقَ السطوحِ!
كأنَّ صواريخَ «تلِّ أبيبِ» دُمىً تتكسَّرُ
فوقَ الرؤوسِ المهيبةِ...
سالت دموعيَ:
- لم يفتِ الوقتُ بعدُ...
سينتفضُ النسرُ عمّا قريبٍ،
فيطرَحُ عنهُ الخنوعَ،
ويُلقي - كرملٍ يُغطّي جناحيهِ -
هذي الجراحا.

دمشق ٢٠١٨

مشهد

- لا تفتحِ البابَ؛ خلفَ البابِ أحلامٌ كئيبةٌ.
(كانت تتمتمُ وهي تحلُمُ بي)
- لكن على أحدٍ من الأحياء أن يفعلَ!
أن يفهمَ معنى الصمتِ في الشارعِ
بعدَ القصفِ.
(قلتُ، وقد هممتُ بفتحه):
-لا شيءَ إلّا طيفُ كهلٍ واقفٌ يُخفي نحيبَهُ.
- بل حُلمُ سيِّدة- (تتابعُ زوجتي في حلمها) -
لـمَّا تزل ترقبُ أن يرجعَ ربُّ البيتِ...
أن يطرقَ كالعادة هذا البابَ...
ثمَّ يديرُ مفتاحاً ويفتَحُ،
ينحني فوقَ السريرِ:
«لقد رَجعتُ»
وتجهدُ الكفانِ كي تُخفي نُدُوبَهْ.

دمشق ٥/٥/ ٢٠١٩

مشهد

كنتُ حينَ أعودُ... أُحدِّثُها عن نهاريَ؛
ما سَرَّني،
ما أساءَ إليَّ!
كنتُ أضحَكُ مُنتشياً بابتسامتها،
أتَذَمَّرُ...
أشكو...
أسبُّ...
ولـمَّا تزلْ تتضوعُ مثلَ حديقةِ وردٍ،
تلمُّ شتاتيَ،
تحنو عليّ.
ثُمَّ هأنذا وقد التفّ حولي الصحابُ يواسونني:
«كن صبوراً»... «مشيئةُ ربِّكَ»... «يرحمها الله»...
ما جالَ في خاطري
غير أن أركضَ الآن نحوكِ،

أنظر في مقلتيكِ وأسأل:
- ماذا سأفعَلُ؟
كيفَ تشيرينَ أن أتصرَّفَ؟
كيفَ سنجتازُ هذا النهارَ الثقيلَ
كجثّةِ حُلم!
وأبكي على ركبتيكِ
كطفلٍ شقيٍّ...

دمشق ٢٠١٨

مشهد

عادَ من الجبهة، لا أعلمُ من أينَ؛
بكى وقد حَضَنْتُهُ:
- سُرِّحتُ!
حمدتُ ربّي لم أرَ جُرحاً،
وسافرنا إلى القريَةِ...
يومانِ من الأعراسِ... كم غَنَّيتُ
كم فرحتُ.
في ثالثِ الأيام هبَّ عند الصبح من مرقدِهِ،
يُساعدُ الوالدَ في بناء سورِ الدارِ...
خَرَّ مثلَ برج شامخٍ...
تردَّدَ الطبيبُ وهو يشرَحَ الحالةَ في المشفى:
- كُريّاتُ الدم البيضاءُ ...والصفائحُ التي...
شهرانِ لا أكثَرَ.
أصحو كلَّ ساعةٍ...
ما عُدتُ ألقي للرؤى بالاً:
طيورٌ لم تزل تحملني فوقَ بيوتِ الطينِ،
تُلقيني إلى ماءٍ كثيفٍ أسودٍ...
يعدو بي المُسْعِفُ؛ كلّي في بياضٍ غامضٍ...
أنظرُ: مازالَ على غفوته؛ كيفَ سيمضي؟
كيف أبقى دونَهُ؟ لو أنَّهُ يعيشُ عامينِ...
يرى طفلته قد كبرت...تحفَظُهُ...
لو أنني أستطيعُ غَلَّقتُ النوافذَ كُلَّها،
أقفلتُ بابَ البيتِ
بالقفلِ... بالمزلاجِ،
أمسكتُ الهراوةَ وانتظرتُ غريميَ الشريرَ
خلفَ البابِ...
/ أبكي... /
ليتني أدفَعُ عنهُ الموتَ.

دمشق ٧/٦/ ٢٠١٩

مشهد

تتشبَّثُ بالحافلةِ وتَصرخُ:
- لن تذهبَ،
أعلمُ أنّك لن ترجِعَ أبدا...
تتشبّثُ بالحافلة... فيرفَعُها الأصحابُ إليهِ،
يُقبِّلُها، ويُهدِّئُها:
- لابدَّ لأحدٍ أن يدفعَ عنا هذا الليلَ...
سنرجِعُ، لا تخشَي شيئاً،
لن نتركَ للموتِ بأن يأخذَ منّا أحدا.
ويُقبِّلُها، يهمسُ: «سوفَ أعودُ،

وننجبُ بنتينِ بمثلِ جمالكِ،
ننجبُ ولدا،
وأُسمِّيه «على اسمِ أبي»،
أو «باسمِ أبيكِ فلا فرقَ...»

تُكفكفُ دمعتها الآنَ، وتَسقي التُّربَةَ،
تُسندُ وردات الجوريِّ إلى الشاهدةِ البيضاءِ،
وتُطعِمُ طيراً لم يتأخَّر عن موعدها
منذُ ثلاثةِ أعوام،
ينظُر في عينيها فَرحاً،
ويمُدُّ جناحاً - نحو يديها الراجفتينِ-
كما لو كان يدا.

دمشق ٢٨/٦/٢٠١٩

مشهد

تمتمَ البائعُ مدهوشاً:
- ولكني أبيعُ الفردتينِ معاً!
وحاولَ أن يعيدهما إلى رفٍّ أنيقٍ
خلفَ واجهةِ الزجاجِ.
فتبسَّمَ الجنديُّ،
قَرَّبَ نحوهُ الكُرسيَّ:
- عندي من يُقاسمني الحذاءَ.
وأبصرت عيناهُ أجساداً
يطيِّرُها الجحيمُ،
نثارَ أشلاءٍ،
وأُفقاً من عجاجٍ.

دمشق ١/٤/٢٠١٩

❁ ❁ ❁

مرثيّتان

عبد الكريم الناعم

غُربة مُثلَّثَة

لروح الصديق الشاعر ممدوح السكاف



- الكلمةُ أضيَقُ منْ أُفُقِ
في هذا الشّرقْ

كيفَ أُوَسِّعُها في زمنٍ
ما أدري
هلْ يَختزِنُ المُضمَرُ فيه شيئاً
من أحوالِ البرقْ؟!

- مِنْ أينَ أَجيئُك ياابْنَ زمانٍ
كُنّا فيه...
نُوغلُ... نوغلُ...
كي لانُصبِحَ سُلّمَةً في ذاك التّيهْ

- العملُ الفني: الفنان أحمد الحاج أحمد.

• مِن أينَ أَجيئُكَ
يا طِفلَ ثمانين الأيامْ؟!

كنتَ نقيّاً، ونظيفاً في زمنٍ
مَشبوبٍ بالسُّخّامْ

• واسعةٌ صفحاتُ الذّكرى
كيفَ يَضيقُ الماءُ بذاك المَجرى؟!

• ظَلّتْ حمصُ غوايتَك المَشغولةَ
من حلْمِ الشّعراءِ المَفتونينَ
بأنَ الحلْمَ الأبعدَ...
أقرَبُ من (ميماسٍ)[1] التّوقْ

• أوَتذكُرُ يومَ عزمْتَ على أنْ
تَخرُجَ منها
أو تخرُجَ منكَ
لعَشْرِ أيام غِبْتَ
وَعُدْتَ
فيا لِلْغربة ما أصبرَها!!

• سارية للكلْمة كنتَ
وللاّتينَ لَهافى الشعرْ

طَلّقتَ الغربةَ لكنَّ الغربةَ جاءتْك
من الجهة الأخرى
حينَ «دواعشُ» عصرِ الفتنة هبّوا
مِن نَتَنِ الأفكارِ الصُّفُرْ

غادرتَ البيتَ لِتنجو
ولِتنْجو الأسرةُ مِن ذَبْحٍ
كانَ علامةَ هذا العصرْ

أخذوا البيتَ وما في البيتِ
الكُتُبَ، الأقلامَ،
وَأرْصدةً
لِكتاباتٍ تَتَنَظَّرُ طَلْعتَها،

وَبعيداً كنتَ وأنتَ قريبٌ
يتأكّلكَ الوحشُ المُرّ

الغربةُ ثانيةً،
تَتَمشّى عبرَ شوارع حمصَ
ما تَتَشَوَّفُ إلاّ قِشْرتَها
ما هذا السرّ الغامضُ بين اللّبّ
وبينَ القِشْرْ!

• وَنَزَحْتَ بعيداً
طَعْمُ الغربةِ طعْمُ الجَمْرْ
أعْرِفُهُ،
كمْ عانيتَ،
وليسَ جميعُ البُعْدِ جفاءً،
غُرْبَةَ طيرْ
فوقَ مُحيطاتٍ
لا الصَّحْبُ على وَعْدٍ
لا بَرّ

مَنْ يسطيعُ تَحمُّلَ هذا القَدْرْ؟!

وقَضَيْتَ غريباً في «عمّانَ»،
الغربةُ ثالثة في القبْرْ

يا طفلَ ثمانينَ اكتَمَلَ الشّوطُ،
سلاماً
ممنْ يعرفُ كيفَ يحنُّ الماءُ
لمجرى النّهرْ

عليكَ السلام

لروح الشاعر محمد منذر زريق

صديقَ الفَراشِ
وهمسِ الخُزامى
ورائحةِ الشمسِ في البُرتقالْ

عبَرْتَ سريعاً
فهلْ حيثُ أنتَ
وجدْتَ جواباً لذاكَ السّؤالْ؟

بماذا أُفَتِّقُ أوراقَ ماكانَ؟!
يُذْهِلُ صوتُ النّعيِّ التّصبُّرَ
حتى وُروفِ البَهوتْ

فمَنْ يُشْعِلُ الآنَ بعدَكَ ليلاً
ظلامَ البيوتْ؟!

ومَن يَتولّى بُزوغَ القصائدِ تَصدَحُ
حتى ازدهارِ السُّكوتْ؟

لِمَنْ سوفَ تشكو دمشقُ القديمةُ
بعْدَ غيابِكَ عنها

وكانتْ على الدِّفْءِ منكَ
وقدْ كنتَ منها

ومَنْ سوف يَحْملُ تلكَ الفراديس فيكَ،
فَمِنْ نَدْوةٍ عَرَّشَتْ
إلى لوحةٍ دَنْدَنَتْ

ومِنْ أوّلِ هَطْلِ اللّحونْ
إلى مورقاتِ الشّجونْ
إلى حُلُمٍ في ذُرا «قاسيونْ»؟!

أمُرُّ على جَذْوةِ سرٍّ،
أتَذْكُرُ كيفَ أضاءَ الذي بيننا
دونَ أنْ يَتَسَرّبَ شيءٌ إلى الجالسينْ؟

وكُنّا كطفليْنِ ضلّا
فلمّا التقينا على سَرْحةٍ
من ولاءِ الطّيورِ لأكْنانِها
تَلَفَّتَ فينا الأريجُ على فتنةِ الياسمينْ؟

لذا، لمْ تكنْ،
يا بنَ ما يُتَشهّى
كما العابرينْ

لقدْ كنتُ حدّثتُ نفسي
بأنّك تكتُبُ فيّ الرّثاءَ

فكانَ دبيبُ الفُجاءةِ فيَّ

بما لستُ أدري
فكنتُ الدّموعَ
وكنتَ الإناءْ

أتذكرُ؟
كانتْ أعالي الجبالِ على بُعْدِ بوْحٍ شفيفٍ
وكانتْ أيائلُنا في السّهوبْ

تَمُرُّ على المُطْمَئِنِّ،
فثمَّ هديلُ حَمامٍ يُعرِّشُ
في أمسياتِ الغروبْ

لماذا أُذكّركَ الآنَ؟!
أصفى من الماءِ أنتَ
إذا ما تهطّلَ من أمنياتِ الغيوبْ

تَمَنّيْتُ لَو جلسةً
ليسَ فيها سوانا
لعلَّ البُروجَ تَبوحُ
بما في أقاصي القلوبْ

إلى كمْ تظلُّ الأماني قناديلَنا
الحالماتِ؟!
إلى كمْ يُعادُ بنا كي يُغنّي
بنا الخَطْوُ امتدادَ الدّروبِ؟!

لقد بَرَّحَ الشوقُ في المُضْمَراتِ
وطالتْ علينا المسافاتُ
حتّى نسينا بماذا ابتَدَأْنا
ومن أينَ؟!
مَنْ طوّقَ عُنْقَ الحَمامِ؟!

ومَنْ أَشْرعَ الشُّربَ حتى الجَمامِ؟!

فكيفَ تُجيبُ وقدْ صرتَ أَنْأى

وهذي كؤوسُ الصفاءِ إليكَ ظَمْأى

وليسَ لديَّ من الأحْرُفِ المُتْرعاتِ
ما قدْ يَليقُ

فعذراً إذا ما تعَثَّرَ ضوءٌ
وناسَ بَريقُ

ستبقى حنيناً جميلاً
وَلَهْفةَ عُمْرٍ
إذا ما ذُكرتَ
تَنَهّدَ مِسْكٌ
ورَدّدَ فينا
عليكَ السلامْ
عليكَ السلامْ

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- الميماس: متنزّه في حمص.

❁ ❁ ❁

أحلامي ومصباح علاء الدين المثقوب

أحمد عبد الكريم ونوس

منذ زمن بعيد، لم أرَ (أحلام)، وأنا لا أقصد تلك التي يراها النائمون، وغير النائمين أحياناً، بل أقصد أحلام بنت ضيعتنا، ورفيقة طفولتي، التي كنتُ أحلم بأنها ستصبح شريكة حياتي، لكن ذلك بقي حبّاً من طرفٍ واحد، وحلماً من طرفٍ واحد، لأنّ أهل أحلام أخرجوها من المدرسة باكراً على الرغم من تفوقها! وزوّجوها من عجوزٍ ثريٍّ، حملها معه إلى بلادٍ بعيدةٍ.

كذلك فأنا لم أعدّ أحسد علاء الدين، ولا أقصد صاحب الفانوس السحري الذي يحقق جميع الأحلام، بل أقصد علاء الدين ابن ضيعتنا، الذي كان ينافسني على قلب أحلام، الذي حسدته مرّات كثيرة في يفاعتنا، لأنها كانت تسمح له بالإمساك بيدها في حلقات اللعب أكثر منّي، وهو الآخر اضطرّ إلى قطع دراسته، والسفر بعيداً للعمل، كي يساعد والده الذي يعرف كيف يُنجب، ولا يُفكر كيف سيربّي!

في طفولتنا تلك، (وكأنَّ لنا طفولة أخرى!) كنتُ وعلاء الدين ننام على السطح، نتقاسم النجوم.

- هذه نجمتك، وتلك نجمتي.

أمّا القمر فقد كان محجوزاً لأحلام!

- العمل الفني: الفنانة ناديا داود.



وكنا نتشاكس، كي يأخذ أحدنا النجمة الأقرب إلى القمر لنفسه، ونمضي في عراكنا الطفولي، ساهيين عن أنَّ القمـــر كان يبتعد عن نجمتينا شيئاً فشيئـــاً، ليغرق في غـــروبٍ غريبٍ، وفي الأماســـي كانت الجـــدّات يقصصن علينا حكاياتهـــن المرعبة، وقد كُـــنَّ حريصات على إضافة ما استطعن، من نسج أخيلتهنَّ، ولا أقـــول أحلامهـــنَّ، إلـــى تلـــك الحكايات لإطالتهـــا، حرصاً منهنَّ علـــى أن ننام قبل أن تنتهـــي الحكاية، لكنَّ الواقـــع هو أنَّ الجدة هي التي كانت تنام، ونحن نبقى ساهرين نحلم ببقيّة الحكاية.

ومـــن تلك الحكايات، قصة علاء الديـــن وفانوسه السحـــري، الـــذي يحقق جميع الأحلام، ويلبّـــي جميع الرغبات، وفي اليوم التالـــي -بعد أن سمعنا تلك القصّة- راح علاء الدين يبحثُ في زواريـــب الضيعة، حتـــى وجد سراجاً عتيقاً، بلا قعر، فجاء بـــه راكضاً، وهو يقول: أنا علاء الدين، وهذا مصباحي.

ولا أدري كيف أقنعني بأن أكون عفريت المصباح الطيّب الذي يحقّق الأحلام!

كانت أحلامنا أوهاماً، وكان تحقيقها وهميّاً كذلك، كأن يطلب مني أن أبني له بيتاً كبيت المختار لأننا لم نكن نحلم، أو نعلم بوجود بيوت أكبر أو أفضل منه، فألوّح بيديَّ في الفراغ، وأقول له: (خُذ... افرح... فقد بنيتُ لك بيتاً كبيت المختار!).

وهكـــذا كنّا نلعـــب بأوهامنا، فنجعلها أحلاماً، بل واقعاً في بعضـــ الأحيان! فقد أمرني مرّةً أن أجلب الحطب لتنورهم، وفعلتُ، لأنّه «سيّدي علاء الدين» وأنا عفريت مصباحه، لكني لم أفعل ذلك دون مقابل، فقد تخلّى لي، في اليوم التالي، عن فرصة الإمساك بيد أحلام في أثناء اللعب!

نعم، فقد حملتُ الحطب من أجل أحلام التي رحلت ولم تعُدْ! كأنّها ماتت لأنَّ أهلها يحبّون المال!

قالت عجوزٌ: (قبروها في الحياة!... الطمّاعون، يا ضيعان شبابها!).

وأضافت أخرى: كانت كالوردة، وقصفوهــا ... غرّبوها، وقتلوا أحلامها بالعيش في بلدها، وبين أهلها!

ردّت الأولى: وبماذا تستطيع أن تحلم ابنة الطمّاعين؟!

وسألتُ نفسي: حقّاً، بماذا كانت تحلم أحلام؟!

كانــت تثابر على دروسهــا، على الرغم من انشغالها بمساعدة أمهــا في شؤون البيت، هل كانــت تحلم بإكمال تعليمها، لتصبح معلّمــةً أو طبيبة؟ أو أنها حلمت بالبيت والزوج والأولاد؟ هل حلمت بي، أو بعلاء الدين، أو بغيرنا؟! وأين هي اليوم، وبماذا تحلم الآن؟! ماذا حقّقت من أحلامهــا، وماذا انقطع من تلك الأحلام؟! وهل مازالت تحلم، أم أنها اقتنعتْ – كغيرها– بأنَّ الأحلام تصبح أوهاماً، أو كوابيس، أو خيباتٍ أو هزائم؟!

وأنــتَ –يا علاء الدين– يا سيّد المصباح الذي بلا قعر، سيّد الأحلام والأوهام، أين أنت؟! ولماذا لا تعود؟! ألم تعد تريد بيتاً كبيت المختار؟!

يــا سيدي خذ النجمــة الأقرب إلى هذا القمــر البعيد الذي يمضــي دون اكتراث، بعيداً كالحلم... كلما ظنناه أقرب، صار أبعد فأبعد!

والــداك توفّيا وأنت في غربتــكَ، ومازلتَ تُرسل لهما التحيّات عبر المحطات، والنقود التي ترسلهــا يأخذها إخوتــك، الذين كبروا، وتزوجــوا وأنجبوا، غير مكترثين بــأيّ شقاء، ترسل ما تجني، لتصنع لهم به – من غربتك – حلماً، وواقعاً! أتذكر يا علاء الدين يوم رحلت أحلام؟! بــل يوم رحّلوهــا (صندوق بضاعة...) كيف هربنا معاً من المدرســة، وركضنا طويلاً، في كلِّ الاتجاهات، إلى أن نال منّا التعب، فجلسنا على صخرةٍ متلاصقين ظهراً لظهر، لم نكن ندري ماذا نفعل؟!

كنّا مجرّد أولاد في الصف التاسع، ولا أحد يأبه بأحلامنا، بل لا أحد يعرف حلمنا المشترك بأحلام إلّا نحن! فجأةً قلتَ لي:

تعال نطمــرُ هذا الحلم فيصبح سرّاً. وحفرنا في كعب الصخرة، بدموعنا وأظافرنا حفرةً صغيرةً، مددنا أيدينا إلى قلوبنا وكأننا ننبشها من صدورنا، لنضعها في ذلك القبر الصغير! ثــمَّ أهلنا فوقها التراب، وأقسمنــا على كتمان الحلم. تعانقنا وبكينا، حتى بلّلت دموعنا تراب ذلــك القبر! وفي المساء صعدنــا إلى السطح لننام، كانت ليلةً مُحاقــاً لا قمر فيها، وكانت النجوم تومض بغرابةٍ، وكأنّها دموع ملائكة! حينها قُلتَ لي:

أنا لم أعُدْ أريد نجوماً، خذها كلها لكَ!

فأجبتك: بل تأخذها أنت، فأنا أيضاً لا أريدها بلا أحلام! أقصد بلا قمر.

وفي الصباح التالي، كانت قطرات الندى تتلألأ على لحافنا تحت أشعة الشمس، لكننا لم نمدَّ إليها أيدينا لنقطفها كعادتنا، ظنّاً منّا أنها نجومنا، وقد نزلتْ إلينا ونحن نائمان!

ذلك اليوم كبرنا كثيراً فهل نهرمُ حقّاً كلما ضاع منّا حلم؟!

ولم نذهب إلى المدرسة يومذاك، فقد صارت بلا أحلام! ودون أن نتفق عُدنا معاً إلى الصخرة، حفرنا حفرةً ثانية إلى جوار حفرة الأمس، وطمرنا فيها سراج علاء الدين الذي بلا قعر! مصباح الأحلام ذاك، ولم نبكِ، لأننا كبرنا على البكاء (كما اعتقدنا)... تعانقنا، ثمَّ جلسنا متلاصقين كعادتنا ظهراً لظهر! قلتُ لك:

مهما جرى، ومهما ضاع منّي، على الأقل تبقى أنت لي!

لكنّك لم تبقَ، بل سافرت بعد بضع سنواتٍ للعمل، تاركاً وراءك كلَّ شيء، إلّا انكساراتك.

يوم رحيلك -يا صديقي- ذهبتُ بمفردي إلى الصخرة، بكيتُ عندها على الرغم من أنّي كبير- رأيت أقحوانةً صغيرةً عليها ثلاث زهرات، نبتت في كعب الصخرة، على قبر قلوبنا وأسرارنا، في حين كان سطح قبر الأحلام قاحلاً! جلستُ هناك وحيداً، أحلم، بل أتخيّلُ أنَّ دفء ظهرك يسند ظهري، ويومها لم أدفن هناك شيئاً، لأنني مازلتُ أحلم أنك ستعود، ولستُ أدري لماذا نبشتُ مصباحك، كان كما هو، مجرّد سراج عتيق بلا قعر، حملته ومشيت، شارد الذهن حتّى نبّهني سؤال صبيٍّ صغير:

- ماذا تحمل بيدك يا عم؟!

- ابتسمتُ له، وقلت: مصباح علاء الدين...

- حقّاً؟!

صرخ الصبيُّ بحبور: وهل يحقّق الأحلام؟! أنا اسمي علاء الدين، فهل تعطيني إياه؟

ناولته المصباح، وأنا أقول: خذه، ولكن حذار من تصديقه؛ فهو بلا قعر!

❀ ❀ ❀

حوادث الباروكة

الحسن بنمونة ✿

١

لم يكن يدور بخلده يوماً ما أنه سيكون بائع باروكة في أهم شارع بالدار البيضاء. يبيع شعوراً لستر عيوب الرأس. حدث هذا الأمر مصادفة، وهو لا يتذكر كيف وقع ولِمَ وقع. اشترى ملابس جديدة من كراج علال، وصادف بائع باروكة واحدة بلون أشقر فابتاعها، ثم علَّق الأشياء بمسامير صغيرة في الدكان الذي ورثه عن أبٍ كان على شفا حفرة للسقوط إلى الحضيض. كان تاجراً لقطع السيارات ومغرماً بالشراب والنساء. مات قبل أن يبيع الدكان، وعلى هذا الأساس هو اليوم يَكنُّ التقدير والاحترام لأبيه.

لا علينا.

٢

دخلت امرأة الدكان، وتفحصت الملابس الداخلية والخارجية ثم وقع بصرها على الباروكة.

✿ كاتب مغربي.

- العمل الفني: الفنان رامي الأشهب.

- هذه، كم ثمنها؟
- هي باروكة.
- كنت أملك واحدة. أقرضتها صديقتي لتتباهى بشعرها في عرس ولكنها ادعت أنها ضاعت منها.
- لم تكن تريد أن تتخلّى عنها.
- ذاك كان رأيي. خمنت أنها ربما خجلت من أن تشتري واحدة فسرقتها بذكاء.
- لا علينا، أنا أهديها لك مجاناً.

لم يكن صاحبنا غبياً كما تظنون. كان يعرف أنه كي تبيع مئة سلعة لا بد أن تضحي بواحدة منها، وقد رأى بأم عينيه كيف أن نساء كثيرات زرن متجره وادعين أنهن يرغبن في شراء باروكات على سبيل وضعها فوق شعورهن لإضفاء مسحة من السحر عليها.

فهم صاحبنا أنهن يخجلن من القول إنهن يرغبن في وضعها فوق رؤوسهن لأنها إما خالية من الشعور أو مصابة بعاهة.

يحتاج الجمال دوماً إلى التضحية، وهذا يقتضي ثمناً باهظاً.

٣

باع مئة باروكة شعر في شهر واحد، وقد عد هذا نجاحاً لا يقدَّر بثمن. اشترى بعدها مئتين وثلاثمئة، ورأى كيف صارت بضاعته تنفد من الدكان، حتى إن أصحاب الدكاكين المجاورة كانوا لا ينون يصرحون بعضهم لبعض عن مكنونات صدورهم قائلين مثلاً إنه زير نساء كأبيه. لم يكن هذا مما يشغل بال صاحبنا. أراد أن يرتقي السلم الذي وقف فيه أبوه عند الدرج الأول واستسلم لنزوات عابرة. كان سعيداً وحذراً في الوقت عينه.

٤

يعبق الدكان دوماً برائحة عطر مستورد من باريس أهدته إياه امرأة تعيش هناك. كانت الهدية تعبيراً عن عربون رد الجميل، لأن الباروكة التي ابتاعتها منه خلبت لب خليلها الذي صار فيما بعد زوجاً لها. قالت له:

- تقبّل مني هذه الهدية بصدر رحب، لأنك جعلتني أحيا من جديد.

لم يفهم صاحبنا أي معنى مما تقصد، وإن عدَّ ذلك من بركات الباروكات فحسب. استلمها مبتسماً لشيء كان يرى فيه لعبة أطفال يتقاذفونها بأرجلهم. اليوم تعد الباروكة منقذاً من براثن اليأس. كان دائماً يقول في نفسه: لا تستسلم لنزوات البدن العابرة، وينظر إلى صورة أبيه التي وضعها على المكتب ويوجه إليه خطاباً:

- لم تكن تعلم، أبي، أن الدار البيضاء امرأة صلعاء في حاجة إلى باروكة لتستر بها عيبها.

٥

بعد خمس سنوات من الاستيراد والبيع تبين لصاحبنا أنه استطاع أن يستر رؤوس نساء الدار البيضاء العليلة. كان يغمرها بالعطف والاهتمام الذي افتقدته زمناً طويلاً في التفكير المضني، ورسم الخطط، وضرب الأخماس في الأسداس. كان التفكير متعباً لدرجة أنه خلق شعوراً بالذنب. ولا شك أن النساء عندما يشعرن بالذنب فهن يدخلن مساراً غريباً، مقفراً لا تتخلله أماكن استراحة تضمن لك الأكل وملء خزان السيارة بالبنزين. يدخلن النفق ولا يدرين بعد ثوان شيئاً عن المدخل الذي ولجن منه إلى الداخل. فهمتم قصدي أيها السادة والسيدات. تبيَّن لصاحبنا أنه فعل خيراً فيهن. جلب لهن السعادة الزوجية وخط لهن مساراً جديداً كن راغبات فيه بعد أن حلَّت بهن لعنة من لعنات الزمان.



٦

امتلأ الدكان بنساء من طبقات مختلفة؛ من الطبقات الدنيا والعليا. كان يجمعهن هَمٌّ واحد هو أن يجدن باروكة تلائم استدارة رؤوسهن لتضفي عليهن

بهاء وجمالاً فاتناً. لم يكن كلهن من النساء العفيفات اللواتي يردن أن يشددن أزواجهن إليهن حتى لا يستبد بهم الشعور بالوحدة والغباء لأنهم يضيعون أوقاتاً سامية مع نساء بلا شعور. هناك نساء يؤدين أدوار خليلات أو صديقات بالمعنى المعاصر لفن الصداقة والخل. هن كذلك يحتجن إلى باروكات لطمس معالم القبح من رؤوس صلعاء أو منتوفة أو منفرة. كنَّ يؤمن أن الحب أو العشق الحرام يشده الجمال والزخرفة. كان هو خلف مكتبه يخط مقاسات في سجل أو يتظاهر أنه يزن الرأس وهو يتفحَّصه ببصره. لم يكن الأمر يدعو إلى مثل هذه المظاهر الكاذبة. يكفي أن يجلب لأي منهن باروكة أو ثلاثاً لتضعها فوق رأسها وترى إن كان المقاس ملائماً أم لا.

فرغ الدكان من الباروكات، عندها تيقن أنه صار ملك الأقنعة الكاذبة. وفي الشارع تجمع متطفلون يسعون إلى استكناه قيمة المكان الذي بلغت شهرته الآفاق.

أن تكون في الدار البيضاء بائع باروكة يعني أنك طبيب أمراض نساء يائسات.

٧

سطت امرأتان على بنك بالشارع الرئيسي، وهذا فعل لم يألفه الناس في هذه المدينة. امرأتان دخلتا البنك بشعر مستعار، بلون أشقر صارخ ونظارتين سوداوين. المشهد شبيه بما يقع في الأفلام الأمريكية، حتى إن المحقق أغرق في الضحك وهو يستمع إلى شاهد عيان يروي له ما حدث، مضيفاً إلى الحدث طبعاً بعض النكهات والتفاصيل المغرضة. لم يتركن أي أثر يذكر لاقتفاء لامح أو علامات. سرقن خمسة ملايين سنتيم وخرجن ظافرات منتصرات.

بعد ثلاثة أيام تسطو امرأة بباروكة سوداء ونظارتين سوداوين على بنك بشارع متفرع عن الشارع الرئيسي.

أغرق المحقق في الضحك وهو يستمع إلى شاهد عيان يروي الحدث، ويضيف إليه مستملحات من قبيل أن المرأة أشعلت سيجارة ونفثت الدخان في وجه البنكي قبل أن تطالبه بمدها بالمال وقد أشهرت مسدساً. خاف المسكين على حياته فأعطاها ما طلبت. سرقت ستة ملايين سنتيم وذابت في الهواء.

٨

كان المحقق قد قرأ بعض الكتب الحربية، ومقالات عن الجاسوسية والسرقات العالمية التي نفذها الكبار والصغار، النساء والرجال.

تقول مخطوطة:

(إن الرجل يسرق إما لأنه يعاني شعوراً بتدني قيمة رجولته، وإمّا لأنه مدمن على القمار والشراب، وإما لأنه يمر بمصاعب مالية.

المرأة إذا غضبت على الرجل سرقت بنكاً حتى تبين له أنها قادرة على خصيه من الناحية المالية.

ربما هي في حاجة إلى مهدئات عاطفية كالزواج أو الخطوبة أو التقبيل والكلمات الرنانة. ولأنّها تركت وحيدة في بحر هائج، فلا شك أن أول ما يطرق بالها هو أن تضرب الرجل البرجوازي في عقر داره، وهذه الدار طبعاً هي البنك.

لسرقة بنك لا يحتاج التخفي إلا لباروكة تستر معالم الوجه المألوف).

٩

لم تخلف هذه الحوادث إلا موجات من الضحك الهستيري في المدينة.

نساء يسرقن بنوكاً بباروكات. بدا هذا لكثير من الناس دعاية إعلامية تسبق إعلان طوارئ خاصة، ولكن بعض المثقفين ارتأوا أن الأمر يخص انفتاح البلد على الاستثمارات الأجنبية؛ فهذه الحوادث لا تعدو تمثيل مشاهد سرقة بنوك في وضح النهار لأفلام مخرجين يشار إليهم بالبنان وقد تعرض أحداثها في الصيف.

وعلى أي حال، فبائع الباروكة لا يني يحدّث الزوار عن الجهد الذي يبذله في إسعاد نساء المدينة. ولأنه يفعل هذا لأجل النساء، فهو طبعاً يقدم خدمات لجلب الفرح الساذج للأزواج.

❁ ❁ ❁

في عتمة ليل

أدريانا إبراهيم

فـي عتمة الليل وفي العراء أستلقي بلباسي العسكري الكامل فوق إسفنجتي، أتوسّد حقيبة السفـر وألتحف السمـاء. نظراتي تائهة بين النجوم، أبحث منـذ ساعات عن ملك النوم علّه يهبط عليَّ، أتحسس بين فينة وأخرى ورقةَ إذنِ المغادرة في جيب سترتي، مستغرباً مفعولها، مـا إنْ حصلت عليها حتى سرى في عروق جسدي المنهـك نسغ من النشاط والقوة والشبع، أطار النوم من عينيّ، وأطاح بتعب وجوع تسع ساعات من العمل المتواصل في إنقاذ الجرحى وتضميـد جراحهم، وإجراء العمليـات الإسعافية. هذه الورقة السحريـة لا أستبدلها بكنوز الأرض، كلما تحسستها ينتفض شيء في داخلي.

لا أصدق أنه لم يمضِ على قدومي إلى قطعتي العسكرية سوى ستة شهور، أشعر وكأنها ستة قـرون أضيفت إلى عمري، ستة شهور لاشيء فيها سـوى الدماء والصراخ وأصوات القذائف ورائحـة البـارود والموت، الموت الذي يمر عـن يميني ويساري، أمامـي وخلفي أتوقعه كل لحظة.

كانـت إحدى أمنياتي أن أنام وبحر النجـوم ممتدٌّ أمام عينيّ، لكنه لم يخطر في بالي أنني سأحقق ذلك يوماً في مشفى ميداني في ساحة حرب.

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أَبْعُدُ عن مدينتي تسعين كيلو متراً فحسب، لكنني أشعر كما لو أننا في مجرة أخرى، أَبْعُدُ عنها آلاف السنين الضوئية، معزولون عن كل ما في العالم الخارجي من حياة ومن اتصالات.

فـي هذه الفسحـة الزمنية تتقافز وجوه أحبتي أمام عينيّ، طوال وجودي هنا لم يكن لدي وقـت للتفكير بهم، عندما أسرق لحظـاتٍ للراحة، أغرق على الفور في نوم عميق. أستحضر الآن تفاصيل تلك الوجوه الغالية، أعانقهم فرداً فرداً، كم يضنيني الشوق إليهم، إلى أصواتهم وضحكاتهم، إلى مدينتي الغالية، بشوارعها وأزقتها، أفرد ذراعي وأطير، أحضن الكون هناك، السماء، الأرض، البنايات، الناس، حتى أشجار الشوارع والمحلات.

لا أدري إن كان النـوم قد هرب من عينيّ فعلاً، أم كنت أنا من أهرب من طريقه، خشية أن تفوتني سيارة المبيت العسكرية الوحيدة، فتضيع فرصتي إلى موعد آخر.

أحمـد الله أن الليل قد انجلى، وهـا أنا بعد دقائق أحقق أمنيتـي الثانية بأن أشهد ولادة الشمس من رحم الأرض. بالنسبة إلي الشمس دائماً فوق البنايات العالية في مدينتي، أما أن تكـون خلف التلال لحظة الولادة فهو أمر على بساطته لـم أره في حياتي، وفي هذا المكان بعـد كل هـذه الشهور. الآن حتى أتيحت لي هذه الفرصة، عندمـا أتى أخيراً من يرفع قليلاً عن كاهلي.

هـا هي تطل، أشعر بأنّها تنبثق من قلبي، كم تبدو لطيفة! أحقاً هذه نفسها التي نراها في كبد السماء تلسعنا بسياطها الحارة دون رحمة!

أسـرق النظرات أخاف أن أطيـل النظر، أشعر بأنَّ كل ما في الكـون يعيش لحظة صمت، لا أصوات رصاص أو قذائف، حتى الجلبة في المخيم قد توقفت، يا لروعة المشهد، كل هذا الجمال حولنا يتكرر كل يوم ونحن في ساحة قتال!

وأخيراً ها هو هدير محرك سيارة المبيت يدك أسوار العزلة، ليقلّني إلى الحياة من جديد. أحمـل حقيبتي وأهرع صوب السيارة، يفاجئنـي انقباضٌ في قلبي، ألتفت إلى المخيم، أشعر أنّـه يناديني، الجرحى، الجنود في ساحة المعركة... أعاهـده أن أعود سريعاً، يأتيني صوت السائق: هيا أسرع.

أصعـد مع عددٍ قليل مـن رفاقي، ألقي التحية، نتبادل بضع عبـارات وأغرق في مقعدي. أتفقـد وجهي في مـرآة السيارة، تذهلني عيناي الغائرتان وشحـوب وجهي ومنظري بلحيتي الطويلة، أكاد لا أعرف نفسي، فهل سيعرفونني؟!

اشتقـت لمنظر الأشياء خارج السيارة وهي تعدو منخطفة إلى الخلف. هيّا أيتها المسافات انطوي سريعاً، أيها السائق زِد السرعة من فضلك، أشعر بقوة في قدميّ وقلبي، تدفعني لأنزل من السيارة، أسبقها وأسبق الريح والصوت والضوء، وأقطع المسافة في لحظات.

هـا هي البيـوت، ها نحن نعود إلى مجرتنا، أحدهم يجـري مكالمة على هاتفه المحمول، أتذكّر جوالي الذي فرغت بطاريته منذ شهور، وبقي شاهداً وحيداً على حضارة الاتصالات.

ها هي امرأة تنشر ملابس طفلة صغيرة على حبل الغسيل، يا إلهي قلبي يرتمي بين قدمي، ابنتي الغالية سلمى، تركتها بعمر تسعة شهور، ترى كيف أصبح شكلها؟ أيّ كلمات تعلمتها في غيابي؟ كيف خَطَت خطوتها الأولى؟ كم سنّاً بزغ في فمها؟! الدموع في عيني تشوش الرؤية، أمسحها بظهر كفي، أشعر بأنني أتلاشى حنيناً وشوقاً، وأمتلئ بابتسامتها وصوت مناغاتها.

أنــزل في مركز انطلاق السيــارات، أشعر بأنني كأهل الكهف عندمــا خرجوا من مغارتهم، يدهشنــي كل شيء، زماميــر السيارات، أصوات الباعة، ازدحــام الناس الأصحاء يمشون على أقدامهم بملابس مدنية، يحملون أغراضهم بأيديهم. لا دماء، ولا صراخ، ولا أصوات رصاص، ولا رائحــة بارود، ولا أثر لشبــح الموت هنا، ما أجمل الحياة... ما أجملهــا! هذه هي الجنة، هذا هو النعيــم. عيناي لا تشبعان مــن أدنى تفصيل، سألتهم الحيــاة في هذه الإجــازة. أصعد السيارة التــي ستقلني إلــى الحي الذي أقطن، أنا الراكب الأول، النوافذ المغلقة تعطــي صمتــاً عجيباً يصــم أذناي. الــركاب يصعــدون بملابــس أنيقة ونظيفة، تجلس بجانبي فتاة بجدائل سوداء طويلة تحمل حقيبة مدرسية. رائحة العطر تفوح، آخذ نفساً عميقاً، أشعــر بانتعاش عميق يطال روحي، لكنني ألاحظ أن الوجوه كئيبة، أرى غبار الحرب وقد تناثر فوق الوجوه، وأرى الخوف معششاً في العيون.



امتلأت المقاعد وانطلقت السيارة، أعترف أن منظر الدماء في مخيلتي يلقي ظلاً أحمر على كل شيء، أصوات القذائف والصواريخ تطغى على هدير المحرك، رائحة البارود تبتلع بقايا العطر، أشعر بشيء ثقيل يضغط على صدري، أنفض رأسي علَّ الرؤية تتحسَّن، أخرج علبة السجائر، أشعل واحدة وأنفس دخان البارود الأحمر. تلتفت إلي فتاة الجدائل، ينفلت من عينيها شعاع غضب تحاول كبحه، تقول: أرجو أن تطفئ السيجارة، يزعجني دخان السجائر، كما أن التدخين ممنوع.

أنظر إليها ملياً والمشفى الميداني يرتسم بكل أحداثه في المسافة بين عينيّ وعينيها، يقهقه صوت في داخلي، أتمنى لو كنت قادراً فعلاً أن أقهقه. أشعر بأنَّ هذه أكبر مفارقة مرت في حياتي. أبتسم لها، أدير رأسي نحو النافذة، أفتحها وألقي السيجارة المزعجة. آه أيتها الصغيرة ذات الجدائل الطويلة، ألا يشفع لي لباسي العسكريّ؟! ألا يشفع لي البؤس المستوطن في قلبي؟! السيجارة مزعجة أيتها الدماء المهدورة، أيتها الأعضاء المبتورة، أيتها الأحشاء الممزقة. دخان السجائر مزعج يا رائحة البارود، يا غبار الانفجارات، يا صراخ الجرحى في اللّيالي التي تمر دون نوم. إلى الجحيم أيتها السيجارة المزعجة.

أعود إلى وجوه أحبتي، أثبتها على مسرح مخيلتي، أقفل على صور الحرب ورائحتها في صندوق، وألقي بالمفتاح في سراديب الذاكرة. أعانق زوجتي، أحضن أمي وأبي وإخوتي، أحمل طفلتي، أقذفها في الهواء ثم ألتقطها، أعيد ذلك مراراً، في كل مرة أقذفها إلى نقطة أعلى وأعلى... وينتشلني السائق من خيالي: الموقف الأخير.

أحمل حقيبتي وأنزل. تحضنني مدينتي ببناياتها التي ما تزال شامخة، وأرصفتها الدافئة ووجوه الناس الأليفة. أحمد الله أن القذائف والصورايخ لم تطلها، وأبتهل إليه أن تبقى بعيدة عنها. أقرفص، ألامس بكفي الرصيف مسلماً عليه، تداعب رائحة أشجار الكينا أوتار روحي، أعبئ صدري بها وأمشي صوب بنايتنا، أفاجأ أن محل العرائس على زاوية الشارع مازال مشرِّعاً أبوابه للحياة يعرض فساتين الزفاف، مازال للفرح موطئ قدم على هذا الكوكب، ما تزال الفساتين بانتظار الأفراح. أيتها الحرب القذرة لملمي أذيالك وارحلي من ديارنا إلى غير رجعة، وافرد أيها الفرح جناحيك، وتبختري أيتها الفساتين البيضاء فوق أجساد العرائس، وعهداً يا مدينتي سأعود سريعاً لتبقي دائماً شامخة في حضن الأمان، وأدلف في مدخل بنايتنا.

❁ ❁ ❁

إلهـام

إسحاق بابل[1]
ترجمة: فريد اسمندر

أردتُ أن أنام وكنت في مزاج سيّئ. في تلك الأثناء جاءني «ميشكا» ليقرأ علي القصة التي كتبها. «أَغلقْ الباب» قال لي وأخرج من جيبه زجاجة نبيذ:

«هذا يومـي. أنهيت قصتي. أعتقد بأنهـا الإنجاز الحقيقي. دعنا نشـرب بهذه المناسبة يا صديقي». كان وجهه شاحباً ومبللاً بالعرق.

قـال: «الناس الذين لا يقولون بوجود شيء كالسعادة هم حمقى. السعادة إلهام. بقيت أكتب طـوال الليل ولم ألحظ انبلاج الفجر؛ بعد ذلك تجوّلت فـي البلدة. البلدة رائعة في الصباح الباكر، الندى والصمت وقلة الناس. كل شيء نقيٌّ كالبلور وبالإمكان رؤية اقتراب النهار بارداً وأزرق لطيفـاً وطيفيّـاً. دعنا نشرب يا صديقي. أنا واثق كما تكـون الثقة: القصة هي نقطة تحوّل في حياتي».

صـبّ «ميشكا» لنفسه قليـلاً من النبيذ وشربه. ارتعشت أصابعـه. كانت يده جميلة بشكل مدهش، رقيقة بيضاء وملساء وأصابعها طويلة مستدقة.

- العمل الفني: الفنان علي الكفري.

تابــع قائلاً: «أنت تعلم، يجب أن أقدم هذه القصــة للنشر. سوف يقبلون بها في أي مكان. إنهم يقومون بطبع بعض التفاهات في هذه الأيام. الشيء الرئيسي هو أن تمتلك بعض النفوذ. سوف يرتّب «سوخوتين» كل شيء».

قلت: «يجب أن تعيد النظر فيها مرة أخرى يا «ميشكا»- لا تشطب أي شيء...».

قاطعني قائــلاً: «فليذهب الأمر إلى الجحيم. هناك المزيد من الوقت للقيام بذلك - أنت تعلــم، لقد اكتفــوا بالسخرية مني في الوطن. يضحك جيداً مــن يضحك أخيراً. أنا لا أقول شيئاً. في غضون سنة سنرى ما سوف نراه. سوف يأتون زاحفين...».

شارفت الزجاجة على الانتهاء.

«توقفّ عن الشراب يا «ميشكا»...».

أجاب: «أنا بحاجــة إلى بعض الحيوية. في الليلة الماضية دخّنت أربعين سيجارة». عندما أخــرج مــن جيبه كراسة سميكة راودتنــي فكرة سؤاله أن يترك الكراســة عندي. نظرت إلى جبينــه الشاحب وقــد انتفخ فيه عِرْق. كانت ربطــة عنقه بائسة ملتوية. قلــت: «حسنٌ جداً يا «تولستوي»... تذكرني عندما تكتب سيرة حياتك...».



ابتســم «ميشــكا» وقــال: «أيهــا الوغد، أنت لا تقــدّر صداقتي على الإطلاق».

جلســت بارتيــاح فــي حيــن مال «ميشــكا» فوق كرّاسته. كانت الغرفة هادئة ونصف معتمة.

قال: «في هذه القصة حاولت القيام بشيء جديد، شيء تغلّفه ضبابية من السحر وقليل من الغموض والإشارات الضمنية- أنا أشعر بالاشمئزاز تماماً من فظاظة حياتنا».

قلت: «توقف عــن التمهيد وباشر القراءة!».

بدأ القراءة. أصغيت بانتباه. لم يكن الأمر سهلاً: كانت القصة رديئة ومملّة تدور أحداثها حول بائع في متجر وقع في حب راقصة باليه، وكان يمضي جلّ وقته متسكعاً تحت نافذتها، ثم ترحل الفتاة ويشعر البائع بالاستياء لأن حلمه بالحب قد فشل وضاع.

سرعان ما توقفت عن الإصغاء. كانت الكلمات في القصة مملة ومكررة إلى حد الابتذال وملساء كنضددٍ خشبية مصقولة. لم يحدث ما هو متوقع: أي نوع من البشر كان ذلك البائع وتلك الفتاة. نظرت إلى «ميشكا». كانت عيناه متّقدتين، وكان يسحق أعقاب سجائره بين أصابعه عند انطفائها. ازدادت قسمات وجهه تألقاً بزخم بطيء مطّرد مملوء بفورةٍ من الإبداعية المشوبة بثقة مرحة بالنفس.

قرأ ببطء معذِّب، وعندما انتهى أعادَ الكراسة إلى جيبه بطريقة خرقاء ونظر إليّ.

قلت ببطء: «ميشكا، أنت تعرف بأن هذا يحتاج إلى بعض التفكير... الفكرة بحد ذاتها أصلية وفيها رقة، لكن طريقة كتابتك لها تحتاج إلى بعض الصقل...».

- «عملت على هذا الأمر طوال ثلاث سنوات. بالطبع هناك بعض الأجزاء الخشنة، لكن إذا ما أخذنا الأمر ككل...».

طرأ له شيء ما. ارتعشت شفته. حدّب كتفيه واستغرق وقتاً طويلاً في إشعال سيجارته.

قلت: «ميشكا، ما كتبته رائع، إنما ينقصك قليل من التقنية، لكن هذا سيأتي لاحقاً. يا إلهي، أيّ فكرة تلك التي في رأسك...».

استدار ونظر إليّ. كانت عيناه أشبه بعيني طفل؛ عينان مُحبّتان لامعتان وسعيدتان.

قال: «دعنا نخرج... الجو خانق هنا».

كانت الشوارع مظلمة وهادئة. ضغط ميشكا على يدي بشدة وقال: «أنا واثق كما تكون الثقة بأنني أملك الموهبة. والدي يريدني أن أجد عملاً. في الخريف ستكون «بتروغراد» وجهتي حيث سيقوم «سوخوتين» بترتيب كل شيء».

توقف وأشعل سيجارة من السيجارة السابقة ثم تابع بهدوء: «أشعر أحياناً بأن إلهاماً كهذا يسبب لي الأذى، عندها أعلم بأن ما أقوم به هو الصحيح. نومي سيئ، كوابيس طوال الوقت مع إحساس بالتعاسة. أتقلّب في فراشي ثلاث ساعات قبل أن أغفو. وفي الصباح ينتابني

صداع مترافق بشعور رهيب من الألم. أنا أكتب في أثناء الليل فحسب عندما لا يكون أحد بجواري والهدوء يسود إذْ ذاك أشتعلُ باللهفة والانفعال.

«دوستويفسكي» يكتب ليلاً ويشرب الشاي قرب إناء السماور، أما أنا فلدي سجايري. عليك أن ترى الدخان في غرفتي».

وصلنا إلى منزل ميشكا. أضاء مصباح الشارع على وجهه. كان وجهاً نحيلاً شاحباً وسعيداً.

قال وهو يضغط على يدي بقوة أكبر: «اللعنة... سوف نريهم...».

قلت: «مع ذلك يا ميشكا على الإنسان أن يعمل...».

أجاب بابتسامة عريضة متعاطفة: «صديقي ساشكا، أنا لست غبياً وأعلم ما هو المهم. لا تقلق... أنا لست راضياً عن إنجازاتي. تعال غداً وسوف نلقي نظرة أخرى».

قلت: «حسنٌ، سآتي».

تبادلنا تحية الوداع ومضيت إلى منزلي. كان كل شيء يبعث على الكآبة.

❁ ❁ ❁

الهوامش

(١)- «إسحاق بابل»: قصصيٌّ روسي ولد في «أوديسا» عام (١٨٩٤م). انتقل إلى «سانت بطرسبورغ» سنة (١٩١٥م) إذ عاش في فقر مدقع، لكنه لقي مساعدة من «مكسيم غوركي» الذي نشر له اثنتين من قصصه. في أثناء الثورة والحرب الأهلية تنقّل بين سلسلة من الوظائف الثانوية ثم التحق بالجيش الأحمر وحارب في صفوف سلاح الفرسان. لاقت قصصه الأولى نجاحاً سريعاً مما شجعه على كتابة مزيدٍ من القصص والمسرحيات والنصوص السينمائية. وفي عام (١٩٣٩م) أُلقي القبض عليه، ويُعتقد بأنه مات مقتولاً سنة (١٩٤١م).

مصدر الترجمة

- Penguin Modern stories.

❁ ❁ ❁

الإنسان بين الشباب والشيخوخة

د. محمد نظام

أن تكون الآجال محددة ومقدّرة، والأجساد فانية لا محال، فذلك لا يمنع أبداً من أن يأخذ الإنسان بالأسباب التي تفضي به إلى حياة مفعمة بالصحة الجيدة واللياقة العالية والشباب الدائم والعطاء المتجدد. ولعلّ أكثر ما حيّر العلم والعلماء هم أولئك المعمّرون الأصحاء، الذين يحملون بداخلهم أسرار العمر المديد الخالي من أمراض الشيخوخة.

إنّ أكبر معمّر في العصر الحديث له تاريخ ميلاد مسجل وموثّق، «جين كالمنت» الفرنسية من آرلس التي ولدت عام (١٨٧٥م) وتوفيت عام (١٩٩٧م)، وكانت تتمتع بكامل صحتها الجسدية والعقلية حتى أواخر أيام حياتها، وقد كانت في سن التسعين عندما باعت بيتها بالتقسيط لكاتب العدل (موثق العقود)، إذ خمّن هذا القانوني أنّ هذه العجوز ستموت قريباً، ففرض على نفسه في عقد الشراء أن يدفع لها شهرياً مبلغاً من المال ما دامت على قيد الحياة. والذي حدث أن الرجل توفي قبل العجوز «كالمنت»، وكان على ورثته أن يتابعوا دفع الأقساط لسنوات طويلة، كما بدا واضحاً مدى فطنة تلك المعمرة الفرنسية ومرحها عندما سألها أحد الصحفيين في أثناء تهنئتها بعيد ميلادها التاسع عشر بعد المئة، فيما إذا كان سيتمكن من مقابلتها وتهنئتها في العام القادم، فأجابته بذكاءٍ لمّاح: «لِمَ لا؟! يبدو لي أنك ما زلتَ قوي البنية ويمكنك أن تصمد حتى ذلك الحين».

وهـا هو رائد الفضاء «جون غلين» قد صعـد في المركبة ودار حول الأرض وهو في سن السابعـة والسبعين، وأمّا الرسام الشهير «بيكاسو»، فقد رسم أشهر لوحاته التي لا تقدّر اليوم بثمن وهو في عمر يناهز التسعين.

الطاقة وقود الحياة

لطالما أراد البشر أن يعرفوا سر الخلود في هذه الدنيا، وقد شغل البحث عن ينبوع الحياة أجيـالاً من العلماء منذ أقدم العصور وإلى القـرن الماضي، إذ نُشرت ونوقشت مجموعة من النظريات حول أسباب الشيخوخة، مما ساعد على وضع منهاج متكامل للحياة يعطي الفرصة للتعمير الطويل مع الحفاظ على الصحة الجيدة.

وكـي نتعرف إلى المسار الطبيعي لعمليـة الشيخوخة ونسير بنمط الحياة المناسب لا بدّ من التعرف إلى أهم هذه النظريات.

نظرية طاقة الحياة:

يَعدُّ الفنييون أن عدد ساعات الطيران هي التي تعبر عن حالة الطائرة وليس سنة الصنع، كمـا أنهم يحـددون عمر الأجهزة التكنولوجيـة من خلال ما تتعرض له مـن إجهاد أو عدد ساعـات عملهـا وليس حسب تاريخ صنعها. وحسب نظرية طاقـة الحياة فكل كائن حي يبدأ حياتـه برصيد محدد من الطاقة، التي يمكـن احتسابها بالحريرات، إذ نستجر طاقتنا طوال الحيـاة من هذا المصدر ومصادر أخرى كالغذاء والهواء، وهـذا الرصيد يستهلك عاجلاً أم آجـلاً «حسب نمط العيشـ»، وعندما يُستَنفَد تنتهي الحياة. ومـن هنا يمكن القول: إن طول العمـر وصحته وحيويته، وإبطاء عمليات الهرم والشيخوخـة، متعلق بالدرجة الأولى بمقدار مـا نوفّـر أو ندّخر من طاقتنـا الشخصية، وذلك بحسب نمط الحيـاة التي نعيش من جهة، والمؤثرات الخارجية المختلفة من جهة أخرى.

الطاقة وعمر النحل:

أثبتـت الدراسـات والاختبارات أنّ لـدى النحلات العاملات طاقة تكفـي لطيران (٦٠٠) كيلومتر، إذ تموت النحلة العاملة عندما تقطع هذه المسافة، وتبين من المشاهدات أن النحلات الكسالـى - التي تقطع هذه المسافة ببطء شديد- تعمّر أطول بكثير من النحلات النشيطات جـداً - التـي تقضي طوال يومها بجمـع العسل دون توقف- كما يلاحـظ أن عمر النحلات العامـلات يطول تبعاً للطاقـة التي توفرها في أشهر المطر أو الطقس السيئ إذ لا تخرج إلى

العمل، ومن هنا نجد أن ملكة النحل التي تجلس في خليتها بكل خمول واتكالية على النحلات العاملات، قد مكّنها تكاسلها من العيش لخمس سنوات أو أكثر، في حين تستهلك النحلات العاملات طاقة حياتها كلها بنشاطها الدؤوب في ثلاثة إلى ستة أشهر ثم تقضي.

لصوص وقناصو الطاقة في كل مكان:

ذكرنا أن استهلاك الطاقة مرتبط بنمط الحياة التي نعيش، إذ نتعرض يومياً لهجمات وسهام لصوص الطاقة، نذكر منهم:

الإجهاد (التوتر النفسي والجسدي): إن التوتر الدائم في محيط العمل أو الوسط الاجتماعي يسبب سلب جزء من الطاقة الجسدية والعاطفية التي تغذّي عملية التفكير، مما يؤدي إلى استحكام حالة الخمول والإرهاق والتعب والإنهاك، كما أن الإجهاد الزائد يسبب التعب ويستهلك من طاقتنا.

التغذية السيئة أو الزائدة: إن تناول الوجبات الدسمة والخلود إلى النوم مباشرة يجعل الجسم منهمكاً في عملية الهضم، الأمر الذي يؤدي إلى إنهاك وإجهاد الجسم أكثر من اللازم، ومن ثمّ يسبب نقصاً في الطاقة.

التعرض للبرد الشديد.

عدم النوم الكافي بشكل مستديم.

الرياضة العنيفة وتمارين اللياقة غير المنضبطة.

التصرفات والمؤثرات المهيجة لعملية الاستقلاب في الجهاز الهضمي.

وفي هذا السياق نذكر أنه كلما تباطأت عملية الاستقلاب انخفض استهلاك الطاقة، ومن ثمّ الحدّ من تسارع عملية الشيخوخة، الأمر الذي ينجم عنه عمر أطول مع صحة جيدة. ولهذا نجد أن حيوانات مثل (الفئران أو عصافير الجنة)، وهي التي تتحرك بسرعة كبيرة ولديها عمليات استقلاب مكثّفة، نجدها لا تعمّر طويلاً، في حين أن الحيوانات البطيئة جداً والبليدة، مثل: (الفيلة، والسلاحف، والتماسيح)، تعمّر أطول بكثير، كما أن (القرود والدببة) وغيرها ممن تعيش في حدائق الحيوان، تعمّر على الغالب ضعف أعمار مثيلاتها التي عليها أن تجري وتتحرك كثيراً خوفاً من الأخطار وسعياً نحو الغذاء وهي حرة طليقة في أحضان الغابات، والأمر نفسه بالنسبة إلى الحيوانات التي تنام معظم يومها أو أن لديها سباتاً شتوياً فإنها تعمّر أكثر بكثير من تلك التي تتمتع بنشاط زائد ولا تنام إلّا قليلاً.

كيف يمكن رفع مستوى الطاقة التي نملكها؟

تتفرع الطاقة التي نملكها إلى طاقة جسدية وعقلية وعاطفية.

الطاقة الجسدية:

وهي مرتبطة بشكل أساسي بنظام التنفس ونظام التغذية والرياضة.

في مجال التنفس: كثيرٌ لا يعرفون الطريقة الصحيحة للتنفس، إذ يستخدمون أقل من ثلث قدرة الرئتين على التنفس، إن برامج تمارين العقل والجسم مثل اليوجا والتأمل والكاراتيه والسباحة ترتكز جميعها على قوة وطريقة التنفس السليمة.

إن إمداد جسمك بأقصى كمية من الأكسجين لا بد أن يكون هدفك الأول وحرصك الأشد لتعيش حياة صحية سليمة، ولتوليد كمية كبيرة من الطاقة. وتجدر الإشارة إلى وجود نوعين أساسيين للتنفس هما التنفس التفريغي والتنفس الخاص لتوليد الطاقة، إذ يمكن مراجعة التمارين والبرامج التفصيلية لكل منهما.

في مجال التغذية: يتدهور مستوى طاقة الإنسان إذا لم يتناول كمية كافية من السوائل أفضلها الماء وعصائر الفاكهة الطازجة، كما أنه من الضروري تناول كثيرٍ من الفاكهة بين الوجبات وإضافة السلطات مع الوجبات.

في مجال الرياضة: السباحة والمشي من الرياضات الممتازة، كما أنّ الاشتراك في نادٍ رياضي سيعرّفك بأشخاص يهتمون بالرياضة، ويعيشون حياة صحية سليمة وهؤلاء سيمدونك بالطاقة التي ستجعلك مقبلاً أكثر على الحياة.

الطاقة العقلية:

إن تحديد الأهداف والعزم على تحقيقها المصدر الأساس للطاقة العقلية، لذا ابدأ من الآن بكتابة أهدافك، وأكّد لنفسك أنك تستطيع تحقيق هذه الأهداف، وبذلك سيرتفع مستوى طاقتك العقلية، دوّن هذه التأكيدات وقم بقراءتها يومياً وستكون النتيجة الحتمية هي الإمداد بالطاقة التي تلزمك.

الطاقة العاطفية:

تعدّ البرامج العقلية الجسدية مثل اليوجا والتأمل من الطرائق الممتازة لزيادة الطاقة العاطفية. كما أن جلوسك في مكان هادئ، وتنفسك بهدوء، وإحساسك بطريقة التنفس هذه،

وشعورك بجسدك يسبح في الهواء، إلى أعلى وإلى أسفل مع حركة تنفسك، كل ذلك سيؤدي إلى فوائد مماثلة من دون تكاليف، وسيشعرك بالهدوء وسيزيد من طاقتك العاطفية.

دراسات وأبحاث

قامت جامعة «هارفارد» بمراقبة سبعمئة شخص على مدى ستين عاماً، ونشرت نتائج أبحاثها واختباراتها في مجلة الطب النفسي الأمريكية التي توصلت إلى أن عمر الإنسان لا يُحدَّد تبعاً لجينته فحسب، بل أولاً وقبل كل شيء تبعاً لظروف حياته الخاصة. وحسب رأي علماء «هارفارد»، فإن النشاطات الرياضية الخفيفة والامتناع عن الكحول والتدخين، والمحافظة على الوزن الخفيف، تعدّ من المؤثرات المؤدّية إلى طول العمر، في حين يسهم الاكتئاب والضغط النفسي بشكل واضح في تقصير العمر. وبعد تحليل طبيعة حياة بعض الذين تخطّوا الثمانين وهم بصحة جيدة ووعي كامل تم التوصل إلى العموميات الآتية:

• لم يمارسوا أعمالاً جسدية قاسية أو مرهقة طوال حياتهم.

• شغلوا أنفسهم طوال حياتهم بالأمور الفكرية، وظلوا على شغفهم وحبّهم للتعلم على الرغم من مراحلهم العمرية المتقدمة.

• كانوا على الغالب من النحيلين أو ممن حافظوا على الوزن الطبيعي.

• كانوا يتجنبون التوتر النفسي، وعاشوا حياتهم براحة وطمأنينة.

• كانوا ينامون فوق المتوسط المعتاد، ويحافظون على قيلولة الظهيرة.

• أكثرهم لم يكونوا من المدخنين أو متعاطي الكحول.

• حافظوا في حياتهم على الصداقات والعلاقات الاجتماعية الأصيلة ورعوها.

آثار التوتر، وفن الاسترخاء الصحيح

التوتر الجيد والإجهاد السيئ: يدور الجدل في أوساط المختصين فيما إذا كان هناك إجهاد جيد وآخر سيئ. إن الإجهاد أو التوتر الجيد هو ذلك التوتر النفسي الذي يصاحب النجاح بالامتحان أو الزواج والأفراح عموماً. أما الإجهاد السلبي فهو ذلك الشد أو التوتر النفسي الذي ينتج عن الحزن الناجم عن فَقْدِ عزيز أو نزاع مع شريك أو غضب من صديق أو خسارة فادحة. وكل منهما في واقع الأمر يمكن أن يكون ضاراً إذا ما تخطّى عتبة الإجهاد الشخصية المسموح بها، أو استمر أثره في الجسم مدّة طويلة، والسبب أن أي نوع من التوتر



النفســـي سيؤدي إلى الإخلال بتـــوازن النظام الحيوي للجسم، خصوصـــاً عندما يستمر مدّة طويلـــة، في حين نجد بالمقابـــل أن التوتر الذي يمر سريعاً وإن كان سيئـــاً يستوعبه الجسم ويهضمه، ويكون ضرره ضئيلاً جداً.

الإجهاد النفسي يرفع مستوى الشحوم بالدم: أثبتت الدراسات أن للإجهاد النفسي أثراً سلبياً في عملية تخليص الدم من الشحوم، فإذا لم يكن بالإمكان تحاشي الإجهاد أو التوتر النفسي فعلى المرء أن يركّز في هذه المرحلة على الغذاء المتوازن الخالي من الدهون ويبتعد ما أمكن عن الوجبات السريعة والحلويات الغنية بالسكريات.

وسائل مساعدة في التغلب على صعوبات ومشكلات الحياة

إن الإجهـــاد النفسي المستديم في العمل أو في الحيـــاة الخاصة سيؤثر سلباً في الصحة ويحـــدّ من القدرة ويعجّل بالشيخوخة، إلّا أن الإنسان بإمكانه تجاوز كثير من المتاعب باتباع الوسائل الآتية:

تمارين الاسترخاء: إنّ لتمارين الاسترخاء والتأمل تأثيراً مباشراً في الصحة، فهي تخفف من مزعجات النوم، وتزيل الإجهاد النفسي والجسدي، وتحسن مستوى الذكاء والإبداع، وتسهم بفعالية ضد الخوف والاكتئاب، وفي كلّ ذلك تأخير لمجريات الشيخوخة.

التفاؤل يطيل العمر: أثبتت الدراسات أن التفاؤل لا يطيل العمر فحسب، بل يحمي أيضاً مـــن بعض الأمراض. فقد توصل الباحثون في مركز «جوفـــز هويكنز» في أمريكا إلى أنّه من النادر أن يصاب الأشخاص ذوو التصور الإيجابي للحياة بأمراض القلب الخطيرة. كما أظهرت

دراسة أجريت في «تكساس» ندرة مخاطر الأزمات القلبية عند المعمرين الذين قضوا حياتهم في سعـــادة وتفاؤل دائمين. كما صرح مختصو القلب من «بالتيمور» في مؤتمرهم العلمي عام (٢٠٠٠م)، أن الضحك العالي النّابع من القلب من أفضل السّبل للوقاية من الأزمات القلبية.

التسبيح والدعاء يجمعان القلب والروح: ورد في مجلة الطب البريطانية تاريخ (٢٠٠١/١٢/٢٢م) أن الابتهال والصلوات تحسّن صحة الإنسان، إذ أثبتت الدراسات أن التنفس يتباطأ في أثناء الذكر أو الابتهال أو التسبيح، الأمر الذي يقود إلى استرخاء النظام العضوي بالجســم، إذ ينخفض ضغط الدم، ويتحسن أداء القلب ونظام الدورة الدموية مما يشكّل أثراً إيجابياً في الصحة بشكل عام.

التواصل الجيد والأصدقاء المخلصون أفضلُ داعم للشباب الدائم: صرّح «دين أورنيش» بالنتائـــج الآتية في تقرير له عام (١٩٩٢م) حول دراستين منفصلتين أجراهما على (٢٠٠٠٠) شخص تمّت مراقبتهم مدّة طويلة من الزمن.

إنَّ مـــن يحرص على علاقـــات صداقة منتظمة مع الآخريـــن، ينخفض لديه خطر الوفاة المبكرة إلى النصف عن الأشخاص الذين عاشوا منعزلين أو شعروا بالعزلة في أثناء حياتهم، وليـــس المهم هنا عـــدد المعارف، بل نوعية وعمق العلاقة معهم. وقد جاء في دراسة نشرتها الهيئة الطبية في فنلندا أن الأشخاص المؤمنين أقل عرضة للمرض ويعمّرون أطول.

وذلك بسبب نمط الحياة الصحيحة التي يعيشونها من جهة، والروابط الاجتماعية المتينة مـــن جهة أخرى. كما يمكن للأنديـــة والمؤسسات الاجتماعية أن تحقق طموحات الشباب من خلال النشاطات الاجتماعية المختلفة. إن مراعاة الصداقات الجيدة والانخراط في الهيئات والمؤسسات الاجتماعية يعني النشاط الدائم، وسعة الأفق، وعدم الملل، وعدم الشعور بالهرم أو العجز أو الإحساس بالإهمال، وعدم النفع.

وخلاصة القـــول: إن المناقشات وممارسة النشاطات مع المعارف والأصدقاء تعدّ ينبوعاً للحياة وسبباً أساسياً لديمومة الشباب.

الأماكـن المريحة: إنّ اللجـــوء بانتظام وبشكل منفرد إلى أماكن يعمُّ فيها الهدوء الروحي والنفســـي مثل: (أماكن العبادة، والحدائق، والمنتزهات، والجبال، والغابات، وشواطئ البحار) يجعـــل الإنسان في خلوة مع نفسه، ويخلّصه من همومه وإجهاداته، ويزيد من الآثار الإيجابية في حياته اليومية.

الألوان وتأثيراتها: إنّ اختيار أحدها يمكن أن يكون مهيجاً أو مهدّئاً، فاللون الأحمر يؤدّي إلى رفع ضغط الدم وتسريع النبض، ويحرّض على إفراز الأدرينالين، وهي ردود الأفعال نفسها التي تحصل للجسم عند الإجهاد أو التوتر النفسي، كما أن جلوس الأشخاص أوقات طويلة في غرف مطلية باللون الأحمر يؤدّي إلى تصرفهم بعنف وعدوانية. أمّا الألوان: (الأزرق، والأخضر، والبرتقالي الفاتح، والزهري) فهي على العكس من ذلك، إذ تبعث الهدوء في النفس، وتمنح الشعور بالتوازن والاستقرار والطمأنينة وتساعد على التركيز في العمل. إن وجود بعض اللمسات اللونية في المنزل أو المكتب مثل: (اختيار غطاء أخضر للمنضدة، أو سجادة زرقاء، أو بعض اللوحات المزينة بهذه الألوان، أو وجود الأزهار وبعض نباتات الزينة الخضراء)، كل ذلك سيجلب الراحة للنفس ويخفف من ضغط الحياة اليومية.

الموسيقا الهادئة: يمكن للموسيقا أن تحفّز على العمل أو تثير الحماسة للقتال (قرع الطبول في الحرب)، كما يمكنها أن تكون وسيلة رائعة للاسترخاء والطمأنينة، إذ أثبتت الاختبارات أثر الموسيقا في الحالة النفسية والجهاز العضوي للإنسان وبعض الكائنات الأخرى، إذ تبين أنه يمكن لبعض وظائف الجسم التي لها إيقاع منتظم مثل: (سرعة التنفس، وضربات القلب، وموجات الدماغ)، أن تتوافق مع سرعة موسيقا رتيبة معينة، كما يمكن للنظام الهرموني وضغط الدم والنظام المناعي أن تتأثر إيجابياً ببعض المقطوعات الموسيقية المناسبة.

حاسة الشم وعالم الروائح: كما الألوان كذلك الروائح إذ يمكن أن تكون مهدّئة، ومنشطة، ومحرضة، ومنومة. فالنفحات الطيبة والروائح الكريهة يمكنها أن تؤثر في مشاعرنا وحالتنا الذهنية لأنها تصل عن طريق أعصاب الشم إلى جزء الدماغ المسؤول مباشرة عن المشاعر والأحاسيس، إذ تنطلق عبر الروائح سيالات عصبية معينة، يمكنها أن تؤدي إلى مشاعر محددة، والأرجح أن النظام الهرموني يتأثر أيضاً بالروائح.

نماذج من الروائح المؤثرة:

روائح للاسترخاء وإزالة التوتر: الراتنجيات «زيوت عطرية»، والبابونج، وزهر الخزامى، وزهر البرتقال، وزيت عطر الورد.

روائح لانشراح المزاج والابتهاج: أزهار الحمضيات، والياسمين، وعطر الورد، وأوراق الليمون.

روائح لتنشيط الذاكرة ورفع القدرات الفكرية وتفتح الذهن: إكليل الجبل، وروائح من أصول خشبية (العود والصندل وأشباههما)، والنعناع، واللبان، والليمون.

القيلولة مصدر مهم للطاقة: من الأمور التي ينصح بها للتخلص من الإجهادات النفسية والجسديـــة، القيلولة القصيرة عند الظهيرة. ومما عرف عن رئيســ وزراء بريطانيا الأسبق «وينستون تشرشل» الذي عاش (٩١) سنة، أنه كان مواظباً على القيلولة.

إنّ قيلولة قصيرة بعد الغداء تحسّن عمل الدماغ، وترفع طاقات الإنسان، وتخفض إجهادات التوتر، إذ يتباطأ النفس بعد عشر دقائق من نوم الاسترخاء، وينخفض تردد النفس من أربعين نَفَساً في الدقيقة في حالة الإجهاد إلى اثنتي عشرة مرة في أثناء النوم، وكذلك ينخفض نبض القلب بعد نصف ساعة من الاستراحة إلى معدّلات التهدئة، لذا نجد أن المواظبين على قيلولة الظهيرة هم الأكثر صحة ونشاطاً من أولئك الذين يمضون كامل يومهم بالعمل والتعب. بالمقابل ثبت أن نقص النوم المستديم يقصّر العمر ويسهم بأمراض الإجهاد النفسي والشيخوخة المبكرة مثل: (أمراض السكّري، وزيادة الوزن، وارتفاع ضغط الدم واضطرابات الذاكرة).

صفحات في دفتر الشيخوخة

في رحلة الحياة محطة مهمة هي مرحلة الشيخوخة، وينظر إليها بعضهم بوصفها مرحلة الإشــراف على النهاية، وبعضهـــم يرى فيها تبلور الحكمة وزيـــادة التجربة والحنكة بالحياة، وبعضهـــم يدركها من زاوية التـــآكل والانحلال العضوي والحسي، والستـــون وما بعدها عند بعضهم عمر تتحقق فيه الآمال المؤجلة، والتأمل، والاستغراق الساكن في الكون والحياة. ظل «بيكاســـو» كالإعصار في نشاطاته الفنية إلى أن توفي في الواحدة والتسعين، وبقي «برتراند راســل» حتى الثمانينيات يحاور ويكتب ويتظاهر في شوارع لندن ضد الاستخدامات المدمّرة للـــذرة، أمّا العالم الروســـي المشهور «بافلوف» فقد عاش ما يقرب ستـــة وثمانين عاماً، ولم يتوقف حتى موته عن العمل وإجراء التجارب والإشراف على الطلاب.

إن الإحساســ بالهـــرم والعجز يظل أمراً شخصياً ونسبيـــاً يتوقف على كثير من الظروف الصحيـــة والنفسية والحضارية. والحيـــاة هي ما نراه فيها وما نخلقـــه منها. ومع ذلك فإن التغيرات البيولوجية تَحدُث وتُحدِث معها تغيرات في التفكير وفي النمو النفسي والاجتماعي. ومـــع دخـــول الخامسة والستين تبدأ كثير مـــن الوظائف العضوية بالتدهـــور، وعلى الرغم مـــن حتمية تدهورها، فإنها تحافظ علـــى نشاطها مدّة أطول عنـــد بعضهم. فقد تبين أن القيـــام بتدريبات رياضية مكثّفة ثلاث مرات أسبوعياً يخفّض من ضغط الدم ويساعد على تنشيـــط الدورة الدموية. وما يقال عن الوظائف الجسمية يقال أيضاً عن الوظائف العقلية.

ومن التغييــرات الرئيسة التي تحدث في هذه السن ويكون لها تأثير قوي في الحالة النفسية، فقدانُ الدور الاجتماعي والموقع الوظيفي.

ويعدُّ ضعف القدرات العقلية مصدراً آخر للإحباط والتأزم، كما أن ضيق دائرة العلاقات الاجتماعيــة، والتقوقع على الــذات، من العوامل التي تترك آثارها فــي أساليب التفكير، إذ تتضاءل القدرة على التجريد واستخدام المفاهيم، ويحل محلهما اهتمام بالعلاقات المحددة والملموسة والأفكار ذات المضامين الذاتية الضيقة.

كيف نوازن بين عمليات الدمار والإصلاح في الجسم؟

كل النصائــح في هذا المجال ركّــزت على الجانب النفسي والروحي مثل اطمئنان النفس واستقرار الأسرة، أكثر من الجانب المادي مثل اختيار بعض الأغذية على الخصوص والإقلال من الطعام عموماً.

وقد أثبتت الدراسات الطويلة أن الأشخاص الذين ينعمون بحياة عائلية سعيدة مع أبنائهم، وقد واظبوا على نشاطاتهم اليومية حتى بعد التقاعد، وخالطوا الشباب وسط إجلال وتقدير، قد تباطأت وتيرة الشيخوخة لديهم بشكل كبير، ولأن نظام الإصلاح الوقائي يعمل بشكل جيد، فهــم يتمتعون بجسم يمتلــك المناعة والمقاومة ضد الأمراضــ ويقضون مرحلة الشيخوخة بصحــة رائعة. وبالمقابل ثبت أن الأشخاصــ الذين يعيشون منفصلين عن أبنائهم أو في دور المسنيــن أو فرادى بعد فقدانهم لأزواجهم، أو منعزلين عن المجتمع بعد التقاعد بلا نشاط ولا حركــة، هؤلاء قد شاخوا بشكل سريع، وفقدت أجسامهــم المقاومة ضد المرض، فماتوا بعد مدّة قصيرة.

جسم صحيح ونفسية سليمة ما دامت الحياة

مــن المعروف والملاحــظ أن الأفراد الذين يقومون بشؤونهــم الخاصة بأنفسهم، ومن يعملــون في سبيل غاية نبيلــة كأن يكونوا أعضاء فاعلين في مؤسســات خيرية أو إنسانية عموماً، ومن درجوا على القيام بنشاطات يومية منذ شبابهم في مواعيد معينة دون إهمال، ولــم يقتربوا من المواد والعادات المضرة كالتدخيــن والخمر والقمار، وقللوا من طعامهم دون إخــلال ببرنامج الغذاء المنتظم، وابتعدوا كذلك عن النزاعات العائلية... هؤلاء نعموا بجسم صحيح ونفسية سليمة مستقيمة، كما نجحوا في ضبط التوازن بين الجزيئات المدمرة

وآليات الإصلاح بصـــورة مثالية، وكان لذلك الفضل الكبير في التخفيض من سرعة عجلة الشيخوخة عندهم.

كيف نعيش بروح الشباب مدى الحياة؟

إن التقدم في السن ليس له أي تأثير سلبي في الجانب الروحي لدى الإنسان، فـ (الصبر، والرحمة، والتسامح، والصـــدق، والتواضع، والمودة، وغيرها من الفضائل) مزايا وخصائص لا تكبـــر ولا تشيخ أبداً، وإذا ما ظـــل الإنسان متسماً بها طوال حياتـــه، فإنه سيظل شاباً في داخله مدى الحياة.

إن التقـــدم في السن بحد ذاته لا يعد سبباً أو عاملاً في الاضطرابات الجسدية والعقلية، بل الخوف من آثار تقدم العمر ربما يكون سبباً رئيساً في الشيخوخة المبكرة ومضاعفاتها.

إن التقـــدم في السن لا يعني النهاية والضياع، بل فجر الحكمة، والحكمة أن ندرك القوى الروحيـــة الهائلة الكامنة فينا ومعرفة تطبيقها والإفادة منها، لكي نعيش حياة مثمرة وسعيدة ومنتجة أكثر مما كانت حياتنا من قبل.

إن التقـــدم في السن في جوهره عملية تغيير وخطوة جديدة إلى الأمام في طريق الحياة الـــذي لا نهاية له، فالإنسان يملـــك قوى تفوق قواه الجسدية، وحواســـ مذهلة تفوق حواسه الخمس، فالروح خالدة وباقية، والحياة رحلة روحية لا تنتهي.

لا تنزعـــج إن لـــم تعد قادراً على لعب مبـــاراة تنس، أو لم تعد تستطيـــع السباحة بسرعة تضاهـــي سرعة أبنائـــك، أو إذا تثاقل جسدك أو خطواتك. فالحيـــاة تتدثر بثوب جديد على الـــدوام، والموت في حقيقة الأمر ليس ســـوى بداية رحلة إلى حياة جديدة خالدة، أهم وأجلّ ما فيها أنها مرحلة الحصاد لكل ما زرعناه وقدمناه في حياتنا الدنيوية القصيرة.

لا تفـــوّت على نفسك أيّ فرصة بمجرد الظن أنهـــا لا تناسب سنّك، فهذا الشعور سيؤدي بـــك أكثـــر فأكثر إلى التبلد والجمود والموت الفعلي. إن بعضـــ الأشخاص يشيخون وهم في الثلاثيـــن، وبعضهم الآخر يتمتعون بالشباب وهم في الثمانيـــن، إن العقل هو النسّاج الماهر والمهندس والنحات البارع، وهو الذي يشكّل تجاربك.

إن الكاتب المسرحي «**جورج برنارد شو**» ظل يعمل بنشاط حتى سن التسعين، وعلى الرغم من وصوله لهذه السن لم تفتر براعته ولم تضعف أعماله. إن خبرتك العملية والتطبيقية التي

تكونت عبر السنين ونضجك واستقرارك النفسي والروحي هما الذخر الحقيقي والرصيد الغني لمرحلتك الجديدة مرحلة تقدم العمر في هذه الحياة.

نحن نشيخ عندما نفقد الاهتمام بالحياة، وعندما تتوقف الأحلام والآمال وينعدم الشغف بمعرفة الحقائق والبحث عن معلومات جديدة، في كل مجال. وعلى العكس فعندما يتفتح الذهن لاستقبال الأفكار والاهتمامات الجديدة وعندما نرفع الستار عن العيون ونرى ضوء البصيرة وحقائق الحياة والكون عندها سنتمتع بالحيوية والشباب مدى الحياة.

وقد نصح **جورج كارلين**[1] في (كيف تبقى شاباً) النصائح العشر الآتية:

١- ارمِ كل الأرقام غير الضرورية: (العمر، الوزن، الطول... إلخ)، ودع الطبيب يهتم بشأن تلك الأرقام، ذلك هو عمله الذي تدفع له أنت حتى يؤدّيه.

٢- أبقِ على الأصدقاء المبهجين فحسب، كثيرو التذمر سيسببون لك النكد.

٣- لا تتوقف عن التعلم. تعلم أكثر عن الحواسيب، الحِرَف، العناية بالحدائق... لا تدع عقلك يدخل في مرحلة الخمول، العقل الخامل هو مكان عمل الشيطان واسم ذلك الشيطان هو (الزهايمر).

٤- تمتع بالأشياء البسيطة.

٥- اضحك دائماً، طويلاً وبصوت عالٍ. اضحك حتى تنقطع أنفاسك.

٦- الدموع والأحزان تحدث. تحمّل، احزن ومن ثم امضِ في حياتك. الشخص الوحيد الذي سيبقى معنا كامل حياتنا هو أنفسنا.

٧- أحط نفسك بالأشياء التي تحبها، العائلة، والأصدقاء، والحيوانات الأليفة، مقتنيات، نباتات، هوايات... منزلك هو ملجؤك.

٨- اهتم بصحتك: إذا كانت جيدة حافظ عليها كذلك، إذا كانت غير مستقرة اعمل على تحسينها، وإذا كانت سيئة إلى درجة لا يمكنك تحسينها، اطلب المساعدة.

٩- ابتعد عن الأماكن والأشياء التي تشعرك بالذنب. اذهب إلى المجمع التجاري، إلى بلدات مجاورة، إلى بلد آخر، ولكن لا تذهب إلى الأماكن التي ستجعلك تشعر بالذنب.

١٠- أخبر الناس الذين تحبهم بأنك تحبهم في كل فرصة تتاح لك.

الإنسان بين الشباب والشيخوخة

من المعروف أن نمو جسم الإنسان يكتمل في العشرينيات من العمر، إلّا أن العقل يمضي في نموه نحو الأفضل، على الرغم من ذلك نهمل هذه الطاقة العقلية، كثيرٌ من الشباب يجعلون عقولهم بين جدران مظلمة يعلوها الصدأ فتهرم وتموت مبكرةً، وتدور حياتهم بين مواقع الإنترنت التافهة، وشاشات الفضائيات الهابطة، وأماكن اللهو ودور الفساد، ومن ثمّ هدر الوقت وضياع العمر.

ويظلّ الإنسان في مجتمعاتنا المعاصرة لغزاً محيراً بعد أن جمّد عقله، وأطلق لغريزته العنان في افتعال الحروب والمشاحنات والفتن من خلال التعصب لأشخاص أو عشائر أو أفكار، فلم يعد يميّز بين الحق والباطل أو بين الفضيلة والرذيلة...

ويبقى صراع العقل بين مرحلتي الشباب والشيخوخة في حياة كلّ منّا، فطوبى لمن جمع بين همّة الشباب وحكمة الشيخوخة، وألف طوبى لمن جعل من الشيخوخة مرحلة جديدة للفرصة والقوة والعطاء والحكمة، وفهم الحياة، وممارسة الهوايات، وتحقيق طموحات، وآمال مرحلة الشباب.

الهوامش

(١)- كوميدي أمريكي يؤدي كوميديا الوقوف، وهو أيضاً ناقد اجتماعي وممثل وكاتب، وهو من مواليد ولاية مانهاتن، وفاز بخمس جوائز.

المراجع

(١)- إبراهيم حسين سرور، دار الهادي، غذاء الجسد والروح، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

(٢)- د. بيتر أكست ود. ميشيلا أكست غادرمان، فن العيش الصحي المديد، مترجم، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٤م.

ألواح القدر Tablets of Fates ومفهوم الـ«مِهْ – ME»

كتاب بلاد الرافدين المقدَّس

نزار مصطفى كحله

هــي مفردةٌ حضــاريةٌ واحدةٌ من مفردات حضــارية كثيــرة لبلاد الرافدين، لكنهــا مُتفرِّدةٌ بأهميتها، لِما لها من أهمية فكرية عقائدية دينية.

هي ألواحٌ، خُطَّت عليها أقدار ومصــائر شــعبٍ بأكمله، شعبٌ اعتقد بأنه محور ومركز الكون والعالم. إذن هي مَنْ حددت مصير العالم، وإن الربَّ، الذي كانت هذه الألواح، بحوزته، يُصبح كُلّيَّ القــدرة، وقد أسموها بـ«دوب شــيماني»، فمــا هي ألواح القــدر هذه؟ وكيف نشــأت؟ وماذا احتوت؟ وما هو مفهوم الـ مي – ME؟

هذا ما ســنحاول الإجابة عنه في هذه العُجالة، لكن، وقبل الغوص في بِحار ألواح القدر، لا بدَّ لنا من التعرف إلى المجتمع الذي ظهرت فيه، ومتى.

مجتمع بلاد الرافدين

هــو مجتمع بــلاد الرافدين في الألف الثالث والثانــي والأول قبل الميلاد ما بين (٣٠٠٠– ٥٠٠ ق.م). هذا المجتمع، الذي كان السحر والدين والأسطورة شغله الشاغل، هو مجتمع البحث عــن الحقيقة، ومحاولة كشف خفايا وأسرار الطبيعة، ومعرفة أسرار الوجود، والإجابة عن الأسئلة الجوهرية الآتية: ما هو مصيرنا؟ وهل هناك عالمٌ آخر؟ ما هي ماهيته؟ وأيــن هو؟ ومَنّ يتحكَّم به؟ ... إلــخ من هذه الأسئلة، التي أقضَّــت مضجعَ الجميع، وجعلت

مفكّريهـم وكهنتهم فـي حالٍ تفكيرٍ مستمر، لكـن ذلك جعل منهم المجتمـع الأول في ذلك العصر، من حيث التقدم الثقافي والحضاري، وجعل الدين في مقدمة اهتماماتهم.

إذن، نحـن نتحـدَّث عن مجتمع ديني بامتيـاز، مجتمع يُطيع آلهته طاعـةً عمياء، قياساً إلى نظرتهـم إلى مركز الإنسان ومكانته في النظام الكوني، وعلاقته بالآلهة، وسبب خلقه، الذي آمن سكان بلاد الرافدين، بأنَّ الآلهة خلقتهم كي يخدموها ويعبدوها، فقد كان الدين شغلهم الشاغل، حتـى يَصحّ أن نصف حضارة العراق، مثل غيرها من حضـارات الشرق القديم، بأنها: (حضارة دينيـة). فكان الإله كالملك الحقيقي، الذي يحكم المدينة والبلاد، وما الحكام والملوك إلا نوّاب عنه يمثلونه في هذه الأرض، يحكمون باسمه، وينفّذون إرادته، وكان مَعْبدُهُ أعظم بناء في المدينة، وعليـه مـدارُ حياتها المدنية والدينية، وكان نادي الناس الاجتماعـي والديني، فيه يتوّج الملوك وتُقام الحفـلات ويتقاضى الناس، وتودع السجلات والعقود التجارية، وسجلات الآداب والتاريخ، ورمـوز الآلهة وغيرهـا. كان مكتبةً عامة، ومسرحاً، ومدرسةً يتعلَّم فيـه الناس الكتابة والقراءة، ويتلقـون معرفة العصر وقوامـه وكهنته، وكان إله المدينة – أو المملكـة – يُحارب مع جيوشها، فينتصر بانتصارها، وينخذل بانخذالها، وربما يؤسر، لكن، يا لعار المملكة التي يؤسر إلهها!

مفهوم الـ(مِهْ – مي – ME) في فكر بلاد الرافدين

عدَّ بعض علماء السومريّات، كلمة (مي – مِهْ – ME) الواردة في أساطير وملاحم وتراتيل بـلاد الرافدين، كلمـةً غير قابلةٍ للترجمة إلـى اللغات الأوروبية، تحتوي علـى معانٍ كثيرة، ترتبط بسمو وتنزيه الآلهة عن المخلوقات ومفارقتها لهم، وتحتوي أيضاً معنى جوهر الأشياء وكنهها، وهي ذات طابع خفي وسري، وهي تخوِّل السلطة والصلاحية للآلهة، وهي التي تُلخِّص أو **ترمز إلى القوانين والأنماط التي تُحقق سير المنظومة الكونية المُتناغمة**، وقد اصطلح بعض العلماء على نقلها وتفسيرها، وفق تعبير (أسرار غيبية) أو (أسرار). ويبدو أن الحديث عـن مفهوم الـ(مِهْ – ME) في حضارة بلاد الرافدين، يتطلب منّا، في البداية، معرفة مفهوم القوة الإلهية عند سكان هذه البلاد، فما هذه القوة، ومِمَّ تتشكل؟

القوة الإلهية

كانـت القوة الإلهية عند السومرييـن، تتجسد بما خلقته الآلهة من عوالم وأكوان وكائنات حيّـة وبشر، ولكن سرَّ القوة الإلهية أو جوهرها، كان يكمنُ في أربعة أنواعٍ من القوى الإلهية، سنوردها حسب التسلسل التاريخي لظهورها، وهي:

الكلمة: فبعد الظهور الكبير للمرأة، وقوة إخصابها في الطبيعة والإنجاب، في العصر الحجري الحديث، إذ ساد اعتقاد خلقي - أساس - هو: أن قوة الولادة تأتي عن طريق الرحم، ومن ثم جاء ظهور قوة البذور، وقدرتها على التوالد عن طريق المطر، بوصف الإله، هو من يُلقِّحُ الكون، وذلك في العصر الحجري النحاسي، نحو (٤٥٠٠ - ٣٥٠٠ق.م). ثم ظهرت قوة الكلمة في العصر السومري نحو (٣٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)، حيث تحولت القدرة إلى الكلمة، وصار بمقدور الإله الخلق عبر النطق، إذا قال للأشياء أن تكون، فتكون.

إذن، يمكن اختصار المرحلة الأولى بـ: ١ - قوة المرأة (الرحم) وقدرتها على التوالد والخلق. ٢ - قوة البذرة والمطر، وقدرتهما على التوالد والخلق. ٣ - قوة الكلمة، وقدرتها على الخلق.

الـ(نم): هذه الكلمة تعني صفة أو صفات الشيء وسماته وطبيعته، وتقابلها بالأكادية كلمة (شمتو) أي سمة الشيء وطبيعته، ويبدو أن إطلاق الإله الـ(نم) على الأشياء يعني تحديد صفاته وسماته وتعيين جوهره في ذاته.

الـ(مِهْ - ME) (موضوع بحثنا): أي النواميس المُقدسة، التي تعني نواميس الآلهة، التي يستطيع بوساطتها الإنسان أن يتحكم ويسيطر ويستخدم الأشياء أو ظواهر الأشياء والطبيعة، وإذا كانت الـ(نم) تحدد طبيعة الشيء نفسه، فإن الـ(مِهْ - ME) تُعبِّر عن الشيء، كموضوع خارج ذاته، أي الوجه الاجتماعي والحضاري والفني، الذي يُستخدم فيه، ولذلك فإن كلمة النواميس الإلهية أو المقدسة ترجمة صالحة له.

ألواح القدر (لوح المصائر): تُشكِّل الآلهة هذا (اللوح المحفوظ)، وفيه أقدار ومصائر العالم والناس، وتحديداً الإله إنليل، الذي يحتفظ به تحت أنفه. وعلى الرغم من أن الآلهة مصدر السلطة، وهي القادرة على منحها وحجبها لمن تريد من البشر، إلا أن لوح المصائر يبقى هو الأساس، الذي كُتب فيه مصائر العالم، كما أن ألواح القدر تعطي لمن يمتلكها الألوهية العليا.

العلاقة ما بين الـ مِهْ أو الـ ME وألواح القدر

يعتقد بعض الباحثين بوجود علاقة بين الكلمتين الأكادية (بارسو - Parsu)، والسومرية الـ(مي - ME). فكلمة (بارسو)، كما يبدو، تُعبِّرُ عن المستوى الأخير لتجسيد الآلهة البابلية، ويبدو أن هذه الكلمة، تُفيد بمعنى الشيء القريب من مفهوم (قوانين) أو (مراسيم) أو (طقوس)

بمـا يُشابه المفهـوم القديم لـ (مي – ME)، وهنا يجدر بنا أن نذكـر أن الإله (إنكي – أيا) وفـي كثيرٍ من النصوصـ التي ترقى إلى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، شارك في تقرير المصيـر، ومنها، نقرأ: (أيـا ملك الأقدار) و(أيا مصائره نحو الأمـام) و(أيا حاكم الأقدار)، ومـا محاولة استحضار الإله (إنكي – أيا) إلى هذا التاريخ الحديث نوعاً ما – قياساً للتاريخ السومري – سوى تعظيم المالك القديم لـ (مي – ME).

أما لغوياً، فقد جاء في كتاب الدكتور نائل حنون «دراسات في علم الآثار واللغات القديمة، الجزء الثاني»، وفي ترجمة له للكلمات السومرية إلى اللهجة العربية الفصحى، أن كلمة (مي) تعنـي (القوة السماوية التي تحدد فروض السمـاوات والأرض)، وكلمة الـ(مي –لِ/ لِم) تعني نظرة مرعبة (حرفياً: قوة سماوية متوهجة)، والـ(مي) تعني أيضاً قتالاً، نزالاً.

كما نرى أن كلمة الـ(مِهْ) التي تعني – أيضاً – ألواح القدر بالأكادية البابلية، هي التي تمنح من يمتلكها سلطاناً على (قدر) كل شيء. وفي التفكير البابلي الأول، كان تقدير قدر شيء، من حيوان أو جماد، معناه تعيين مكانه من نظام الخلق.

كمـا أن كلمة «ب ر س: تعني قَسَمَ، قَرَّرَ»، وكلمـة «بَرس: تعني مُقَرَّرٌ»، وكلمة «برس: تعني قسمة، مقطع»، وكلمة «ب ر ص: تعني كذب».

وقـد ترجم البابليون كلمة الـــME إلى كلمة (برصو) أو (برضـو) Parsu التي تُضاهي كلمـة فرض أو فروضـ بالعربية، وكل هذه المعاني تتفق مع المعنـى المُناط بهذه (القدرة) أو (القانون) أو (الناموس).

مفهوم الـ مِهْ أو الـME / ألواح القدر

كان مفهـوم الـ(مـي – ME) في المجتمعـات القديمة يعني: تلك القـوة الخفية، التي تكمـن في كل مـا هو موجود، أو كما يُقال: كانت بمنزلة المبـدأ الصوفي لكينونة كل شيء، وفي مرحلـةٍ لاحقة، أصبحت هذه القوة الإلهية الكامنة في كل ظاهرة معزولة عن الظاهرة المرئية عينها.

حتـى مع نشوء فكرة (الآلهـة المُجسَّدة) أي الآلهة التي مُنحت أجساداً مُحددة، لم تختفِ صيغـة الـ(مي – ME)، بـل حافظت على استقلالية نسبية عن الآلهـة، فالآلهة لا يتحكمون بجوهر الأشياء، وبوسعهم امتلاك الـ(مي – ME)، لكنهم عاجزون عن تغييرها.

وقد عُمِّمت صيغة الـ(مي – ME) على الآلهة أنفسهم، فهم يخضعون – أيضاً– للـ(مي – ME) الخاصة بهم، ففي سلسلة أنساب الآلهة السومرية، وفي مقدمتها، نقرأ:

يليهما الزوج الإلهي الثاني (السيد والسيدة أيام الحياة).

وكلمة الـ مِهْ أو الـ(مي – ME) في الأصل، هي: كلمة سومرية غير واضحة المعنى، ربما تعني الوجـود، وهي من أصعب المصطلحات اللاهوتية المُحيرة في الديانة السومرية، وقد اتفق بعض العلمـاء على اصطلاح قريب من معناها، وهو (القوى الإلهية) وتشمل كل مؤسسات الوجود ونظام الكـون الدنيـوي والسماوي، الذي تُسيُّره قـوى الآلهة، خيراً أو شـراً. وكان الفلاسفة السومريون يعتقدون أن الـ(مِهْ) (ME) تحكم نظام الكون منذ البداية، وأنّه لا يزال يسير بموجبها.

قـدّم بعض الباحثين وعلماء الآثار والفكـر الحضاري تعريفات فيما يخص هذا المفهوم الإشكالي، ومنهم:

الأستـاذ توركليد ياكبسون، الذي يعـدُّ أن الـ(مِهْ) (ME) هي جملـة الوظائف المرتبطة بالطقوسـ أو العادات والأعراف، كما يعدُّ أن الاسم (مي أو مِهْ) يتوافق مع الفعل (مي) الذي يُفيد معاني: (يكون) و(كينونة) أو (الوجود) ويُراد به شكل أو طريقة الوجود، وربما كانت هذه الكلمة الـ(مي – ME) تُشير إلى معنى (معيار) أو (مقياس) وجود هذه الظاهرة أو تلك.

أما الأستاذ فـان دييك، فيعدّها بمنزلة الوجود الإلهي في الهيولى الميتة أو الحيَّة بشكل أزلي، وهي غير مُشخَّصة بجسد، ولكن بوساطتها تتحكم الآلهة بأمور العالم.

أنواع الـ مِهْ أو الـME

ويبدو – من خلال النصوص – أن هناك عدة أنواع للـ مِهْ أو الـME منها:

١– الـ مِهْ أو الـME الخاصة بالعالم العلوي، وقد تحدَّثنا عنها.

٢– كذلـك الأمر، فإن للمعابد والمدن قوانين (مِـهْ) – الخيّرة والصّالحة – الخاصة بها، ولكن قد تتحول إلى قدرٍ عاثر نكد مُعادٍ فيما لو أصابت كارثة ما إحدى المدن، كما يتضح من مرثية دمار أور، وقد تندب إلهة – ما – حظها لفقدانها الـ(مِهْ) كما جاء على لسان (نينجال) إحـدى إلهات المدن. وانطلاقاً من هذا المعنى السلبي لكلمة (مِهْ) فبمقدورنا الآن، أن نفهم معنـى بعض الكلمات، التي تـرد – عادةً– في الأساطير والمراثـي، مثل: (عدائي) و(كاذب) و(بلد العدو) التي تندرج ضمن إطار مفهوم (مِهْ) الواسع.

٣- وللـ(مِهْ) في العالم السفلي قوانينها الخاصة الثابتة، التي لا تسمح بأي تبديل أو تغيير في مضمونها لمصلحة أي شيء يقع ضمن نفوذها، وهذا ما سنجده من خلال بعض الأساطير الرافدية القديمة، وكانت مؤلفتها والمسؤولة عنها، الإلهة (بنت صري)، ولا نملك تصوراً واضحاً عن مضمونها، ولكن يُعتقد أنها تحوي أسماء الموتى، وتُحدد مصائرهم، أما المصير النهائي لهذه (الأرواح) أو الأموات، فهو غير واضح، ولاسيّما للبشر.

ألواح الأقدار حسب التصور الأكادي

هي ألواحٌ مرقومٌ عليها مصير وحياة البشر، ومن يستطيع امتلاكها، فإنه يمتلك القدرة على حكم العالم، ففي الأساطير الرافدية القديمة، نقرأ عن سرقة هذه الألواح أو الاستيلاء عليها بالقوة، وفي مناسبات كثيرة، وهذا ما سنتعرف عليه في أسطورة الطائر الخرافي (أنزو) الذي سرقها من مالكها الأصلي، الإله إنليل. وإذا كان الأكاديون يعتقدون أن الآلهة هي التي تُملي القدر، فإن السومريين يعتقدون أن القدر يُفرض - حتى- على الآلهة. فالقدر يحكم الآلهة والطبيعة، ولكن حياة العالم نظمت في إطارها العام.

وقد أسهم كثيرٌ من الباحثين في تقديم كثيرٍ من التفسيرات حول مفهوم ألواح القدر، منها:

الباحثة الفرنسية دافيد، التي تقول: إن كل قدر، هو قرار صادر عن إرادة أعلى من الرجال، وإنها تتضمن تحديد الوظائف، التي يجب على كل الناس القيام بها دون وهنٍ أو خور، فالآلهة هي سيدة الأقدار، وهي التي أصدرت القدر، وهي التي تملي القدر كما تشاء.

الباحث ميرو، الذي يعدُّ القدر مجموعةَ القواعد التي تهيمن على تسلسل وقائع الوجود، سواء كانوا آلهة أم بشراً، فإن هذه القواعد تضمن استقرار العالم.

أما الأستاذ **سامي سعيد الأحمد**، فيعتقد: أن القدر بنظر العراقيين القدماء، يبدأ عمله منذ ولادة الإنسان، وقد كانت الآلهة (آلهة الكون) تجتمع في اليومين الثامن والحادي عشر من احتفالات الأكيتو (عيد رأس السنة الجديدة) لتقرير آجال البشر وإقرارها نهائياً.

وربما كان إيمان العراقيين بالقدر، هو محاولة تفسير النظام الكوني، وسط عالمٍ مملوءٍ بآلهة كثيرة ذات أهواء مختلفة، ورغبات كثيرة، وربما، مُتضاربة.

وقد كان امتلاك ألواح القدر إحدى مزايا المعبود، فالإله الذي يملكها، يمتلك القدرة على ضبط نظام الكون، وقد حاولت الإلهة إنانا (عشتار البابلية) إسباغ بركات الحضارة على

مدينتهـا الخاصة أوروك. ولكي تفعـل ذلك، كان لا بدّ لها من امتلاك الـ(مي) التي كانت في حينها بيد الإله إنكي (أيا) إله الحكمة، فترحل إلى مدينته إريدو، حيث يقيم في داره المبنية مـن (أبسو) (لُجَّة الميـاه الحلوة) وتأخذ ألواح القدر. وأسطـورة (إنانا وإنكي) هذه، هي من الأهميـة بمكان، إذ إنّ مضمونها يُعطينا فكرةً واضحةً عن طبيعة الـ(مِهْ)، فعندما يمنح إنكي إنانـا ألواح القدر (الـ مِهْ) وهو في حالة غيـاب عن الوعي، بسبب سكره الشديد، تحمل إنانا الـ(مِهْ) على سفينتها السَّماوية، وتنطلق بها نحو مدينتها أوروك.

ومـن هذا السياق، نفهـم أن الـ(مِهْ) شيء مادي، يمكن نقلها من مـكان إلى آخر، ويفوق عددهـا المئـة، وقد وصلنا منهـا نحو الثمانين ناموسـاً، كما أن تدوينها علـى الألواح، كان يعتمـد تقاليد وعادات مُتعارف عليها منذ القِـدم، وتضم الـ(مِهْ) وظائف الكهنة والملوك مع شعائرهم، إضافة إلـى مصطلحات أخلاقية ونقائضها مثل (العـدل والظلم)، ومصطلحات مـن الحياة الجنسية والفنية والمهنية والأسطورية، ومن المصطلحات الأسطورية النزول إلى العالم السفلي، أو الصعود منه، كما ورد في أسطورة نزول إنانا إلى العالم السفلي، وأداة العمل الممتازة (المعول) وغير ذلك كثير.

والقائمـة التي تضم مهام ووظائف الـ(مِهْ) وحيـدة لا سابق لها ولا لاحق، ولا يوجد نسخ منها، لذا يصعب علينا اعتمادها من مصادر معارفنا عن اللاهوت السومري، كما يجب علينا ألا نفهم مضمونها اللاهوتي خطأً، ونذهب بعيداً في تفسيراتنا.

والجديـر بالذكـر أن كاتب هذه الألواح – ولاسيّما في العصـر البابلي القديم– هو الإله (نابو) بن الإله (مردوخ) الذي بقيت في حوزته، قبل أفول نجم بابل.

ويبدو أن **الملكية** – أي حكم الملوك على الأرض– في فكر سكان بلاد الرافدين، كانت قد نزلت من السماء، حسب ما عُيّن لها، أي حسب ألواح القدر، وهذا ما أخبرتنا به قصة الطوفان السومريـة، التي تُعبِّر عن عقائد السومريين عن أصل كلٍّ من الكون والآلهة، والملكية وتأسيس المدن، فقد ورد ذكر ما لا يقل عن خمس مدنٍ أُسست قبل الطوفان، وعن هذا نقرأ:

بعد أن أُنزلت ... الملكية من السماء.

وبعد أن أُنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء.

أكمل رسوم العبادات والنواميس الإلهية المقدسة ...،

وأسس المدن الخمس في مواضع مُطَهَّرة ....، وسماها بأسمائها،

وخصصها كمراكز للطقوس والعبادات.

ومن ثم يتحدث عن إعطاء كل مدينة إلى إلهٍ خاصٍ بها، وعن هذا نقرأ:

وأعطى أولى المدن، وهي إريدو إلى نودِمُّد (وهو أحد أسماء إنكي).

والثانية (باد - تبيرا) أعطاها إلى ....،

والثالثة (أوروك) أعطاها إلى (أنْدُر بِلخُرساج)

والرابعة (سبار) أعطاها إلى البطل (أوتو)

والخامسة (شروباك) أعطاها إلى (سدْ).

وقد افترض سكان بلاد الرافدين - ولاسيّما- في الحقبة السومرية، أن آلهتهم العِظام يسيرون وفق قواعد الأخلاق في سلوكهم، لكن في الحقيقة وحسب ما رأينا من خلال الاطلاع على هذه النواميس، أن هؤلاء الآلهة، هم الذين خلقوا الشر والكذب والجور والظلم، أي جميع أنواع السلوك المُنافي للأخلاق الكريمة عند البشر، لذلك وجدنا من ضمن ثبت هذه النواميس، التي أوجدها الآلهة لتسيير الكون وتنظيم شؤونه، ما يدل على التنوع والشمول، فنراها تتحدث عن الصدق والسلام والخير والعدالة، بل احتوى بعضها أيضاً على الرثاء والخوف.

وهنا يطرح السؤال الآتي نفسه، لماذا رأى الآلهة أنه من الضروري خلق الشر والظلم والإثم والألم والمصائب... إلخ؟

وفي هذا الصدد، يقول لسان حال المتشائم السومري، المثل الآتي: «لم يولد لأم طفلٌ بلا خطيئة»، ويبدو أن الحكماءَ السومريين، رأوا، أنَّ مشيئة الآلهة وبواعثها في أفعالها، لا يُدرك كنهها في الغالب، وأنّ السبيل الصحيح، الذي كان ينبغي على أي إنسان، ألّا يتساءل وألّا يُحاجج، إذا ما حلَّت به مصيبة لا مسوِّغ لها في الظاهر، وأن كل ما يمكن فعله في هذه الحالة، هو التضرع والندب والاعتراف بخطاياه وذنوبه، التي لم يكن منها بد، فكان الإنسان على الدوام، هو الملوم وليس الآلهة، وهذا ما ورد في قصة أيوب السومري المعروفة.

ويبدو أن العقيدة السومرية كانت تقوم على فكرة، أن الآلهة خَلقت الإنسان - من الطين- كي يخدمها، وقد اشترك في خلقها كل من الإلهين (إنكي) وأمه الإلهة (نمو) (إلهة البحر الأول)، بمساعدة الإلهة الأم (ننماخ)، فتقوم ننماخ بصنع البشر من الطين، ثم يعمد الإله إنكي إلى تقرير مصيرها.

وفي هذا الصدد - حين يخاطب إنكي أمه - نقرأ:

«يا أمّاه إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود.
فاربطي عليه صورة الآلهة.
أعجبني لب الطين الموجود فوق (مياه العمق)
واجعلي (الصانعين المهرة) يكثفون الطين.
وعليكِ أنتِ أن توجدي له الأعضاء والجوارح.
وستعمل (ننماخ) (الإله - الأم) من فوق يدك.
وستقوم بجانبك إلهة (الولادة) ... في أثناء صنعك.
يا أماه قدّري مصيره (أي مصير المولود الجديد)
وستربط (ننماخ) عليه صورة الآلهة؟
إنه الإنسان ...».

نتائج فقدان ألواح الأقدار

وهنا، لا بدّ من التساؤل، ما النتائج المترتبة في حال فقدان هذه الألواح؟ وهل يمكن حصول ذلك؟ وهنا، لا بدّ من القول: بما أن هذه الألواح تُمثل سلطة الإله، وهي التي يستطيع بواسطتها تسيير أمور الكون، فإن سرقتها (وقد حصل ذلك، خلال مدّة قصيرة من الطائر أنزو) تُسبب الكوارث، وقد يخلُّ ذلك بسير نظام الكون، وإدخال الرعب إلى قلوب الآلهة، لذلك اعتقد سكان بلاد الرافدين، بأن حسن سير نظام الكون، يكمن في إرضاء الآلهة، وأن غضب الآلهة، يعني عِقاب البشر، ويبدو أن وجود هذه الألواح بيد الآلهة، هو بالأساس، مُقدَّرٌ له، عبرها.

الـ مِهْ / ME وألواح الأقدار من خلال أساطير وملاحم وتراتيل ومراثي بلاد الرافدين

ورد كثيرٌ من الإشارات، التي تُشير إلى فكرة ألواح القدر ومفهوم الـ مي -ME، نواميس الحضارة، في كثيرٍ من الأساطير والملاحم الرافدية، وهي التي جعلتنا نُسلِّط الضوء عليها، من خلال الربط بينها، وهنا نذكر منها على سبيل المثال، فحسب:

١- أسطورة زيارة إنانا إلى إريدو وسرقة ألواح الأقدار.
٢- أسطورة الطائر أنزو (زو) الذي سرق ألواح القدر وعقابه.
٣- أسطورة إنكي ونظام العالم: تنظيم الأرض ومقومات حضارتها.
٤- أسطورة الإله إنكي والإلهة ننماخ، وخلق الإنسان.

٥- أسطورة نزول إنانا إلى العالم السفلي.

٦- أسطورة إرشكيجال ونرجال (ألواح القدر في العالم الأسفل).

٧- أسطورة (إينوما إيليش) حينما في العلا، قصة الخليقة البابلية... إلخ.

وهنا، سنقـوم بذكر بعض هذه الأساطير، مع الإشارة إلى الأماكن التي ورد فيها ما يُشير إلى هذه الألواح، ومنها:

١- أسطورة زيارة إنانا إلى إريدو وسرقة ألواح الأقدار

يـروي هذا النص خبر مغـادرة الإلهة إنانا مدينتها أوروك لزيارة مدينة إريدو معقل الإله إنكـي، بُغية نقل كنوز الحضارة (ألواح الأقدار - نواميس الـ ME) هذه الألواح التي يُفهم من تعدادها، أنها ليست سوى مجموعة من المعارف والفنون والعلاقات الاجتماعية، وكل ما جعل مـن مدينة إريدو عاصمة المعرفـة والسلطة، هذه المعرفة التي كانت تخوِّل القدرة والسلطة لمدينة إريدو، وهو المفهوم الذي لم يغفل عنه مفكرو بلاد الرافدين منذ ذلك الزمن.

وقـد صمَّمت الإلهة إنانا أن تذهـب إلى مدينة إريدو، المركز القديـم لثقافة سومر، إذ الإلـه إنكي رب الحكمة (الذي يَعْلَم ما تكنُّهُ قلوب الآلهـة)، ويسكن في مياه العمق (الأبسو)، ومالـك كل النواميس الإلهية الضرورية للعمران والحضارة، للحصول على نواميس الحضارة بالطرائق المشروعة أو غيـر المشروعة، لأن إحضارها إلى مدينتها أوروك، سيسمو مجدها - أي أوروك وإنانـا - على جميع المدن والآلهة، وقد اعتمدت إنانا على جمالها، هذا الجمال الـذي سحر إنكي عندما رآها تقترب من الأبسو، حيث يسكن، وقد استطاعت الحصول على هـذه النواميـس بعد أن اشتدَّ تأثير الخمرة فيه، فأعطاها هـذه النواميس، ثم غادرت إريدو مُتَّجهةً إلى مدينتها أوروك.

وفي ذكر هذه القوانين، وعلى لسان إنانا في تعدادها، تقول الأسطورة:

... الاستقامة، أعطاني إياها!

تخريب المدن أعطاني إياه!

ممارسة النواح أعطاني إياها!

القناعة أعطاني إياها!

المكر أعطاني إياه!

الثورة أعطاني إياها!

الرخاء أعطاني إياه!

التجول أعطاني إياه!

أمان السكن أعطاني إياه!

شغل الخشب أعطاني إياه!

شغل المعادن أعطاني إياه!

فن الكتابة أعطاني إياه!

صب المعادن أعطاني إياه!

صناعة الجلد أعطاني إياها!

صناعة النسيج أعطاني إياها!

فن العمارة أعطاني إياه!

صناعة السلال أعطاني إياها!

الذكاء أعطاني إياه!

مهارة الصنع - أعطاني إياها!

الاغتسال المقدّس أعطاني إياه!

مجمع السَّماد أعطاني إياه!

تكوين الجمر أعطاني إياه!

الحظيرة أعطاني إياها!

الاحترام أعطاني إياه!

الإجلال أعطاني إياه!

التحفظ أعطاني إياه!

الكذب – والفظاظة (؟) أعطاني إياها!

فن إشعال النار سلَّمني إياه!

فن إطفاء النار سلَّمني إياه!

العمل الجبري سلَّمني إياه!

ال ... سلَّمني إياه!

اجتماع العائلة سلَّمني إياه!



طبعة ختم تُظهر الإلهة إنانا وهي تستعد للذهاب إلى العالم السفلي



طبعة ختم تُظهر مركب الطوفان يحمل الحيوانات ونواميس الحضارة، «زيوسيدرا» يقود المركب وإله الشمس يساعده في التجذيف

المجادلة سلَّمني إياها!

التناسل سلَّمني إياه!

النصر سلَّمني إياه!

فن إسداء النصح سلَّمني إياه!

.... إلخ.

وفي ختـــام الأسطورة، نقرأ عن القيام بتفريغ حمولـــة السفينة من هذه النواميس، وذلك بحضـــور كَوَرَسٍ من الأمناء لإنانا، يستقبلـــون بالترحيب الأسس والسلطات، التي كسبتها إنانا لأوروك، ويُعددونهـــا الواحدة تلو الأخرى، في نوعٍ من الجرد لمحتويات السفينة، على الشكل الآتي (مختارات):

أي إنانا (أنتِ جلبتِ) منصب إين!

(أنتِ جلبتِ) منصب لاجال

(أنتِ جلبتِ) الوظيفة المقدسة

(أنتِ جلبتِ) التاج الشرعي العظيم

(أنتِ جلبتِ) العرش الملكي

.... إلخ

وتستمر الأسطورة في سرد هذه المنجزات إلى ختامها، الذي يتحدث فيه الإله إنكي عن قراره الأخير، تقول الأسطورة:

توجَّهَ إنكي إلى إنانا المقدسة

باسم سلطاني! وباسم الأبسو (مقري)

......

وليتمكن مواطنو مدينتك، وأطفال أوروك

من قضاء حياة ممتعة فيها

أم بالنسبة إليكِ، فمدينتك تبقى

طبعاً حليفة لإريدو،

ولتحتل أيضاً مركزها السابق ...

(وهنا تنتهي الأسطر والأسطورة).

والطريــف والمهــم في الأمر، هو ما رآه أحــد الشعراء القدماء، في أثنـــاء تأليف إحدى قصائـــده، في أن يذكر ثبتاً بجميـــع أنواع تلك (النواميس) أو القواعـــد الحضارية، إذ نجده يُحلــل الحضارة، كما عرفها، ويقسمها إلى نيفٍ ومئة عنصر من المقومات الحضارية، ولكن لا يُعــرف من جميع هـــذه المقومات والعناصر معرفةً واضحة، ســوى ستين عنصراً، وبعض هـــذه المقومات مجرّد كلمات لا يُعرف عن فحواها الحقيقي ســوى تلك الإشارة المقتضبة، إذ ينقصنـــا السّياق الذي يوضِّح المعنى. ومـــن هذه القوانين والعناصر الأكثر وضوحاً، نذكر، وحسب الترتيب الذي نَظمهُ الكاتب السومري القديم:

١- السّيـــادة، ٢- الألوهية، ٣- التاج العظيم الخالـــد، ٤- عرش الملوكية، ٥- الصولجان العظيـــم، ٦- الشارات الملوكيـــة، ٧- المزار المعظم، ٨- الرعايـــة، ٩- الملوكية، ١٠- مقام السّيادة النسوية الدائم، ١١ - السّيدة المقدسة (وظيفة كهنوتية)، ١٢- وظيفة الكاهن المُسمَّى (إيشب)، ١٣- وظيفة الكاهن المُسمّى (لو- ماخ)، ١٤- وظيفة الكاهن (جوتُج)، ١٥- الصدق، ١٦- الهبــوط إلـــى العالم الأسفــل، ١٧- القيامة (الصعود) من العالـــم الأسفل، ١٨- طائفة الخصيان المعرفة باسم (كرُجَــو- وّ)، ١٩- الخصيان من نوع (جِرّبَدّرا)، ٢٠- نوع الخصيان (ساجور ساج)، ٢١- راية (الحرب)، ٢٢- الطوفان، ٢٣- السِّلاح، ٢٤- الجِماع الجنسي، ٢٥- البغـــاء، ٢٦- القانـــون، ٢٧- القذف أو الطعن، ٢٨- الفن، ٢٩- حجـــرة العبادة، ٣٠- (البغاء المقدســـ) الخاصة بالسماء، ٣١- الآلة الموسيقية (جوسِلم)، ٣٢- الموسيقا، ٣٣- المشيخة، ٣٤- البطولـــة، ٣٥- القوة والسلطـــة، ٣٦- العداوة، ٣٧- الاستقامة، ٣٨- تدمير المدن، ٣٩- الرثـــاء، ٤٠- أفراح القلـــب، ٤١- الغش، ٤٢- البلاد الثائـــرة، ٤٣ - الصلاح والخير، ٤٤- العدالـــة، ٤٥- فـــن صناعة الخشب، ٤٦- فـــن صناعة المعادن، ٤٧- فـــن الكاتب، ٤٨- فن الحـــدادة، ٤٩- فن صناعـــة الجلود، ٥٠- فن البناء، ٥١- فن حياكـــة السلال، ٥٢- الحكمة، ٥٣- الانتباه والعناية، ٥٤- التطهير المقدس، ٥٥- الخوف، ٥٦- الوجل، ٥٧- الخِصام، ٥٨ - السِّلام، ٥٩- التعب، ٦٠- النصر، ٦١- الشورى، ٦٢- هموم القلب، ٦٣- القضاء، ٦٤- القرار والحكـــم، ٦٥ - الآلة الموسيقية (ليلشـــ)، ٦٦- الآلة الموسيقية (أب)، ٦٧- الآلة الموسيقية (ميسي)، ٦٨- الآلة الموسيقية (آلا).

ويـــورد الأستاذ الدكتور خزعل الماجدي في كتابـــه الموسوم: «متون سومر» وتحت عنوان (الـ مي) أي النواميس المقدسة، ثمانين ناموساً، وذلك حسب ما ورد في أسطورة إنانا.

ويمكـن أن نلاحظ أن هذه النواميس تشملُ جوانـب الحياة بوجوهها الإيجابية والسلبية، وقـد كان مقصـوداً منها الإشارة إلى السيطرة على كل مفاصـل الحياة، كما يبدو أنها تحدد وجود أهم الظواهر الكونيـة والاجتماعية- الثقافية، وما يتعلق بالملكية والطوفان والعداوة، والعرش، والحقيقة ... إلخ.

٢- أسطورة الطائر أنزو (زو) وعقابه

في هذا النشيد الأسطوري، نتعرَّف إلى أصل طائر الأنزو[١]، وعلاقته بالآلهة عامةً، وبالإله إنليـل خاصـةً، وعلى دوره الخياني، حين كان بخدمة إنليـل، وطموحه للاستيلاء على سلطة الآلهـة، حين استولى في غفلةٍ مـن إنليل على (لوح الأقدار) لوح السلطات كلها، التي يمتلكها إنليل كأداة لتسيير نظام الكون. فقد استولى على هذه اللوحة والتجأ إلى الجبل، حينها جمد الكـون، وتعطَّـل سيره، وانتاب الرعب جميع الآلهة، إذ فقـدوا سلطتهم، وكان لا بدّ من إنقاذ الموقف واستعادة لوح الأقدار. وهنا نرى – في الأسطورة – أن إنليل كان قد عيَّن أنزو حاجباً عنده، تقول الأسطورة:

عيَّنَهُ حاجباً على القاعة الداخلية التي كمَّل بناءها (أي إنليل)

وكان يستحم بالماء المقدس في كل يوم، وهو ماثل أمامه (أي أنزو)

فرأت عينا أنزو حلي سلطة إنليل ورموزها

رأى تاج السّيادة وثوب القداسة

وألواح القدر بين يديه

أطال أنزو التحديق في رب الدورانكي وأبي الآلهة

وعزم في النهاية على اغتصاب سلطة إنليل

سوف آخذ لنفسي ألواح القدر التي يمسك بها، ولسوف أتحكم بمقادير كل الآلهة!

سوف يكون العرش لي وأكون سيد الشعائر

وستكون لي السلطة على كل واحد من آلهة الإيجيجي

دبَّر أنزو في سرِّهِ خطةً للتمرد

وعند مدخل القاعة الذي كان يتلصص منها

انتظر طلوع الصباح

فلما بدأ إنليل يأخذ حمَّامهُ الصَّباحي في الماء المقدس،

وبعد أن خلع ثيابه ووضع تاجه على العرش

انقضَّ أنزو واختطف ألواح القدر

استولى على قوة إنليل

فَهُجِرت الشعائر

ثم طار ووجد لنفسه مخبأً

فاختفى الألق والبهاء عن القاعة

أخذت لنفسي كل شعيرة، وأنا الآن من يُصرِّف مقادير الآلهة!

وبعد نقاشات طويلةٍ، وبطلبٍ من الآلهة، وبمساعدة (أيا - إنكي) وإرشاداته، استطاع الإله نينورتا التَّغلب على أنزو، في معارك كبيرة، واسترد منه ألواح الأقدار، ليُعيدها للإله آنو (سيد السّماء) والإله داجان، وهنا فتح إنليل فمه متحدثاً إلى داجان:

عندما ذُبِحَ أنزو الشرير في وسط جباله

استرد نينورتا الصنديد بيده ألواح الأقدار

فلنرسل في طلبه إلينا، ويضع بين أيديكم ألواح الأقدار

وهنـــا، يعود نينورتا منتصراً ليأخــذ مكاسبه التي وُعِدَ بها، بعد أن أنقذ ألواح الأقدار من أيــدي الطائر الغريب أنزو، وهي - كما رأينا - أساس السلطات، وحسن سير نظام الكون، كما أنقذ جميع الآلهة، وأنقذ حكم أبيه إنليل خاصّة، فارتفع بذلك شأنه بين الآلهة، وخُصِّصت له كثيرٌ المعابد والهياكل وفي كل مكان.

٣- أسطورة الإله إنكي والإلهة ننماخ وخلق الإنسان

وفي هذه الأسطورة، نقرأ عن خلق الآلهة الإنسان، وفق المصير المُحدد له:

ثم نادى (إنكي) أمَّه الإلهة (نمّو) وقال لها:

.....

وعسى أن تُساعدك في ذلك الإلهة ننماخ (وهي إلهة أم أيضاً)

......

أمي: قرري مصير الإنسان، تُجيب الإلهة ننماخ:

عسى أن يكون العمل مصيره.

٤- أسطورة إيريشكيجال ونرجال (ألواح القدر في العالم الأسفل)

ملخص الأسطورة: أقامَ الآلهة في العالم العلوي مأدبةً وأرسلوا رسولاً إلى الأخت إرشكيجال بسبب عدم قدرتهم النزول إلى العالم السفلي، وعدم قدرتها الصعود إلى العالم العلوي، حسب مـا تقتضيه ألواح الأقـدار، التي تنظم - حتى- طبيعة الآلهـة، فأرسلت إرشكيجال حاجبها (نامتار) كي ينوب عنها، وعندما دخل نامتار إلى القاعة، تصرَّف الجميع معه باحترام، فأدوا لـه التحية. ويبـدو أن الإله نرجال - وحده- رفض الوقوف لتحيـة المندوب نامتار وتقديم الاحتـرام له، مما يُعبِّرُ عن إهانـة خطيرة - له- ولسيدته التي أوفدته، التي يبدو أنها علمت بذلـك، ولعدم حدوث أي نتائج كبيرة لهذا التصرف الخطير، يُسرِعُ نرجال نحو الإله الحكيم (أيـا - إنكي) طالباً مساعدته، فينصحه بتعديل مظهره وحلق رأسه، وهنا تطالب إرشكيجال بتسليمهـا المذنب، وتسير الأسطورة بذهاب نرجال إلى العالم السفلي مع مرافقيه، ويستطيع - بذكائـه- أن يستولي على المكان، ويُعامل إرشكيجال بعنف، ثم يتزوجها ويصبح سيد العالم السفلي، ويحصل منها على لوحة المعرفة، تقول الأسطورة:

ولما دخل القصر، قبض على إرشكيجال

وجذبها من شعرها، مِنْ على العرش إلى الأرض

بُغية قطع رأسها

لا تقتلني يا أخي (قالت له)

لدي ما أقوله لك

وحين سمعها تتكلم هكذا، أخفض نرجال يديه

قالت منتحبة، تملأ الدموع عينيها

كن قريني وسأكون زوجتك

وسوف أجعلك تتصرف بالملكية على العالم السفلي

وسوف أسلمك لوحة - المعرفة

وستكون أنت السيد، وأنا قرينتك

وقـد تكون هذه اللوحة (لوحـة المعرفة) هي الموازية للوحة الأقـدار في عالم السّماء، ورمزاً للسيادة على العالم السفلي، ورمزاً للحفاظ على هذه السيادة.

٥- أسطورة (إينوما إيليش) حينما في العلا، قصة الخليقة البابلية

تُعدّ قصة الخليقة من أشهر النصوص الأدبية التي خلّفتها حضارة بلاد الرافدين القديمة، وقــد عُرِفت (قصة الخليقة البابلية) عند الكتبة القدماء بعنوانها الأكادي (إينوما إيليش) أي (حينمــا في العلا). ويمثل هذا العنــوان مطلع الأسطورة، وحَسب تراث بلاد الرافدين الأدبي القديم، كان عنوان النص الأدبي، هو مطلعه.

وتعــدّ هذه الأسطورة على درجةٍ كبيرةٍ مــن الأهمية، إذ نجد فيها ميلاً إلى تجميع القوى الإلهية في إله واحد، مع عدم الخروج عن التعددية القديمة، وفيها إطلاق خمسين اسماً على ذلــك الإله، تعبيراً عن تجمُّع القدرات الكونيـــة - التي تمثلها تلك الأسماء - في يده، ويشكل هــذا بحدِّ ذاته، مقارنـــة مهمة بين القدرات الكونية، وهي جزء من النواميس الإلهية الـ ME مــع الأسماء الخمسين للإله، التي تمثل قدراته وصلاحياتــه، التي تفرَّدَ بها الإله مردوخ في العصر البابلي.

ويبـــدو أن هذه القصيدة ألّفها مفكـــرون وفلاسفة بابليون، كانوا على اطّلاع كامل وعميق على تراثهم السومري - الأكادي، الذي تناقلته التقاليد الشفهية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً، مع إعطاء الإله مردوخ المكانة الأولى في كل شيء.

ففي هذه الأسطورة صُوِّر خطرٌ بدائيٌّ كان يتهدد جميع الآلهة قَبل خلق البشر، ومردوخ هو البطل الوحيد الذي يُنقذ الجميع منه، وبكل ذكاء، بعد ذلك، عمد إلى الاستفادة من انتصاره، فخلق الكون والبشر ووضع كل شيء في مكانه، وحدد الأدوار وقرر المصائر، كل ذلك بفضل انتصـــاره على الإلهة تيامة، وحصوله على ألواح الأقـــدار، فاعترفت الآلهة بمجده، وأغدقت عليه جميع الألقاب والأسماء الإلهية الخاصة.

كما تروي هـــذه الأسطورة قصة أصول كُل الأشياء، فهي تروي قصة ولادة الآلهة وتحديد أدوارهـــا، وإطلاق عناصر الكـــون على مساراتها وفق نظام أقره الإله مردوخ، كما تروي قصة خلق البشر وتقريـــر مصيرهم ودورهم بوصفهم بشراً، كل ذلك بفضل امتلاكه ألواح الأقدار. ويمكن تلخيص الأسطورة حسب ما وردت في ألواحها كما يلي:

- اللوحة الأولى: العماء البدئي وولادة الآلهة، ثم نشوب الأزمة الأولى وتدخل الإله (أيا - إنكي)، ومن ثمَّ نشوب الأزمة الثانية والاستعداد للمجابهة.

- اللوحة الثانية: الآلهة المُهَدّدون يفتشون عن منقذٍ لهم، وتوجه الأنظار نحو الإله مردوخ.

- اللوحة الثالثة: منحت الآلهة مردوخ جميع الصلاحيات، وذلك بناءً على طلبه.

- اللوحة الرابعة: المعركة بين مردوخ وتيامة وجيشها الشرير بقيادة كينجو، ومن ثم النصر.

- اللوحة الخامسة: متابعة تنظيم الكون، ومبايعة الآلهة مردوخ، مشروع بناء بابل وخلق البشر.

- اللوحة السادسة: خلق البشر، ثم إقامة بابل، وتنصيب مردوخ، والبدء بتعديد أسمائه الخمسين، التي تدل على منحه القوة الإلهية.

- اللوحة السابعة: متابعة الألقاب والأسماء الخمسين لمردوخ، والتمجيد الأخير.

هذه هي باختصار، الأفكار الرئيسة لهذه الأسطورة. وفي تفصيلها، المتعلق بألواح الأقدار، نقرأ عن تسليم الإلهة تيامة قائدَ جيشها كينجو - قبل المعركة - ألواحَ السلطة والأقدار:

رفعت (أي تيامة) من قَدْرِ كينجو

مانحةً إياه، أعلى مرتبة بينهم

(وهي) السير على رأس الجيش

وإدارة مجلس - الحرب

(وكذلك) إصدار الأوامر للالتحام

وقيادة المعركة

والسلطة التّامة

على المحاربين

كل ذلك سلمته إياه

وأجلسته على كرسي - الشرف

(قائلة)، لقد لفظت من أجلك العبارة (السحري)

منحتُكَ

الإمارة عليهم جميعاً

كن إذن الأعظم بينهم

وليُشد باسمك

أمام جميع الأنوناكي

ثم سلمته لوح - الأقدار

التي ثبتتها على صدره (مُعلنةً)

لتكن أوامرك غير قابلةٍ للرد

ولتتحقق كلمتك

هكذا أُعلِيَ شأن كينجو

ووضِعت بيده السلطات العليا

ومن أجل الآلهة أبنائها

قررت لهم (تيامة) هذا المصير

هنا، وأمام هذا المشهد، عقد الآلهة الكِبار مجلساً للبحث في هذا الأمر الخطير، وقررت تفويض مردوك باستعادة ألواح القدر، مقابل تسليمه كل السلطات، وفي هذا الصدد، نقرأ:

إذا كان عليَّ أنا

الانتقام لكم

والإطاحة بـ(تيامة)

لإنقاذكم

اعقدوا مجلساً

وامنحوني سلطة فائقة!

في قاعة - اتخاذ - القرارات

اجتمعوا بكاملكم مسرعين

وأقروا في مكان - اجتماعكم، بكلمة واحدة منكم

أن أفوِّض بتقرير المصائر

وألّا يُبدل أي شيء

فيما سوف أنظمه بنفسي

وأن كل قرار صادر عن شفتيَّ

دون معارضة وغير قابل للنقض!

هنا، يقرر مجمع الآلهة الموافقة على طلب مردوخ، الذي يذهب إلى المعركة ليقابل كينجو وتيامة، التي كانت قد علَّقت ألواح الأقدار على صدره، وقد استطاع مردوخ التغلّب على كينجو وأخذ منه ألواح الأقدار، وبعد أن ختمها، علَّقها على صدره، ليبدأ بعدها بتنظيم الكون وفقها.

إن الباحث في تاريخ بلاد الرافدين القديم، سيجدُ نفسه أمام مجتمع تمور بين أفكاره عقائد ومعتقدات، تجعل منه تارةً، ينطلق في إطار التنمية الذاتية على الأصعدة كلها، وطوراً – ربما – ينغلق على نفسه، لأن قدراً ما قد اُتخذ، ولا حاجة للتغيير، وهنا تحدث الاستكانة.

لكنك، حقاً، ستجد أن هناك نزعة ذاتية (إنسانية) في العلاقة بين الآلهة والبشر، هي التي أنقذت إنسان بلاد الرافدين من الوقوع في القدريّة التّامة، وتركت للفرد نوعاً من الحرية، وإمكانية التأثير في مصيره، بشكلٍ أو بآخر، وستجد أن تطبيق هذه التعاليم المقرّرة يقود – حتماً – إلى تغيرات في المصير نحو الأفضل، وإلى (إطالة العمر)، في حين سيؤدي خرق هذه التعاليم نحو الأسوأ، ولكن الكلمة الأخيرة تبقى للآلهة، كما يقول هيرودوت: «ليغفر لنا الآلهة والأبطال، لكثرة ما ثرثرنا عن القضايا الإلهية». لكنها تبقى جولة لا بدّ منها في عالم مغامرات العقول الأولى لبلاد الرافدين. هم، ونحن من قام بها.

الهوامش

(١)– الأنزو: طائرٌ عملاق برأس أسد، وهو ضخم للغاية، إلى درجة أنه يسبب الزوابع والعواصف عندما يُرفرف بأجنحته، وهو من قوى العالم السفلي المدمرة، ويُسمى أيضاً (أنزو) بالسومرية، أو (زو) بالأكادية، وهو طير العاصفة الخرافي في المصادر الأكادية، وهو على شكل نسر برأس أسد، وفي بعض المصادر يرمز للموت والفناء.

المراجع

(١)– أسامة عدنان يحيى: الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم – دراسة في الأساطير، آشور بانيبال للكتاب، العراق، بغداد، ط١، ٢٠١٥م.

(٢)– خزعل الماجدي: متون سومر – الكتاب الأول – التاريخ – الميثولوجيا – اللاهوت – الطقوس، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الأولى العربية، ١٩٩٨م.

(٣)– خزعل الماجدي: إنجيل بابل، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الأولى العربية، ١٩٩٨م.

(٤)– د. ازدارد، و م.هـ.بوب، و ف. رولينغ: قاموس الآلهة والأساطير – في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية) في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، ترجمة: محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي، لبنان، بيروت، سورية، حلب.

(٥)- ديـوان الأساطيـر، سومر وأكاد وآشور – الكتاب الأول – أعطينـي، أعطيني ماءَ القلب – أناشيد الحب السومرية، ترجمة: قاسم الشّواف، تقديم: أدونيس، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.

(٦)- ديـوان الأساطير، سومـر وأكاد وآشور – الكتاب الثاني – الآلهة والبشر، ترجمة: قاسم الشّواف، تقديم: أدونيس، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

(٧)- ديـوان الأساطير، سومـر وأكاد وآشور – الكتاب الثالث – الحضـارة والسلطة، ترجمة: قاسم الشّواف، تقديم: أدونيس، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

(٨)- سامـي سعيد الأحمد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، لبنان، ٢٠١٣م.

(٩)- صمويـل كريمـر: من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، تقديم ومراجعـة: أحمد فخري، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

(١٠)- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – القسم الحضاري، بغداد، ج١، ١٩٥٥م.

(١١)- فاتن موفق فاضل الشاكر: رموز أهم الآلهة في العراق القديم – دراسة تاريخية دلالية، رسالة ماجستير.

(١٢)- فراس السوّاح: مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨١م.

(١٣)- كلشكوف: الحياة الروحية في بابل – الإنسان – المصير – الزمن، ترجمة: عدنان عاكف حمودي، دار المدى للثقافة والنشر، دراسات (١٢)، سورية، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

(١٤)- ماكس . س . شابيرو، رودا . أ . هندريكس: معجم الأساطير، ترجمة: حنا عبود، دار الكندي للترجمة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٩م.

(١٥)- نائـل حنون: دراسات في علم الآثـار واللغات القديمة، الجمهورية العربيـة السورية، هيئة الموسوعة العربية، دمشق، ط١، ج٢، ٢٠١١م.

(١٦)- وديع بشور: الميثولوجيا السورية – أساطير آرام، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت.

سورية
في عهد الإمبراطورية الرومانية

د. عبد الله السليمان

امتدت الإمبراطورية الرومانية من بحر البلطيق شمالاً إلى منابع نهر النيل جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى نهر الفرات شرقاً، حتى أمسى الرومان يدعون البحر المتوسط بفخر واعتزاز **Mare nostrum** أي (بحرنا)، وظل العرب يسمونه «بحر الروم» سبعة قرون على إخضاع الرومان له، ولم يكن هناك أي حدود أو قيود جمركية بين أرجاء الإمبراطورية، وبذلك شملت مساحاتٍ واسعةً امتدت على قارات العالم القديم الثلاث، ولم تخضع لسلطة واحدة من قبل. وقُدّر عدد سكان الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت نحو (٧٠) مليون نسمة، وكانوا يتحدثون لغاتٍ عدة إلا أن اللغة اللاتينية كانت تحتل مركز الصدارة، وكان من الصعب من الناحية الإدارية إدارة جميع هذه الأقاليم من روما عاصمة الإمبراطورية بالحكم المباشر، لذلك كان لا بد من تقسيم الإمبراطورية إلى ولايات، وهذه الولايات لم تظهر جميعها دفعة واحدة. نذكر منها: (إيطاليا صقلية، واليونان، ومصر، وآسيا الصغرى، وإسبانيا، وإفريقيا، وغالية (فرنسا)، وبريطانيا، والولايات الجرمانية، وولايات أخرى أقل أهمية منها).

كانت سورية واليونان ومصر وآسيا الصغرى أهم الولايات الشرقية، وكانت هذه الولايات ذات إرث حضاري تليد، ففي الأقطار الشرقية دخل الرومان بوصفهم محتلين وحاكمين لا بوصفهم رسلَ حضارة، كما كانوا في ولايات الإمبراطورية الغربية التي تحضرت قبائلها على يد الرومان. كان الأمر مختلفاً تماماً في الشرق، إذ كانت **اليونان** الملهم الأول للحضارة

اللاتينية، ومعظم المفكرين والفلاسفة والجغرافيين والمؤرخين كانوا إغريقاً يعيشون في ظل الدولة الرومانية، وكثير منهم ظل يستخدم اللغة اليونانية في الكتابة والإنتاج العلمي، أمثال المؤرخ اليوناني الشهير بوليبيوس الذي كان يعيش في ظل إحدى الأسر النبيلة. وكانت مصر ذات حضارة عظيمة، زاد عليها اليونان الذين حكموها أيام البطالمة؛ ومكتبة الإسكندرية هي خير شاهد على عظمة الحضارة الهلنستية في مصر، التي ورثها الرومان بعد أن سيطروا على مصر في أعقاب معركة أكتيوم البحرية سنة (٣١ ق.م). وكانت آسيا الصغرى ذات حضارة راقية، فجميع المدن المنتشرة في جنوبي البلاد وغربيها وشمالها كانت إغريقية الثقافة والحضارة.

أمَّا سورية في عهد الإمبراطورية الرومانية كان لها أهمية خاصة. كانت سورية خاضعةً لحكم الإمبراطورية السلوقية، وكانت مدينة أنطاكية عاصمةً لها، لكن تعاظم الأخطار الداخلية والخارجية التي أخذت تعصف بالدولة السلوقية أضعفتها وأدت في النهاية إلى سقوطها؛ ففي الداخل تزايدت أعداد المدن التي أخذت تطالب بالاستقلال الذاتي عن الدولة مثل صيدا وصور وطرابلس، ووصل ملوك غير أكفاء للحكم، ما صرفهم عن الإصلاحات الداخلية ومواجهة الأخطار الخارجية، التي تمثلت بالوجود اليهودي في فلسطين الذي أخذ يوسع دائرة نفوذه، وبمملكة الأنباط في جنوبي سورية التي بلغت أقصى اتساع لها في عهد ملكها الحارث الثالث (٨٧- ٦٢ ق.م). وظهرت في آسيا الصغرى مملكة بونتوس القوية، التي لم يَقِفْ توسعها باتجاه الجنوب إلا بتدخل الرومان بقيادة سولا Sull. وفي الشرق توسعت مملكة أرمينية، وتمكن ملكها من دخول أنطاكية عاصمة الدولة السلوقية والاستيلاء عليها في أواخر سنة (٨٣ ق.م)، لكن الجيش الأرمني لم يتمكن من الاحتفاظ بها واضطر إلى الانسحاب منها، فظهر ملك جديد للسلوقيين هو أنطوخيوس الثالث عشر، إلا أن حكمه لم يدم طويلاً، إذ تمكن الرومان بقيادة بومبي Pompée من القضاء عليه وعلى حكمه، واحتلال سورية سنة (٦٤ ق.م). معلناً بذلك بداية عصر جديد في تاريخ الشرق القديم انتهت معه الدولة السلوقية إلى الأبد، وأصبحت سورية ولاية رومانية.

فضَّلت روما في **إدارتها لسورية** الاعتماد على الجماعات المحلية، وكانت هذه السياسة الإدارية متَّبعة في أكثر من ولاية رومانية، إذ كان من الصعب إدارة سورية بغير هذا النوع من الحكم، فأعطى بومبي للسوريين نوعاً من الحكم الذاتي بوصفهم أصدقاء لروما، شرط عدم قيامهم بأي أعمال من شأنها الإضرار بسياستها الخارجية. وكان عليهم أن يدفعوا الضرائب

المترتبـة عليهم، وتكفل الدولة الرومانية لهم مقابل ذلك السلم والأمان. لذلك اعترف بومبي بأنطوخيوس ملكاً على كومَّاجيني Commagene (تمتد على سهول كيليكية بين سفوح طوروس ونهـر الفرات)، وبأحـد الأمراء المحلين حاكمـاً على كيليكية الشرقيـة، واعترف بالمملكة المكابيـة في فلسطين، وبإمارة حمص Emesa في وسط سورية، وباتحـاد المدن العشر الإغريقية Decapolis في شرقي الأردن التي أعلنت ولاءها له مقابل احتفاظها باستقلاليتها، وأعطيـت الرُّها لأمير عربي يدعى أبجـر الثاني Abgarus II. ومنَحَ أنطاكية ومدينة سلوقية علـى العاصي امتيازات كثيرة. إلا أن بومبي أخفق في إخضاع الأنباط الذين كانوا يسيطرون على الجزء الأعظم من جنوبي سورية (صرخد، وبصرى الشام، والبتراء).

وفـي سنـة (٦٢ ق.م) بدأ بومبي بالضغط علـى الأنباط والتضييـق عليهم بسبب موقع بلادهم التجاري، وقد أدرك الحارث الثالث أن لا طاقة له بروما وجيشها فلجأ إلى المهادنة، وقَبِلَ بدفع مبالـغ مالية كبيرة لبومبي، الذي عدّها هذا الأخير نوعاً من الاعتراف السياسي بسلطـة الرومان علـى الأنباط، لذلك وضع صورة الحارث في موكـب نصره بعد عودته إلى روما، كما أمر بصك نقودٍ عليها صورة الحارث الثالث وهو منكس الرأس، حاملاً سعفة نخيل تعبيراً عن استسلامه. وهكذا خضعت سورية بكاملها لسيطرة الرومان الذين جعلوا منها ولاية واحدة عاصمتها أنطاكية.

بعـد أن وطّـد بومبي أمور الشرق عـاد إلى روما نحو سنـة (٦٠ ق.م)، التي كانت تعيش أحداث صراع سياسي انتهى بتشكيل حكومة ثلاثية مؤلفة منه ومن كراسوس Crassus ويوليوس قيصـر. ونظراً لأهمية سورية جعلها الرومان ولاية قنصلية، وهكذا حصل الولاة الذين عينوا فيهـا على مرتبة وصلاحيات قنصل، وتراوحت مدة حكمهم مـا بين (٣- ٥) سنوات، وكانت تحت إمرتهم أربع فرق عسكرية، وكان والي سورية مسؤولاً عن سلامة ممتلكات الإمبراطورية الرومانيـة في آسيا الغربية. كان أول ولاتها أولوس غابينيوس Aulus Gabinius الذي تجاوز حدود ولايته وتدخل في شؤون مصر البطلمية وأعاد بطليموس الثاني عشر (الملقب بالزمار) إلـى عرشة في سنة (٥٥ ق.م)، كما تدخل في مشـكلات العرش الفرثي، مما زاد العداء بين الفرس والرومان.

خلفـه كراسوس (أحد أركان الحكومـة الثلاثية)، الذي لم تدم ولايته أكثر من سنة واحدة (٥٤- ٥٣ ق.م)، إذ قتلـه الفرثيون في معركة كراهـاي Crahae (قرب الرها) سنة (٥٣ ق.م)



مسرح بصرى

ووقع باقي جيشه في الأسر. وعلى الرغم من هزيمة الرومان والعرب الذين كانوا في جيش كراسوس للمعركة، إلا أن الفرثيين لم يهاجموا سورية عقب هذا الانتصار مباشرة. بل انتظروا حتى سنة (٥١ ق.م) واجتاحوا أراضيها حتى بلغوا أنطاكية، لكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها، إذ تصدى لهم كاسيوس (الذي خلف كراسيوس في إدارة سورية)، وردّهم على أعقابهم.

أدى مقتل كراسوس إلى تفاقم العداء بين يوليوس قيصر وبومبي بشكل سافر. وفي سنة (٤٨ ق.م) دخل بومبي في نزاع مفتوح مع قيصر أدى إلى حرب أهلية حقيقية، وقفت أنطاكية فيها بجانب يوليوس قيصر الذي انتصر على بومبي في معركة فارسالوس في السنة نفسها، وقُتِل بومبي على أثرها، وكان العرب الأنباط قد قدموا لقيصر فرقة من الفرسان لتؤازره في حملته على الإسكندرية في أثناء مطاردته لبومبي.

خسرت سورية كثيراً خلال هذه الحرب الأهلية؛ لرفدها جيوش بومبي بالجنود والمواد التموينية، وقد أدرك قيصر ما أصاب سورية في أثناء مروره بها سنة (٤٧ ق.م) بسبب هذه الحرب، وأراد أن يخفف عنها فخفض الضرائب، ونقل حق جبايتها من أيدي الملتزمين الرومان إلى الحكام المحليين، وعمل على النظر في مطالب السوريين ووزع الهبات والامتيازات على المدن التي ناصرته كاللاذقية وجبلة وبيروت وحصلت أنطاكية على حصة الأسد، في حين حرم صور التي كانت مقراً لتجمع أنصار بومبي، واعترف بالأنباط الذين أعلنوا ولائهم له، وأبقى مدينتي الرستن وحمص بيد أمرائها، وكذلك فعل مع عنجر وبعلبك إذ تركها بيد حكامها الأيتوريين. وعين والياً على سورية قبل أن يعود إلى روما وهو أحد أقربائه ويدعى سكستوس قيصر (٤٧- ٤٦ ق.م).

إن سياسة قيصر الإدارية في سورية لم تكن تختلف أبداً عن سياسة الدولة الرومانية الإدارية، التي كانت تعتمد على الزعامات المحلية بوصفهم أصدقاء لروما، مع وجود والٍ روماني مهمته الإشراف على سير الأمور.

وكانت الحملة ضد الفرثيين من أهم المشروعات التي ينوي قيصر القيام بها، ولكن اغتياله سنة (٤٤ ق.م) وضع حدّاً لهذا المشروع.

بعد مصرع يوليوس قيصر شهدت روما حرباً أهلية جديدة نتج عنها تقسيم الإمبراطورية الرومانية بين كلٍّ من أنطونيوس وأوكتافيانوس وليبدوس. إذ تشكلت منهم حكومة ثلاثية كانت سورية فيها من نصيب أنطونيوس، وفي سنة (٤١ ق.م) زارت كليوباترا ملكة البطالمة في مصر أنطونيوس في مدينة طرسوس في ولاية كيليكية في آسيا الصغرى ودعته لزيارة مصر. في تلك الأثناء اجتاح الفرثيون سورية، (عدا مدينة صور) وحكموها سنة كاملةً، مستغلين إهمال أنطونيوس لولاية سورية وقيام ثورة في أرواد ضده سنة (٤٠ ق.م)، كما أن الأنباط قدَّموا كامل الدعم والتسهيلات لتقدم القوات الفرثية نكاية بالرومان الذين دعموا الدولة المكابية في فلسطين. وبعد أن عالج أنطونيوس بعض مشكلاته في الغرب عاد إلى الشرق مرة أخرى في سنة (٣٩ ق.م)، وكان الفرثيون لايزالون يحتلون سورية. وأمام هذا الواقع الجديد كلَّف أنطونيوس قائد جيشه المدعو فنتيديوس بالتصدي للفرثيين، وبالفعل نجح القائد في مهمته في أواخر سنة (٣٧ ق.م)، إلا أنه أخفق في القضاء على حاكم سورية الكوماجينية بتهمة ميوله للفرثيين. وفي المقابل نجح في إجبار الأنباط على دفع تعويضات مالية كبيرة عقوبة على موقفهم في أثناء تقدم القوات الفرثية. ولم تختلف سياسية أنطونيوس في الإدارة عن سياسية سابقيه، إذ أعطى الزعماء المحليين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي مقابل تحصيل الضرائب، وعدم قيامهم بأي اتصال مع الفرثيين أو مع منافسيه في مدينة روما. وراح يعد العدة لحرب الفرثيين واستدعى كليوباترا إلى مدينة أنطاكية، وفي ربيع سنة (٣٦ ق.م) شن هجوماً ضد الفرثيين إلا أنه لم يستطع الثأر لمقتل كراسوس، بل إنه مني بهزيمة فادحة وجلب لروما عاراً أكبر.

كانت سنة (٣٤ ق.م) الأبرز في تاريخ سورية في عهد أنطونيوس، التي أعلن فيها زواجه من كيلوباترا، وتنازله لها عن كامل جوف سورية بما في ذلك فينيقية وبلاد الأنباط. وهذا ما أثار غضب مالك الأول الذي أعلن صراحة أنه لن يدفع الجزية لكليوباترا، فأوعز أنطونيوس

إلى هيرودوس عامله على فلسطين بشن حرب على الأنباط أجبر مالك في نهايتها على دفع الجزية للرومان.

إن تنازل أنطونيوس عن أجزاء من أراضي الدولة الرومانية لكليوباترا كان الخطيئة الأكبر له، التي استغلها أوكتافيانوس خير استغلال إذ صوّر للشعب الروماني مدى استهتار أنطونيوس بحقوق الشعب الروماني وتفريطه بجزء من أراضي الدولة الرومانية في ولاية سورية، بعدما غدا أسير هوى امرأة شرقية وهذا يتناقض مع مبادئ الجندية الرومانية. وسرعان ما اشتعلت حـــرب أهلية جديدة انتهت في معركة أكتيوم البحرية سنة (٣١ ق.م)، جعلت من أوكتافيانوس الحاكم الأوحد في الدولة الرومانية بلقب أوغسطس.

إن انتصار أوغسطس في معركة أكتيوم على أنطونيوس واحتلاله لمصر، سمح له أن يضع حداً لحـــرب أهلية أرهقت العالم الروماني، وأعطاه الفرصـــة للقيام بجملةٍ من الإصلاحات السياسية والإدارية والاقتصاديـــة الواسعة. بدأت مع هذه الإصلاحات مرحلة جديدة عرفت بعصر السلام الأوغسطسي Pax Augusta. وكانت ولاية سورية من بين الولايات التي أسندت إدارتها إلى أوغسطس بموجب الاتفاق الذي أبرم بينه وبين مجلس الشيوخ الروماني سنة (٢٧ ق.م)، إذ قسم أوغسطس الولايات إلى نوعين: سناتورية تتبع لمجلس الشيوخ، وإمبراطورية تتبع للإمبراطور. وكانت سورية ولاية إمبراطورية وذلك لأهميتها الإستراتيجية. وبقيت عاصمتها أنطاكيـــة، وتولّى إدارتها مبعوثون يحملون لقب منـــدوب أوغسطس Legatus Augusti، ولهم مرتبة قنصـــل سابقPro Consul أو براتيور سابـــقPro Praetor ؛ ويقوم الإمبراطور بتعينه، ويكون مسؤولاً أمامه، ولهذا المبعوث مساعد من طبقة الفرسان يتولى الإشراف على الشؤون المالية.

توالـــى علـــى حكم سورية في عهـــد أوغسطس عدد من الـــولاة، وكان الوالي يشرف على الشـــؤون الإدارية والعسكرية والاقتصادية فيهـــا، تساعده هيئة إدارية تنفيذية تتألف من نحو (٣٠) موظفـــاً، وكان لهذه الهيئة سلطة على المواطنين السوريـــن وعلى المواطنين الرومان المقيمين، وكان على هذه الهيئة مراعاة الحقوق والامتيازات والعادات والتقاليد السائدة في المدن السوريـــة. وكان الوالي (مبعوث الإمبراطور) يقوم بحمـــلات التفتيش بهدف الحفاظ على أمن الولاية، وكان يحضر الاحتفالات بحكم أنه يمثل الإمبراطور والولاية. وزاد أوغسطس عدد القوات الرومانية المرابطة في سورية؛ من ثلاث إلى أربع فرق عسكرية (رابطت الأولى

قرب كوماجيني، والثانية بالقرب من اللاذقية، والثالثة قرب أنطاكية)، كما وُضِعَت كتائب في المناطق المهمة جداً كتدمر ودورا أوروبوس، وذلك بسبب تهديد الفرثيين الدائم للمنطقة. وحتى يجنب أوغسطس ولاية سورية شر الحرب مع الفرثيين، عقد صلحاً بينه وبينهم، وحرص الفرثيون على إظهار حسن النية فأعادوا الأعلام والأسرى الرومان الذين وقعوا في أيديهم خلال حملتي كراسيوس وأنطونيوس، وتوصل الرومان والفرثيون خلال حكم أوغسطس إلى حالة من التعايش السلمي Modus vivendi.

انصرف الولاة الرومان في سورية إلى أمور البناء والإعمار ورصف الطرقات وإحصاء السكان، فأعادوا بناء مدينة بيروت ووضعت بها فرقتان عسكريتان، وحملت مدينتا أنطاكية واللاذقية في عهد أوغسطس لقب ميتروبولوس. إلا أن الحكم الذاتي الذي تمتعت به أنطاكية في عهده لم يكن إلا نظرياً، لأنّها عاصمة الولاية ومقرٌّ لقيادة فرق الجيش الروماني المرابطة في الولاية. وحافظ الرومان على سياستهم القديمة التي اتبعوها في عصر الجمهورية والتي تقضي بالاعتراف بسلطة بعض العائلات الحاكمة، كما في مملكة كوماجيني، التي كانت تمتد على الأراضي الواقعة بين نهر الفرات وجبال طوروس، وفي المقابل حرم أوغسطس مدينة أفاميا من الاستقلال الذاتي بسبب وقوفها إلى جانب خصمه أنطونيوس. وعزل أمير حمص وأعدمه وحرم سلالته من الحكم عشر سنوات، ثم أعادهم إلى الحكم بعد أن اقتنع بضرورة وجود إمارة قوية فيها، ونحن لا نعرف حدود إمارة حمص من جهة الغرب إلا أن سيطرتها امتدت في الشرق حتى حدود مملكة تدمر. والظاهر أن أوغسطس قد رسخ سياسة بومبي الإدارية في تأييد الحكومات المحلية، ويقول المؤرخ تاكيتوس إن ولاية سورية قد أُرهقت من الضرائب التي فُرِضَت عليها في عهد أوغسطس.

وبعد موت أوغسطس تولى تيبيروس (١٤- ٣٧م) الحكم، الذي زار سورية وتابع سياسة سلفه في الإنشاء والإعمار، وقام بضم الحكومات المحلية ووضعها تحت سلطة الوالي الروماني المباشرة، ففي عهده توفي أنطوخيوس الثالث ملك كوماجيني سنة (١٧م)، وعلى إثر ذلك شهدت هذه المملكة اضطرابات ما بين مؤيد ومعارض للحكم الروماني، انتهت بتحويلها إلى ولاية رومانية خاضعة لسلطة والي سورية الروماني. وكذلك ضُمَّت تدمر لولاية سورية سنة (١٩م)، وكانت من قبل تابعة إدارياً لا عسكرياً للسلطة الرومانية، ويعد تيبيروس أول من أخضع تدمر للحكم الروماني. وقد واجه تيبيروس بعض المشكلات مع الأنباط الذين ضموا دمشق لملكهم سنة (٣٧م) أيام الحارث الرابع (٩ق.م- ٤٠م)، فطلب تيبيروس من واليه على

سورية أن يحتل البتراء وأن يرسل له الحارث حياً أو ميتاً، لكن تيبروس مات بعد تلك الحادثة بأيام وبقيت دمشق بيد الحارث.

وبعد انتحار نيرون سنة (٦٨م)، توجه **فسباسيان** (٦٩- ٧٩م) الذي كان في فلسطين يحارب اليهود، إلى روما على عجل لتولي الحكم فيها، وأسند مهمة قتال اليهود لابنه تيطيوس؛ الذي نجح في مهمته إذ دمر أورشليم سنة (٧٠م) واستولى على كنوز المدينة، وقضى على الاضطرابات، وقد ساعده في ذلك جنود الممالك التابعة للرومان في سورية (الأنباط وكوماجيني وحمص). وتجدر الإشارة إلى أن فسباسيان وصل إلى الحكم بفضل الفرقة الرومانية المرابطة في سورية التي أخلصت له.

شهد أواخر القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني إحكام الرومان سيطرتهم على ولاية سورية، ويعود ذلك إلى تنامي الخطر الفرثي في الشرق. فقد خص **ترايان** (٩٨ - ١١٧م) سورية بعناية مميزة، ولاسيما أنه كان على معرفة جيدة بأحوالها، وهو الذي كان قد شغل فيها مناصب عسكريةً في أثناء حكم أبيه.

زار ترايان سلوقية بيريه وأنطاكية التي أدّت دوراً مهماً في حربه مع الفرثيين، وقد أصابها زلزال كبير في عهده، فأعاد إعمارها وأنشأ البوابة الوسطى فيها، كما قام بضم تدمر ودمشق لولاية سورية ووضع في تدمر أول حامية عسكرية رومانية، كما ألغى الممالك المتمتعة بالحكم الذاتي (كوماجيني، وحمص، واتحاد المدن العشرة) ودمجها بولاية سورية الرومانية، وذلك لتوحيد الصف الداخلي في مواجهة الخطر الفرثي. ومن أشهر ولاة سورية في عهده كودارتوس (١٠٠- ١٠٤م) الذي خطط الحدود بين تدمر وأفاميا. والوالي كورنيليوس بالما (١٠٤- ١٠٨م) الذي زحف إلى البتراء في سنة (١٠٦م) وضم مملكة الأنباط للدولة الرومانية، وأسس في السنة نفسها الولاية العربية Provencia Arabia، التي ضمت إضافة إلى مدينة بصرى الشام بلاد الأنباط وتدمر وجرش وعمان، وعين عليها حاكماً رومانياً، وجعل من بصرى عاصمة لها ومقراً للفيلق الثالث، وصَكّ عملة رومانية بهذه المناسبة. ويبدو أن لعمله هذا دوافع اقتصادية هدفها السيطرة على طرق التجارة في المنطقة وتنشيطها، حيث أنشأ طريقاً بين أيلة (العقبة) وتدمر مروراً بالبتراء وبصرى. كما أمر بإعادة حفر القناة الواصلة بين البحر الأحمر ونهر النيل. وفي أيامه كان يحكم منطقة الرها أمير عربي يدعى معنو (معن) وله نفوذ كبير بين القبائل العربية التي تنتشر في المناطق المجاورة، لكنه رفض

المثول بين يدي ترايان عندما طلب منه ذلك، بل تراجع نحو البادية، فاستولى الرومان على جبل سنجار الذي كان يقع في مناطق نفوذه.

قام الإمبراطور **هادريان** بزيارات كثيرة إلى ولايات الإمبراطورية؛ إذ زار تدمر سنة (١٣٠م) ومنحها لقب «هدريانا بالميرا» (تدمر هادريان) لذلك أصبحت تعرف باسم مدينة هادريان، ومنح سكانها حقوق المواطنة الرومانية، وأعفى تجارها من الضرائب، كما زار غزة وأنطاكية. وأطلق على فلسطين اسم ولاية سورية الفلسطينية نحو سنة (١٣٥م)، وقضى على تمرّد لليهود فيها. أما الإمبراطور **ماركوس أوريليوس** (١٦١– ١٨٠م) فقد زار أنطاكية ذات الأهمية السياسية والاقتصادية. ولقيت حوران منه اهتماماً واضحاً، حيث شقَّ الطريق الواصل بين بصرى ودرعا. وكان من أهم منجزاته دائرة الأحوال المدنية التي يلزم فيها جميع السكان بتسجيل مواليدهم لدفع الضرائب.

بعد أن أعلن **سبتيموس سيفيروس** (١٩٣– ٢١١م) قائد الفرقة الرومانية الرابعة المرابطة في سورية نفسه إمبراطوراً، كان أول عمل قام به القضاء على خصمه (ينجر) الذي أعلنه جنوده إمبراطوراً في أنطاكية وإذلال هذه المدينة التي طالما سخر أهلها منه، إذ نقل الألعاب الأولمبية منها إلى أيسوس؛ عقوبة لأنطاكية وتكريماً لأيسوس التي انتصر فيها. أما اللاذقية التي ساندته فقد أنعم عليها بالعطايا وأعاد تشييد بعض الأبنية فيها وقام بتجميلها وأعطاها عدة امتيازات، وأهمها أنه جعل أنطاكية تابعة لها إدارياً فتوجّب عليها أن تدفع الضرائب للاذقية التي حصلت على لقب ميتروبوليس، وبذلك تكون أنطاكية قد حُرِمَت من مكانتها عاصمةً لولاية سورية الرومانية. كما قام سيفيروس بتقسم سورية إلى قسمين، سورية الفينيقية وسورية المجوفة، ضم القسم الأول سهول العاصي وأنطاكية والمدن البحرية وعاصمتها اللاذقية، وعسكرت فيها فرقتان. أما القسم الثاني فكان في الجنوب الشرقي وبعلبك وحمص وتدمر ودمشق وحوران وشرقي الأردن وعسكرت فيه فرقة واحدة. وبعد فترة صَفَحَ سفيروس عن أنطاكية فزارها وزار أفاميا، وأصبحت حمص مستعمرة بامتيازات إيطالية، وشقت فيها طرق المواصلات وأقيمت فيها الأبنية العامة والدينية. أما تدمر فرفعها إلى مرتبة مستعمرة. وعلى الصعيد العسكري اتخذ سيفيروس من سورية قاعدة لحملاته على الإمبراطورية الفرثية، التي حقق فيها انتصارات كبيرة، وفَّر من خلالها الأمن على الحدود الشرقية لولاية سورية. كما تنسب له حملة عسكرية على بلاد العرب السعيدة سنة (٢٠١م)، إلا أن المعلومات المتوافرة عنها تكاد تكون معدومة، فربما لم يتجاوز بها مضارب ثمود. وفي

سورية تـزوج سيفيروس من جوليا دومنا؛ الأميرة السوريـة الحمصية، مدفوعاً بعدة أسباب منها: مكانة أسرتها الدينية وثقافتها العالية، وبعض النبوءات عن زواجه بأميرة سورية ستجلب له الحظ والسعادة. ازداد في هذه المرحلة تأثير حضارة الشرق في الإمبراطورية الرومانية. فمـن الناحية السياسيـة أخذت الأساليب الشرقية بالتوغل داخـل النظام الإمبراطوري، من خـلال نظام الحكم الفـردي، كما تأثر الرومان بالديانة الشرقية، عـن طريق النسوة اللواتي تبـوأن عرش الإمبراطوريـة، فأورثن أولادهن عبادة الآلهة السوريـة، وانتقل هذا التأثير إلى سيفيروس (زوج جوليا دمنا) الذي عَمَدَ بنفسه إلى وضع التماثيل الدينية الشرقية في المعابد الرومانيـة. كما ألف الرومـان الأناشيد والتراتيل الدينية لإنشادهـا في الاحتفالات الدينية بأعياد آلهـة الشمس. أما من الناحية الدستورية، فإن ثمة عناصرَ سورية تدفّقت إلى مجلس الشيـوخ في روما، حتى بلغ عدد أعضاء المجلس من أصل سوري في القرنين الثاني والثالث الميـلادي رقماً لم تشهده روما في تاريخها من قبل. وتقلّد بعض السوريين منصب القنصل، ومناصـب قيادية في الجيش والمجلـس الاستشاري الذي أحدثته جوليا دومنا. وعندما تولى **كركلا** (ابن سيفيروس وجوليا دومنا) الحكم (٢١١- ٢١٨م) أصدر القانون الإمبراطوري الذي منـح بموجبه حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان. مـع العلم أن المواطنة الرومانية لم تلـغِ المواطنة المحلية، لكنها جعلت من سكان الإمبراطوريـة كتلة واحدة تابعة للإمبراطور. وكان كـركلا يدير الأمور بمشورة أمـه السورية. وقد بلغت التجارة السورية أوج ازدهارها في القـرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلادي بسب المرسوم الذي أصدره كركلا بإعفاء تدمر من الضريبة.

شهـد القرن الثالث الميـلادي اعتلاء شخصيـات ذات أصول عربية العرشَ الروماني كـ«**إيلاجبالوس** Elagabalus» (٢١٨- ٢٢٢م)، الـذي كانت مدّة حكمه مـن أكثر المُدَد التي تأثـرت فيها روما بالثقافة السوريـة، وكان الإمبراطور يدير الأمور بمشـورة جدته السورية جوليـا ميسـا، التي شكّلت مجلس مـن النساء شبيه بمجلس الشيوخ تقـوم هي على رئاسته، مهمته البحث في أمور اللباس والمراسيم والاستقبال والبروتوكولات. وقد حرص الإمبراطور علـى إظهار عظمة إله حمص (إله الشمس)، وأمـر بعبادته متقدماً على سائر آلهة روما. إلا أن هذه الأعمال وسياساته الاقتصادية الفاشلة أدت إلى كراهية الرومان له في كل الولايات. وعندمـا قتل إيلاجبالوس هو وأمه في آذار سنـة (٢٢٢م) أعيد الحجر المقدس إلى موطنه فـي مدينة حمص، فخلفـه ابنه بالتبني المدعو **الإسكندر سيفيروس** Alexander Severus

(٢٢٢- ٢٣٥م) علـى العرشـ وذلك بدعم جدته له، ولم يكن قد تجاوز (١٤) من عمره، لذلك شُكل له مجلس وصاية تألف من (١٦) شيخاً حتى يبلغ السن القانونية، إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد جدتـه حتى وفاتها سنة (٢٢٦م). وبعد وفاتها شرع الإمبراطور الجديد في إصلاح مـا أفسده سلفه **إيلاجبالوس**، فأعفى دمشق من الضرائب وحوَّل بصرى إلى مستعمرة، وزار تدمر نحـو (٢٣٠- ٢٣١م)، ومن ناحية أخرى أعاد المكانـة الدينية لآلهة روما. وشهد عهده سقوط الإمبراطوريـة الفرثية وقيام الإمبراطورية الساسانيـة مكانها. ويبدو أن الإسكندر **سيفيروس** لم يرضِ الجنود، الذين ثاروا ضده فقتلوه وقتلوا قائد جيشه وقتلوا والدته جوليا ماميا سنة (٢٣٥م).

بعـد عشر سنوات من مصرع إسكندر **سيفيروس**، ارتدى شاب عربي اللون الأرجواني في روما في سنة (٢٤٤م) إذ عرفت روما إمبراطوراً سورياً آخر على عرشها؛ هو **فليب الحوراني** (٢٤٤- ٢٤٩م) الذي كان أبوه أحد مشايخ حوران.

ولـد **فيلـب** في بلدة شهبا، وقد ارتقى إلى عرش الإمبراطورية في مدينة زيتا بالقرب من دورا أوروبوسـ إثـر مقتل جورديان الثالث في حربه مـع الساسانيين، وقد انتهج فيليب عدة إصلاحات منها إلغاء السخرة والاهتمام بكل ما من شأنه كسب ثقة الشعب، وعمل على تهدئة جبهات القتال مع الساسانيين.

لم يتوقف عطاء ولاية سورية الرومانية عند هذا الحد، ففي عهد الإمبراطور فالريانوس (٢٥٣- ٢٦٨م) بـرز دور **أذينـة الثاني**، الذي استطاع وقف الغـزو الساساني وساعد الرومان فـي الانتصار على القوات الساسانية فأنعم عليه بلقـب قنصل. ثم أخذ بعد ذلك يعمل على استرجاع المناطق التي استولى عليها الفرس من الرومان فاسترد الرها ونصيبين، وتوغل ثانية فـي المناطق الفارسية، وحاصر عاصمتهم، وفي أثناء حصاره هذا عبر القوط البحر الأسود باتجاه آسيا الصغرى قاصدين سورية، فاضطر أذينة إلى ترك الحصار لردّهم على أعقابهم، فولـى القوط الأدبار هاربين، وعندما أراد العودة لمتابعة فتح عاصمة الفرس طيسفون، لقي مصرعه في حمص في ظروف غامضة سنة (٢٦٧م). وبعد مقتله انتقل الحكم إلى ابنه وهب اللات من زوجته زنوبيا، وكان قاصراً لذلك تولت الوصاية عليه أمه زنوبيا.

اتّبعـت **زنوبيـا** سياسة عربية تقربت بها إلى البداة، وتـوددت إليهم، واعتمدت عليهم في جيشهـا، كما عملت على تكوين دولة قوية تحت زعامتها، وبالفعل استولت على سورية ومصر

وأجــزاء من آسيــا الصغرى مستغلة أوضاع الرومان، حتى زحــف أورليان (٢٧٠- ٢٧٥م) إلى تدمر وأسرها. وعندما استلم دقلديانوس الحكم (٢٨٤- ٣٠٥م) قسَّم سورية إلى قسمين؛ الأول سورية المجوفة وعاصمتها أنطاكية، والثاني أوغستا الفراتية وعاصمتها كيروس.

بــدأت أعمال بناء القسطنطينية في سنة (٣٢٥م)، وافتتحت المدينة رسمياً في (١١ مايو ٣٣٠م)، وعلــى الرغم من أن اسم القسطنطينية حل محــل الاسم الذي اختير لها وهو (روما الجديدة)، إلا أن سكانها ظلّوا يسمون أنفسهم بالرومان حتى سقوطها.

كان مشــروع روما الجديدة قد أتم مــداه عند انتهاء مدّة حكم الإمبراطور تيودوسيوس، إذ قُسّمــت الإمبراطورية إثر وفاته في سنة (٣٩٥م) بين ولديه؛ ونُصّب هونوريوس إمبراطوراً علــى الولايات الغربية، في حين نُصّب أركاديوســ إمبراطوراً على الولايات الشرقية. وكانت سوريــة أهم أجزاء القسم الشرقي الذي صار يعرف باسم الإمبراطورية البيزنطية، واستمرت سورية تابعة لهذه الإمبراطورية إلى أن حررها خالد بن الوليد في معركة اليرموك التي جرت شمال غرب مدينة درعا.

المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر

عزيز اسمندر

حيـن يكـون الأدب العظيم وعـاءً للثورة العظيمة، يغدو من خلال الكلمة المنسـوجة من لحمٍ ودمِ القضية سفراً للقضية، ونشيداً مجيداً من أناشيدها.

ومن خلال أدب المقاومة، أدب الثورة الجزائرية نقرأ في ضوء اللهب المتّقد من دمِ الثوار ملحمةَ البطولةِ والفداءِ للإنسان والكلمة معاً.

إن الباحث فـي الثـورات الإنسـانية لا يقـف عند هـذه الثـورات، دون النظر إلـى الجذور التاريخية، التي أمدّت تلك الثورات بالشمول والإنسانية، ولندرك عمق الثورة الجزائرية لا بدّ أن نلـمّ بجذورهـا التاريخية وبالخصـائص القومية والحضـارية للشـعب العربي الجزائري، التي أدّت دوراً هائلاً في تفجير القوى النضـالية لدى الجماهير الشـعبية، ودفعها في طريق الكفاح المسلّح، الذي هو أسمى وأعلى مظهر للكفاح ضد الاستعمار والاستغلال.

أكّـدت الثورة الجزائرية كغيرها مـن الثورات الإنسانية الكبرى فـي تاريخنا الحديث، أنّها تجربة من أكبر التجارب الثقافية الإنسانية، وذلك بما قدّمته للشعب من رصيد فوري، ومن قيم معنوية رفيعة، فهي قد أثبتت أصالة الشعب الجزائري وتشبّثه بمبادئ الحرية والعدالة...

وقد أمـدّ الشعبَ الجزائري بطاقات ثورية إحساسُه بمحاولات الاستعمار الفرنسي لمحو معالـم شخصيته العربية، وإبادة تراثه الفكري والحضاري، تمهيداً لإذابته في قومية أجنبية.

ومـــن وجدان هذه الثورة ممتدّة الجذور، نشـــأ أدب جزائري، عبّر عن نفسه باللغة الفرنسية، لكنه يحتفظ بالروح العربية، واتخذ أدباء الجزائر من هذه اللغة سلاحاً لمنازلة الاستعمار في ميدانه، فتبنّى أدبهم أدب قضيّة التحرير بكل أبعادها، ونفذوا من هذه القضية إلى المستوى الإنساني التقدمي الرحب...

ونحن-هنـــا- لا نؤرخ في هذا السيـــاق لمرحلة الاحتلال الفرنسي، وإنمـــا نشير إلى أنّ الـــروح الأدبية أثّرت وتأثّرت بالـــروح السياسية السائدة إبّان تلـــك المرحلة، فالمسار الأدبي رافق المســـار السياسي. ويتجلّى ذلك بمقاومة الاحتلال الفرنسي بزعامة الأمير عبد القادر الجزائري الذي وحّد قبائل الشعب...

وبعد سقوط قلاع المقاومة وإخفاق الأمير ظهر في الحياة اليومية نوع من الشعر الباكي أو غناء الندب، ونلمح ذلك في أغاني عمّال الجنائن في وادي (ديلي إبراهيم) قرب العاصمة، والأغنيات تروي قصة الضياع المرّ...

أنتم خنتم الأرض والزهر والفاكهة

والبارودُ الشرّيرُ قتل أحسن الرجال.

وتنامى الظلم ليلاً ونهاراً

يا الله! أين نهرب؟

العار يلاحقنا!

الشمس تشهد! القمر يشهد!

ويرتفع صوت الندب بعد القضاء على ثورة المقراني. فهذا شاعر شعبي يقول:

كاد الدمـــع الحزيـــن يخنقني. ويحتدّ الندب فالدموع دمٌ، وذلـــك بعد هزيمة مقاومة بلاد القبائل، فالشاعر القبائلي يطلب من عينيه:

أعينيّ ابكيا دموع دم.

غيـــر أنّ الشعب مع نحيبه لم ييأس، ولم يقرّ بالهزيمة، وفي النحيب نلمس بذور الرفض، فهذا شاعر آخر يقول:

يمكن لكم أن تكسرونا ولكن لا ننحني...

ويتنامى الرفض في الأغاني الوهرانية إلى درجة تصبح معها الأغنيات الشعبية شعارات، تدعو الجزائريين لرفض الخدمة في الجيش الفرنسي.

جسّد الشعب معاناته في حياته اليومية البسيطة، وأصبحت معاناته الكفاحيةُ من تقاليده، وبرزت روحه الضجـرة المتبرّمة بالاحتلال وأعبائه في تلك اللعبـة الشعبية الدرامية، التي كانت تمثّل إبّان تلك المرحلة في بلاد القبائل.

المسرح حومة القرية أو الحي، والجمهور هو الشعب.

حيث يعتلي المسرح أشخاصٌ ثلاثة، يحملون آلاتٍ موسيقيةً،

أحدهـم بـزيّ قائد عسكري فرنسيّ ضخم، ومعه البندير، وآخر بـزيّ حكومي رسمي يحمل طبلاً كبيراً، وشخصٌ ثالث بزيّ فلّاح شعبي هزيل ينفخ في ناي قصبي باكٍ...

والجمهور يتتبع، والأسنان تصطّك، وفي الأعماق توقٌ إلى التمرّد.

وتبدأ اللعبة الدرامية بموسيقا قرع الطبل القويّ... دراهم... دراهم... دراهم... درم، درم، درم...

وتنبهر الأنفاس والبطون خاوية، فكيف بالجيوب اللاهثة...

ويجيب صوت الناي الحزين: من أين، من أين، من أين، من أين...

وتتمسّك أقدام الجمهور بالأرض، ويخترق ذلك الصمتَ الثقيلَ الـذي ابتلع صوت الناي الحزين صوتُ البندر، صوتُ القائد العسكري الآمر: دبّر... دبّر... دبّر...

❁ ❁ ❁

اختلف المؤرخون في الحكم على هذه المرحلة؛ إذ كان الوطن يسترجع أنفاسه؛ فمن قائل إنَّ الشعب الجزائري فَقَدَ مقوّماته، ومن قائل إنَّ الزعماء الجزائريين تأكدوا من عدم جدوى الكفاح المسلّح، وسلّموا بالأمر الواقع.

وفـي تلك المدّة انتشرت في فرنسا الأفكار الاشتراكية، وظهر في الجزائر جيل ما يسمّى بالنخبة، وقد تلقّى هذه الأفكار، وإلى جانب شعوره بالغبن، أخذ بعضهم ينادي بفكرة الجامعة الإسلامية، وبعضهم الآخر ينادي بإدماج الجزائريين مع الفرنسيين، إلّا أنّ الفكرتين لم تجدا أذناً صاغية من الفرنسيين...

حينها كان الإنتاج الأدبي الحقيقي لا وجود له، والأدهى من ذلك، كما يقول **مولود فرعون**، أنّ هـذا الأدب يرى المجتمع المغربـي بالعين نفسها التي تراه بها الأقليّـة الأوروبيّة. ولكنّ

الشعـــر الجزائري المكتوب باللغة العربية الفصحى، قد دعا إلى المقاومة على الرغم من أنّ المستعمـــر قد رسم مســـاره. وكان الشاعر يبدأ قصيدته بالشكوى مـــن سوء حال الشعب، ثمّ يحثّه بالدعوة إلى المقاومة وإلى الاستشهاد، ومن أمثال ذلك الشاعر محمد العيد آل خليفة، ونسمعه يقول:

أصـــابـتـنـــا الـجــوائـح والـــرزايـــا
وأعــــــوزت الـمـــرافـق والــرفـــود
حـنـت أعـنـاقـنـا الأغـــلال ظـلـمـا
وحــــزّت فـــي ســواعـدنـا الـقـيـود
وأعـــلـــنّـــا الـمـظـالـم والـشـكـايـا
فـأخـفـتـهـا الـدسـائـس والـكـيـود

وبعد أن يعدّد الشاعر مظالم شعبه يدعو إلى المقاومة، إذ يقول:

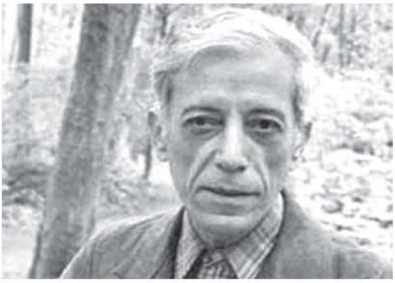
فـقـم يـا بـن الـبـلاد الـيـوم وانـهـض
بـــلا مـهـل فـقـد طـــال الــرقـــود
وخـض يـا بـن الـجـزائـر في الـمـنـايـا
تـظـلّـلـك الـبـنـود أو الـلـحـود

ولا يفوتنـــا القول إنّ الشعر الجزائريّ المعبّر بالعربيـــة إلى جانب ذلك، كان قبل الحرب العالمية الثانية يدور في فلك الاتجاهات الوطنية والإصلاحية، التي تدعو إلى نبذ الخلافات، وتدعـــو إلى التكتل والوحدة والتعليم والثقافة والتحـــرّر من الوهم والجمود، وكان ذلك، على الرغم من أنّ الاستعمار قد حكم على الشعر ألّا يتناول من قريب أو بعيد المشكلات الحقيقية. ولكنّ مأساة الثامن من شهر أيار، سنة ألف وتسعمئة وخمس وأربعين في مدينة اصطيف، في الشرق الجزائري، التي وقع فيها من الأحداث والأهوال ما وقع، هزّت الضمير الإنساني، كما هـــزّت الشعر التقليدي، فسجّلها الشعراء جميعاً بلا استثناء في قصائدهم على الطراز الذي سُجّلت به مأساة «دنشواي» في الشعر المصري.

إنّ الانعطـــاف الكبير في الأدب الجزائـــري ظهر بعد تلك المأساة، ونتيجة لتطوّرات شتّى انبثـــق أدبٌ جزائـــري جديد، وإن كان هذا الأدب يتخذ أداته مـــن لغة المحتل، أمثال: (مولود فرعون، ومحمد ديب، ومولود معمّري، وكاتب ياسين، ومالك حدّاد، وآسيا جبّار، وبوبون...).



كاتب ياسين



محمد ديب

وفــي الثورة الجزائرية ظهر جيل مــن الكتّاب، شبّانٌ، وشعراء فــي الغالب، عزفوا معاً سيمفونية الملحمة المجيدة التي صنعها الشعب الجزائري، منهم: (بشير حاج علي، وجمال عرانــي، وجــاك سيناك، وهنري كريســان). وإلى جانب كلّ هؤلاء كان فــي المنحى الآخر وباللغة العربية كتّابٌ وشعراء يعزفون سيمفونية الملحمة، أمثال (الشاعر الأخضر السائحي، وطاهر وطّار...).

مأساة التعبير لدى الكتّاب الجزائريين

إنّ اللغــة وسيلة اتصــال حيّة بالآخرين، وهي عنصرٌ مهمٌ مــن عناصر تكوين الأمّة، وبها تتكــوّن ثقافتنــا الوطنيّة. وقد فَقَدَ الكتّــاب الجزائريون تلك الوسيلة الحيّــة بفقدانهم اللغة العربيــة، فابتعدوا بذلك عن مخاطبة الشعب باللغة التي يحرص عليها، وكأنّ جداراً يفصلهم عــن جمهورهم، علــى الرغم مما تحتويه لغتهم الفرنسية مــن مضامين تتعلّق بذلك الشعب. وقد أحسّ الكاتب الجزائري بذلك الاغتراب وسمّاه: «الاغتراب في اللغة».

إنّ الشعــور بالاغتــراب هو نوع من المقاومة، وأبلغ تعبير عن تلــك المأساة تعبير الكاتب **مالـك حـدّاد**، حين قال له ـ ذات يوم ـ الكاتب **جابرييل أوديزيو**، الذي يمثّل إلى جانب «**ألبير كامـو**» و«**روبلس**» طليعة الكتّــاب الجزائريين، الذين هم من أصل أوروبي: (إنّ وطني هو اللغة الفرنسيّــة). فأجابه مالك حداد في مرارة حزينة قائلاً بالفرنسيــة: إنّ الفرنسية هي لغتي؛ وتعنــي أنّ اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيشــه! والشاعر مالك حداد، حين يتذكّر جهله باللغــة العربية يئنُّ في أسىً ومــرارة، وقد خاطب صديقه الشاعــر الفرنسي الكبير **أراغون** ستقــول: إنّ مالكاً هذا يستخدم كلمات فرنسية، ومــا أهميّة ذلك؟ إنّ كلمة الجزائر يمكن أن تقال بالصينية، نعم يا أراغون! تلك هي مأساة اللغة!

لو كنت أعرف الغناء لتكلّمت العربية! وكيف يحسن الغناء شاعر يعيش في المنفى؟

فاللغة الفرنسية بالنسبة إلى الشاعر مصدر شقاء، وقد عبّر الكتّاب الجزائريين عن تلك المأساة؛ مأساة الاغتراب بطريقة ما، أو بأخرى. إذ نرى الكاتب، **مولود فرعون** في مكان آخر، يعرب لزميله، ألبير كامو، عن مأساته التي تكمن في قدرته على التعبير باللغة الفرنسية وعدم تمكّنه على التعبير باللغة العربية.

وتنحصـــر جذور هذه المأساة فـــي سببين؛ أولاً: إنّ الجمهـــور الطبيعي لكاتب عربي هو الجمهـــور العربي. ثانياً: من الصعب على الكاتـــب، وهو يكتب بلغة غير جزائرية أن يعبّر عن الحقيقة الجزائرية.

إننا نعترف بما لهذه الثقافة الفرنسية من فضل على الحضارة العالمية، وندين الاستعمار الـــذي سبّب في خلق هذه المأساة. ندين الاستعمار الذي تآمر على اللغة العربية، وذلك بنشر ثقافته الفرنسية؛ ثقافة المستعمر، وتحريمه تدريس العربية.

فرض هذا المستعمر على الكتّاب الجزائريين، بعد أن حرمهم من لغتهم الأمّ، أن يستخدموا لغـــة مستوردة، يعبّرون بهـــا عن أفكارهم، وهي على حدّ تعبير مالك حداد: لغة لا شك رائعة، لكنّها ليست لغة أجدادنا. وهنا عمق المأساة!

وسّـــع الاستعمار دائرة الأميّة بين الشعب الجزائري، وقد ذكر الكاتب الفرنسي، **جان بول سارتر** فـــي كتابه «عارنا في الجزائر»: «لقد خلقنا من إخواننـــا الجزائريين شعباً أميّاً». وكاد ذلك أن يودي باللغة الأمّ في الجزائر لولا محافظة الشعب على هذه اللغة. وقد صدق الكاتب، محمد ديب؛ حيث قال:

«إن ذاكرة الشعب هي المكتبة الوطنية للجزائر...».

ومن ثمّ يمكن القول: إن الأدب الجزائري المعاصر يتسم بصفتين أساسيتين؛ هما، أولاً: إنّه يعبّـــر عن ذاته باللغة الفرنسية، وثانياً: يفضح الاستعمار ويندّد به قبل قيام الثورة الجزائرية، وفي أثناء هذه الثورة.

وهكـــذا أصبحت ضرورة التعبير بلغة أجنبية عند الكتّاب الجزائريين سلاحاً يستخدمونه فـــي معركة التحرير، وبحسهم الثـــوري أدركوا، وهم يكتبون، أن الكلمـــة التي تخرج من قلب إنســـان موهوب، ذي عاطفة صادقة تتمكّن أن تفعل في الآخرين، وأن تخدم بمقدار ما يخدم المحراث، أو المدفع.

وقد أدرك الاستعمار هذه الحقيقة، فراح يصادر مؤلّفاتهم، ويفرض عليهم النفي، أو يضعهم في غياهب السجون، لا لأنّهم ينطقون بلسان الشعب الجزائري، والشعب، دائماً يعرف كيف يتكلّم، بل لأنهم شهود على إثمه وإجرامه، ولأنّهم شهود على موته...

❀ ❀ ❀

إن الكاتب الجزائري الذي هو بطبيعته شاعر، كان يستقي إلهامه من بؤس شعبه، ومن غضبته العارمة. إنّ حياة هؤلاء الكتّاب في قلق مستمرّ، إنها مأساة مثلّثة، كما قال عنها الكاتب المغربي، إدريس الشرايبي: مأساةٌ ماديّة ونفسيّة وعقليّة؛ ماديّة لأنّهم عاشوا محرومين فقراء، وحياتهم كانت مجرّد كبت ورغائب وانتظار، ونفسيّة لأنهم فضلات ورواسب حضارة لم يتكيّفوا معها، فطحنتهم هذه الحضارة برحاها الثقيلة، وعقلية تكمن في تلك الوحشة التي تنتابهم بين عالمين؛ عالم الوطن والأجداد. وعالم آخر، يعيش الغريب المهاجر فيه على هامشه.

ولم يخلُ عمل أدبي لكلّ أدباء الجزائر من التعرّض لمأساة اللغة، فالكاتب **محمد ديب** في روايته «الدار الكبيرة» يرسم لوحاتٍ تظهر فيها جميع المشاكلات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي خلّفتها الأوضاع الاستعمارية في الجزائر، وفي مقدّمتها محاربة اللغة العربية، التي هي سلاح القوميّة...

فالمعلم حسن، سأل تلاميذه الصغار مرّة في درس التربية الوطنية (الأخلاق) ما هو الوطن؟ فلم يفهم الصغار ما تعنيه كلمة الوطن، وبقيت تلك الكلمة بعد السؤال معلّقة في الفضاء تتأرجح، وبعد دهشة الصمت ورتابتها أجاب أحد التلامذة الراسبين: «إنّ فرنسا هي الوطن الأم». وهكذا زرع المستعمر في أذهان الشعب معلوماته الخاطئة المغرضة، ولدى الأديب، مولود معمري، الذي ينطق بطل رواياته بتلك الجملة: «أنا جزائري»، نسمعه ينادي: الثقافة الفرنسية إنّما هي ستار، يخفي وراءه المستعمرون غاياتهم. ولا يفوتنا أنّ الشعوب المغلوبة كشعب الجزائر لم تنل من هذه الثقافة إلّا النزر اليسير. وهذا دليل حيٌّ على سياسة التضليل والتمويه، التي يغلّف بها المستعمر ثقافته...

والشاعر **مالك حداد** يرى أنّ بلاغته الفرنسية لا تساوي حرفاً واحداً من لغته المقدّسة؛ لغة الأمّ التي يجهلها، فتنساب أحزانه في أذن صديقه الشاعر الفرنسي الكبير، **أراغون**، الذي قال: إنّي أفهم مأساتهم، ويعني مأساة الكتّاب الجزائريين، مأساة أن يروا أدبهم مترجماً،

وقد فقد أصداءه العميقة أو كاد. فيجيبه صديقه الشاعر حدّاد: تلك هي مأساة اللغة يا صديقي! لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة، وأن أكون معقود اللسان. لا تلمني يا شاعري يا صديقي! إذا لم يطربك صداحي، لقد كنت أنادي في طفولتي: «يا مّه»، واسمها الآن في شعري (ma mere)، ويتساءل في حرارة، منادياً: يا مّه، مّه العربية. أمّاه! يا مّه! هل يمكن أن يكون اسمك (ma mere) ويصبح متوجّعاً؟

أبي يا أبي! لماذا حرمتني تلك الموسيقا المنسوجة من لحمي ودمي؟ انظر إليّ؛ إلى ابنك، الذي يُلقّن أن يقول في لغة غريبة تلك الكلمات الحلوة، التي كان يعرفها، عندما كان راعياً. الكلمات الحلوة يراها الشاعر فحسب، عندما كان راعياً، إنّه يفضّل لو ظلّ راعياً بدلاً من أن يعيش في منفى اللغة...

طبيعة أدب المقاومة في الجزائر

إنّ جودة العمل الفني؛ شعراً كان أم نثراً، تتطلّب من الفنان القدرة على الخلق والخيال الخصب، وقد تتوافر للفنان تلك الإمكانات المبدعة، غير أنّه لا يستطيع بتلك الإمكانات وحدها أن يخلق شخصيات نمطية، يتجسّد فيها ما يضطرب في مرحلة تاريخية محدّدة من الأحداث، التي تزلزل الضمير الإنساني. ومن هنا كانت ثورة الشعب الجزائري تتويجاً للآلام التي كابدها ذلك الشعب، بحيث أصبح أدباء الجزائر جزءاً رئيساً من جبهة القتال، وأصبح الموضوع الذي تدور حوله جميع أعمالهم، هو حرب التحرير ومقاومة المستعمر؛ رفضاً للاستغلال والتسلّط.

وقف هؤلاء الأدباء في خنادق القتال، واستقبلتهم زنزانات السجون المظلمة، وهم يردّدون مع الشاعر الفلسطيني «راشد حسين»:

قالت أخاف عليك السّجْن قلت لها
من أجل شعبي ظلامُ السجن يُلتحفُ

وراحت تمتصهم جزر النفي والتشريد، ودفع بعضهم روحه في أرض المعركة، أمثال: (مولود فرعون، وأحمد رضا حوحو).

يقول **فرانز فانون** في كتابه «معذبو الأرض»: «تتكون الثقافة الحقّة في أرض المعركة، ومما يؤكد ذلك، أنه حين يدقّ ناقوس الحرب، تعزف شفتا الشاعر سيمفونية المعركة، وحينما تصنع الأمة فجرها في معركة المصير مع المستعمر، يتحوّل قلم الكاتب إلى معول بقبضة بندقية».

والأدبــاء الجزائريون في التزامهم ووقوفهم، مناضلون إلى جانب شعبهم، يجدّدون مسيرة الأدبــاء الروس الذين وقفوا في الخطــوط الأمامية لصدّ الهجوم الألماني النازي، دفاعاً عن وطنهم الاشتراكي وعن حريّتهم.

مات كثير من هؤلاء فــي خنادق القتال، وانتقلت إلى خرائب البارود أقلامهم وخيالاتهم. والفنّ كلّ الفنّ أن نبني الوطن الحرّ المستقلّ، وأن نخلق الإنسان؛ إنسان ذلك الوطن.

وهاهــم أدباء الأرض المحتلّة في فلسطين يجدّدون ـ اليوم ـ مسيرة إخوانهم الجزائريين في تحدّيهم لسلطات القهر والإرهاب. وحياتهم في تحدّيهم، وخلود أدبهم في آلامهم، فالشاعر **محمود درويش** أغنية في جراحات بلاده، وجذوره سرمدية.

أنا من ترابك يا بلادي نفحة الأرض الغنيّة.

أنا في عروقك في جذورك رعشة الدفء الهنيّة.

وهنا جذوري في ترابك سرمدية.

وهنا جذوري كيف تقلعها زنود أجنبيّة.

إنّه يشبه قول الجزائري مالك حدّاد: «اربط قدميك بتراب الجزائر، التصق به، انتعله».

وشاعر فلسطيني آخر، هو توفيق زياد، يزرع القلق واليأس في نفس العدوّ الغاصب

إذ يقول:

إنّا هنا على صدوركم باقون كالجدار، وفي عيونكم قذىً من نار

نجوع، نعرى، ننشد الأشعار، ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونصنع الأطفال جيلاً ناقماً وراء جيل،

كأننا عشرون مستحيل في اللد والرملة والجليل.

هــذه هــي لغة الأدب الثوري، أيّاً كانــت مشاربه ومنازعه، أكان موطنــه كوبا، أم غانا، أم فلسطين، أم الجزائر؛ الرفض، والتحدّي، والمقاومة، فبركان الثورة.

إنّ الأدب بوصفــه أدباً هو نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف والخور، التي قد تلمّ بالنفس البشرية في لحظات الانكسار، فليس هناك عمل أدبي جاء في القديم والحديث، يمكنه أن يخلو من هذه السمة البارزة، وهي المقاومة؛ أي من فكرة الصراع بين الإنسان والكون، سواءٌ تمثّل هذا الكون في الوجود الطبيعي، أم في النسيج البشري تحت أيِّ أطر قومية، أو قوالب اجتماعية.

أين أدب المقاومة في الجزائر؟

لـم يكن للجزائر مـن أدب حقيقي قبل الحرب العالمية الثانية، ولكنّ نتائج هذه الحرب جـاءت لمصلحة قوى الحرية والاشتراكيـة، فعجّلت تعجيلاً كبيـراً بالحركة صوب التحرّر الوطنـي، ممّا أتاح فـي الوقت نفسه الفرصـة لانبثاق أدب جزائري أصيـل، هو بحقّ أدب المقاومـة، وذلك لأنّ أدباء الجزائر عبّروا عن هذا الصراع الكامن في أعماقهم بين اللسان الناطـق والوجدان النابض. وقد مارس هؤلاء الأدبـاء أدبهم وفنّهم من خلال ركام التجارب الهائلـة المختزنة، التي صادفتهم فـي حياتهم اليومية، إذ اشتغلوا بمختلف الحرف والمهن، وبعضهـم يذكّرنا بالكاتب الروسي الواقعي «**مكسيم غوركي**». ومن هنا أصبح أدباء الجزائر جـزءاً رئيساً من جبهة القتال، فأدبهم ليس إلّا ترجمة شخصية يفصحون فيها عن انتمائهم الثنائـي لعالمين مختلفين، كما يعبّرون فيها عن ألمهم من عدم استطاعتهم أن يجدوا مكاناً في أيٍّ من هذين العالمين.

توحّـد أدباء الجزائر مـع شعبهم في مقاومته، إذ أصبحت الثورة تتويجاً وقمّة للآلام التي كابدوهـا. يقـول الكاتب مالك حـدّاد: «**إنّ القصص، وأعني هنا الأناشيد الشجيّة لم تعد موجودة في الكتب بالنسبة إلينا؛ نحن الجزائريين. إنّي لا أعرف أسماء إخوتي في الكفاح، لكنّـي أعـرف أنّهم يعطـون لمفهوم الحرية مضـموناً واحداً ومعنىً واحـداً. ولم تكن الحرية بالنسبة لنا؛ نحن كتاب الجزائر نعمة، أو فضلاً، بل كانت إمكانات عمل. إنّ الليل مهما يمتدّ ثقيلاً، ومهما يكن رهيباً لم يمنع العنادل من أن تغنّي...**».

ويمكننا أن نستدلّ على الكثير في قول الكاتب «محمد ديب»: «في قلب كلّ كاتب حقّ، وكلّ فنّانٍ صادق، تكمن رسالة وطنية، لا تقوم له قائمة من دونها».

وصـل كتّابنا في الجزائر إلى حقيقة أكبر وفنٍّ أكبر، عندمـا جعلوا من المسألة الوطنيّة المضمون الإنساني الاجتماعي لآثارهم.

إنّ الأدب الجزائـري أدرك قيمة البعد الإنساني في العمل الفنّي في أثناء المقاومة، فنشد تصوير الحياة الثائرة في الجزائر وما يحيطها من أحداث، وتغنّى بغد أفضل، تسوده الحريّة، يتاح فيه للإنسانية أن تنفتح على أعمق ما فيها من خير ومحبّة، بل هي حرب من أجل المدنية، وتأكيداً لهذا البعد الإنساني صدرت أعمال الأدباء عن اعتقاد بأنّ حرب الجزائر لم تكن حرباً عادلة وحسب؛ بل هي حرب من أجل المدنيّة، ومن أجل الحضارة، ومن أجل الحريّة.

أعطـى الأدب الجزائري المعبّر بالفرنسية للرأي العام الأدبـي في العالم قيمة إنسانيّة، قُوبلـت باحترام شديـد، تتمثّل هذه القيمة الإنسانيـة في أنّ أدباء الجزائـر لم يبحثوا عن مفهوم الحرية في المعاجم، ولا بأروقة الأمم المتحدة، وإنما بحثوا عنها في منحدرات جبال الأوراس، وفي أزقّة حـيّ القصبة في العاصمة، وفي ضواحـي قسنطينة، وفي جبال عنتر، تأكيـداً أنّ الأدب الجزائري المعبّر بالفرنسية جزائري الـروح، ثوري المضمون. لذا أهملت ذكره ثقافة المستعمر، ولم تحرص على أن تدّعيه...

وقـد أعاد هؤلاء الكتّـاب لشعبهم ما التقطوه منـه. وهكذا فتّش الشعـب عن ذاته بكلّ أبعادها، السلبية منها والإيجابية، فوجدها بشكلٍ أدقٍّ وأوضح في نتاج كتّابه وشعرائه...

أدب المقاومة في القصّة الجزائرية

إن مرحلة تعاظم الحركات الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية ساعدت على ظهور القصة الجزائرية الحديثة، والقصـة الجزائرية، كما تقول مؤلفة كتاب «الأدب الجزائري المعاصر» سعـاد محمد خضـر: «من أكثر الأجناس الأدبية تطوراً فـي الأدب الجزائري، وأقدرها على توضيح الحقيقة الجزائرية بتقديمها مختلف الإجابات عن مختلف المشاكلات التي تبرز أمام الشعب الجزائري.

إنّ القصة الجزائرية تعبير عن مدى الالتزام لرجال ملتزمين بالتضامن والكفاح المشترك داخـل مجتمع مستعمَر. إنّها قصّة الإحساس العاطفي لهـؤلاء الرجال، عندما يتحدّثون عن تاريـخ بلادهم، فهي في أكثـر الأحيان أنموذج للقصة الثورية والشعرية في حوارها، كما أنّها قصـة الحياة والحب، فهي ليست قصّة تساؤل الإنسان عن مصيره فحسب، ولكنّها تعبير عن مدى انفجاره وتمزّقه وثورته.

إنّ نهر القصة الجزائرية، إن جاز هذا التعبير يصبّ في بحر الوجدان الإنساني، ويتلاقى مع أنهار قصص المقاومة بشكل عام لدى الشعوب الأخرى في العالم. ومَنْ أقدر من الكاتب في التلاقي الإنساني؟!

يقول الشاعر التركي **ناظم حكمت**: «إنّ الكاتب يعبّر عن أعمق ما في قلبه وفكره»،

فالقصـة الجزائرية ليست ترجمة ذاتية، وليست ترفاً أدبيّاً، بل إنّها بحق ملحمة العصر. ولـم يعد العمـل فيها لأشخاص، وإنمـا للمجتمع في تباينه. إنّ بطـل القصة الجزائرية هو الشعب بمجموعه، وإنّ الزمن مرحلة تاريخية حاسمة لشعب يصنع الحياة. وعنصر المقاومة

فيها يتجلّى بأبعاده الثلاثة؛ البعد الاجتماعي، والبعد الوطني القومي، والبعد الإنساني، وهذه الأبعاد الثلاثة تتداخل بعضها مع بعض لتكوّن وحدة المقاومة وإرادتها في نسيج القصة.

ففي النضال ضدّ الفقر يظهر الصراع الطبقي بين الأغنياء من جهة، والفقراء من جهة أخرى، ويظهر من خلال ذلك البعد الوطني؛ الأغنياء أوروبيون بيض بعيون زرق، والفقراء جزائريون، كما يبرز الوجه الإنساني المعبّر عن آلام البشرية وعذاباتها وقهرها في مسيل الهجرة من المستعمرات إلى بلد المستعمر. والإنسان يتتّبع بالطبع حياته المنهوبة والمهدورة في أوروبا على لذائذ البرجوازية وعملائها. وفي البعد الاجتماعي تحتلّ مشكلة الفقر مكانة كبيرة، وتشغل بال الكتّاب، بل تؤلمهم، ونكاد نسمع صرخاتهم المتألمة الثائرة، فالكاتب «**مولود فرعون**» ابن فلّاح، ولد في قرى جبال القبائل العليا في العقد الثاني من القرن الماضي، اضطرته ظروف الحياة القاسية للهجرة إلى فرنسا من أجل العمل، ثمّ يعود ليعمل معلّماً في وطنه. إنّ الفقر هو المأساة الكبرى، عند أهل القرية جميعاً من خلال الوصف والتفاعل بين الشخصيات. لنسمع ما يقوله ذلك الكاتب الملتزم بآلام شعبه: «إنّهم حشدٌ هائل من المنكوبين، الذين يحملون على ظهورهم الشقاء، وفي نفوسهم الخوف، وفي أصواتهم المرارة، لقد أصبح الفقر مصدراً للآفات الاجتماعية الأخرى». ويُظهِرُ الكاتب صراع الإنسان البسيط مع الفقر، وتحدّيه الدائم، ومقاومته من أجل البقاء. ويسترسل فيصف صورة الصراع والمقاومة على لسان «مراد» بطل قصّته: «ومرّة عاد أبي من حقله، يجرّ فأسه، هل الفأس ثقيلة يا أبي؟ فيجيبه والده: ليست الفأس أثقل ما في حياتنا، بل هدّتنا الأحزان يا بني!».

ويتحول ذلك الفلاح البسيط إلى عامل مهاجر في مصانع فرنسا، وخلال عمله يصاب بالعجز، إنّها مصانع الرأسمالية، التي تمتصّ نضارة الإنسان وقوّته لترميه من بعدُ شلواً، يقتات أحزانه، وما أكثر العمال المهاجرين العائدين إلى بلادهم أشلاء، وبعد أن مرض ذلك الأب، الفلاح المهاجر، عاد إلى قريته الجبلية، حاملاً وصيّة ذلك الطبيب الفرنسي البرجوازي «عليك أن تستريح تماماً، وتتغذّى جيداً»، ويعجب ذلك الفلاح منه كيف يفكر بغباء.

وفي قصته الثانية «الأرض والدماء»، وفحواها أنّ الشاب الجزائري عامر الفاسي هجر قريته، وباع أرضه كغيره من الفلاحين ليعمل في مصانع فرنسا وفي مناجمها، وبعد هجرة دامت خمسة عشر عاماً يعود إلى قريته، ومعه زوجته الفرنسية، وعند دخوله قريته شعر بالخجل لمنظر حمأة الطين الزرقاء التي تنساب من أبواب البيوت في سواقٍ رفيعةٍ، ولمنظر

الجـــدران الباهتة اللاهثة المرقّعة بحصر القصب. ففضـــح أمام زوجته الفرنسية ما خلّفته فرنســـا المستعمرة في بلاده، ويمكن القول إنّ قصص الكاتـــب تدعو إلى مقاومة الفقر إلى جانب الاستعمار، والتخلّف الثقافي، وأبعاد المأساة.

فـــأمُّ الكاتب «كمّومة» تقاوم الفقر بالتقتير علـــى نفسها وبالصبر وفقدان الشهية، وهكذا استطـــاع الكاتب مولود فرعون أن يجعـــل روح المقاومة تحلّق في نتاجه القصصي من خلال تصويره الإنساني.

وننتقـــل إلى كاتب آخر، هو **محمد ديـب**، الذي يقترب كثيراً في روحه الشعرية من زميله «كاتب ياسين». وقد أصدر محمد ديب رواياته بالفرنسية؛ ومنها ثلاثيّته (الدار الكبيرة، والنول، والحريق)، و(في المقهى) مجموعة قصص قصيرة، و(دروس على الشاطئ المتوحّش).

يلـــحّ الكاتب محمد ديب في كتاباته على التفاعل الإيجابـــي مع المجتمع ومشاكلاته، ومع الوطـــن وقضايـــاه، حيث يقول: «إنّ كتّابنا الجدد قد توصّلوا إلـــى حقيقة أكبر، وإلى فنٍ أكبر، عندما جعلوا من المسألة الوطنيّة المضمون الإنساني والاجتماعي لآثارهم، وذلك يجعلنا نؤكد أن لا خـــلاف بين كتّاب جيل الثورة في فهم وظيفة الأدب، وفي تبنّيه لقضايا مهمّة». ويشترط الكاتب، محمد ديب؛ إذ يقول: «لكي نتقدّم بأدبنا إلى الأمام، ونرفع مستواه، يجب أن نندمج في المعركة بشكلٍ كليٍّ وحماسي». ومن خلال هذه المهمّة في مفهوم الكاتب استطاع أن يترجمها عمليّاً من خلال واقعيّة التعبير الشامل لواقع المجتمع. لذلك قيل عنه: إنّه يعدُّ بلزاك الجزائر، ومنها تميّـــزت ثلاثيته «بالجزائريـــة، وبالإحساس الحادّ، وبالتفرقـــة الطبقية» وتطورت هذه النظـــرة إلى مفهوم إنسانيٍّ شامل. وقد وصف الشاعر الفرنسي التقدمي «أراغون» ثلاثية ديب بأنّهـــا «مذكّرات الشعب الجزائري» أو هي الجزائر نفسها، كما وصفها معظم النقّاد... فالدار الكبيرة، التي يحدّثنا عنها اسمها (دار سبيطار) في مدينة تلمسان، في الغرب الجزائري، التي ولـــد فيها الكاتب، وعنها يقول: «احتجزت غرف الدار في الليل عدداً كبيراً من الأطفال، حتّى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار في فوضى وضوضاء لا مثيل لها». ويستمرّ الكاتب في تصوير حياة مثيرة، تدعو إلى الألم والتقزّز والثورة والرفض الكبير...

وروح المقاومة الجزائرية تتأكد من خلال الشخصيات لمقاومة عمليات محو الشخصية العربية، وتذويب الشخصية الجزائرية في المحيط الفرنسي، ومقاومة الفقر والجهل، ونسمع صوت المقاومة على لسان أم عمر بطل القصة: «نحن فقراء، لكن لماذا نحن فقراء؟

قال بعضهم، إنّ هذه مشيئة القدر، وقال آخرون: إنّ الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء، ولكن هل هذا يكفي، ولعلّ الأشخاص الكبار يعرفون...». وترتفع صيحة المقاومة في الدار الكبيرة حينما يقف حامد سرّاج ليخطب في العمال الجزائريين الذين جاؤوا من أقاصي الجزائر: «**إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التي يقبضونها، فهم سيتظاهرون بقوّة، يجب أن نضع حداً لهذا الشقاء، وهل هناك حدٌّ لهذا الشقاء بغير أسلوب المقاومة؟**».

وتصل روح المقاومة ذروتها، حينما تعلن الحرب العالمية الثانية؛ إذ يكثر صخب الجماهير، ويدور حوارٌ من نوعٍ جديد مع الصِّبْيَة العاقّين لأمهم، ونعني بها فرنسا.

وفي رواية الحريق، تتجسّد روح الدعوة للمقاومة في شخصيّة (حامد) الذي يتنقّل من قرية إلى قرية، محرّضاً الشعب، داعياً إلى المقاومة والثورة، وهو في سبيل ذلك يسجن ويُهان ويُطارد...

وفي رواية النول، أو الحياكة، تتجّدد المقاومة في شخصيّة عكاشة؛ إذ يقول: «**لقد هبطنا إلى الحضيض، ولن نستطيع العودة إلى إنسانيتنا بالطرائق العادية، وسنجيب على قلب العالم، بل على إرهابه، إنّ شعبنا قد أُهين، وسيخرج منه شيء هائل**». ويبرز البعد الإنساني للمقاومة الجزائرية في قصة محمد ديب «صيف أفريقي»، وفي قصة «الطلسم» التي يتجاوز بها حدود المكان والزمان التي كانت تحدُّ قصته «الدار الكبيرة»، على الرغم من أنّ الكاتب يختار شخصياته من الجزائر ومن جميع الطبقات، ويختار من فرنسا وجهها الخائن لقيم الثورة الفرنسية العظيمة...

وفي قصّته «النهاية» يمنح الكاتب نضال الجزائريين ضدّ الاستعمار شكل الصراع الطبقي، وهذا ما كنّا نراه ومازلنا في حركات التحرّر الوطنية، التي تخوض صراعاً عنيفاً مع الاستعمار، فهي تخوض إلى جانب النضال السياسي النضال الاجتماعي، فالمستعمرون الفرنسيون في قصة «النهاية» يطردون معلّماً فرنسياً لاتهامه بإلقاء خطابات هدّامة، في حين يودّعه الفلاحون وداعاً مؤثّراً، على الرغم من اختلاف لغته عن لغتهم، وهذا ما يؤكد البعد الإنساني في أدب المقاومة، ومثل هذا المعلّم الفرنسي المطرود نلقاه كثيراً في أدب الكتّاب الجزائريين، فالكاتب «طاهر وطّار» في كتابه «الطعنات» وهو مجموعة قصص، يعرض لنا جنديّاً فرنسياً تقدميّاً، كان حارساً على مدخل ثكنة عسكرية فرنسية تعاون مع الثّوار، وقدّم لهم ملابس ضبّاط بالزيّ العسكري الفرنسي، وأدخلهم إلى مستودع السلاح، فأخذوا منه ما يحتاجون إليه، وهو واعٍ لعمله هذا ومقتنعٌ به.

ونـرى الكاتـب يضع مشكلة الحرب في إطارها الإنساني، إذ يقـول: «بأية وسيلة سيعيش أولئـك الذيـن سينجون من الحرب؟ وماذا تعني العودة إلـى السلام عندهم؟ لقد فقد العالم بالنسبـة إلينا مذاقـه ولونه»، وهكذا رأينا كيف حسم الكاتب مقاومـة الجزائريين في رواية «صيـف أفريقـي» بمقاومة الذات وما يتصل بها من أغلال الماضـي، وضدّ كلّ ما هو سلبي يعكّر صفو النضال المقدّس...

ابن الجزائر الكاتب البارّ، والثائر الأديب «**كاتب ياسين**» يقول مؤكداً ومعتذراً: أنا جزائري، ولكنّـي عبّرت بالفرنسيـة، وكان لا بدّ من تعريف الفرنسيين بأنفسنـا، أتكلّم العربية، وأكتب بالفرنسية. وكاتب ياسين ابن قسنطينة، وعندما عمّت المظاهرات عام ألف وتسعمئة وخمسة وأربعين اشترك فيها الكاتب الشاب، وفُصِل بسبب ذلك من المدرسة، واعتُقل مدّة، وتنقّل كثيراً فـي أوروبا، وإنتاجه غزير، له مسرحية «الجثة المطوّقـة» ورواية «نجمة» الشهيرة، و«المرأة المتوحّشـة»، ومسرحية «دائرة الانتقام» وكوميديـا «مسحوق الذكاء». فكاتب ياسين دَمَجَ بين التاريخ والخيال في صورة متفجّرة وغير محدودة، لأنّ محتواه الأدبي تتجلّى فيه عملية جزر ومدّ، منبعثة من الشعر، وهي حركة دائبة لمعانقة الحياة.

وأبـرز أعماله رواية «نجمة». وتنبع أهميتها فـي أنّها تُعدُّ تحوّلاً كيفياً للقصة الجزائرية؛ لأنّهـا تعبّـر عن محنة الكاتب ووطنه، كمـا أنّها تعبّر عن رسالة الإنسـان، الذي أحسّ بعمق التناقضات الاجتماعية والثقافية. وتتجلّى فكرة المقاومة في رواية «نجمة» حين يبرز الكاتب صوراً استعمارية قاتمة عن حيـاة الجزائر في الحقول والمصانع، فيصيح أحد المتظاهرين في شعبه: «إلام الانتظار؟! إنّ القرية لنا. أنتم الأغنياء تنامون على سرر الفرنسيين، وتعملون فـي مستودعاتهـم، أمّا نحن فلدينا أردب مـن شعير، ودوابنا تأكل كل شـيء. إنّ إخواننا في (اصطيـف) قد ثاروا». وما تلبـث نجمة أن تشرق في سماء الجزائـر، ويحفر الأخضر أحد أبطال الرواية، عشيـق نجمة بالسكين على المقاعد والأبواب الخشبية (الاستقلال للجزائر) غداة انتهاء الحرب العالمية الثانيـة. ويتدافع العمّال والفلاحون، ويتجمّع الطلاب والشبّان، ويهتـف الجميع ليوم النصر علـى النازية، لا لفرنسا وحدها، وإنّمـا للجزائر أيضاً، وتنطلق رصاصـة من جندي فرنسي لتصيب العلم الجزائري، فتهجم الجماهير بالزجاجات وأغصان الأشجار، ويسيطر اللون الأحمر على صورة نجمة...

ففـــي النصر على النازية تدوس فرنسا بأقدام حديدية علـــى الإخاء والحرية والمساواة، وتخـــرج النازيـــة لسانها من فم فرنسي ساخر من النصر. ونجمـــة هذه هي رمز البطولة في المقاومة الجزائريـــة، وقد جسّمت في مختلف مراحلها البسيطـــة والمركّبة مراحل العذاب الأكبـــر، الذي عاناه هذا الوطن برفقة أعظم أجياله علـــى الإطلاق، ونشير إلى المهمة التي أنجزهـــا كاتب ياسيـــن في الأدب الجزائري، وذلـــك بتوفّر البعد الإنسانـــي في نجمة بشكل متكامل إلى جانب البعد القومي الذي هو ركيزتها. أمّا البعد الاجتماعي فيكفيه وضوحاً، أن يجعل الروائي من الفلاحين والعمال والمثقفين الثوريين الخامة البشرية في القصة.

وفي تقييم هذه الأبعاد الثلاثة نتفق مع الدكتورة «سعاد خضر محمد» في القول: «إنّ كاتب ياسين تغنّى بالثورة وبالجزائر، ووصف بشاعة حرب الإبادة وعذابات السجون، وعبّر عن آمال وآلام شعبه بلغة قويّة صادقة...».

كـــم نتمنى أن تتمكن ثقافتنا الوطنيّة العربية من إزالة السدود الفاصلة بينها وبين هؤلاء الأدبـــاء العظماء، وما أحوجنا إلى ذلك! وما أحوجنا -اليوم- إلى المقاومة في شتّى أشكالها، لأنّنا في معركة صراع؛ حياة ووجود. نكون أو لا نكون!

نظرة أرنولد توينبي للتاريخ

وفاء حمود



على الرغم من معرفتي بهذا العالم الفذّ في التاريخ، قررت إعادة النظر بأفكاره، والإضاءة عليها لأنها تستحق الدراسة والتأمل، ولاسيّما في واقعنا الحالي، وقد حفّزني، على ذلك، كُتيّب وقع بين يديّ، بعنوان: «منهاج توينبي التاريخي».

ولد أرنولد توينبي بلندن (١٨٨٩م)، في الرابع عشر من نيسان، وتوفي عام (١٩٧٥م). درس في جامعة أوكسفورد، وحصل على الدكتوراه في التاريخ من الجامعة نفسها، وهو فيلسوفٌ ودبلوماسيّ.

من أهم مؤلفاته موسوعته «دراسة في التاريخ» التي استغرق إنجازها أربعين عاماً، ويلاحظ أن هناك عاملين لهما أثر واضح في الأفكار، التي ظهرت في موسوعته، هما:

١- السياق التاريخي للعالم الغربي الذي تكوَّن فيه أرنولد توينبي.

٢- ثقافته التراثية الهلينية (اليونانية) ومعرفته للغة اللاتينية.

نظرته العامة إلى دراسة التاريخ

ينتقد **توينبي** دراســة التاريخ لدى بعض المؤرخين، الذين يعتقدون أنه يجب التركيز في الدراسة على تاريخ الأمم فحسب، بينما يرى توينبي أن البحث التاريخي يجب أن يركز المؤرخ فيــه على تاريخ المجتمعات، وليس على تاريخ الأمم، ومن ثمَّ الغوص في حياة الناس العادية، لأن دراسة الأمة فحسب، هي جزء من المجتمعات وليست أساساً لها، لذلك قسّم في دراسته هذه المجتمعات إلى:

١- المجتمع المصري القديم.

٢- المجتمع المسيحي الغربي.

٣- المجتمع المسيحي الأرثوذكسي.

٤- المجتمع الإسلامي.

٥- المجتمع الهندي.

٦- مجتمع الشرق الأقصى.

وقــد أظهر **توينبي** سبــب إعجابه بالمجتمع المصري القديم، إذ يعــدّه مجتمعاً فذّاً إلى أقصى حدّ مقارنة بمجتمعات أخــرى، عاشت الظروف الطبيعية القاسية نفسها، ولم ينتجوا حضارة (بحيرة نو عند منابع النيل مثلاً). فقد ظل هذا المجتمع المصري القديم مدّة طويلة في حالة نماء وتطور، فالقوة الدافعة في داخله، أنتجت القدرة على تجفيف المستنقعات، ومن ثــم بناء معجزة الأهرامات وغير ذلك، وبذلك استطــاع المصريون القدماء السيطرة الكاملة علــى كل معوقات الطبيعــة، كما بيّن أيضاً قدرتهم على إنجــاز التنظيم الإداري، والسياسي، والفني، وتحديداً في عهد الأسرة الرابعة.

نظريته في التحدّي والاستجابة

أبــدع **توينبــي** هذه النظرية نتيجــة ثقافته الواسعة، ولاسيّما اطلاعــه على التوراة، فقد استنبــط من التــوراة بعض أفكاره، مثل أن التاريخ، هو مجموعة مــن الأفعال يبرز فيها الله كمتحدٍّ للبشر، أفراداً وجماعات..

تؤكــد نظرية التحدي والاستجابة، أن البشــر يتعرضون إما لتحدي البطون الجائعة، وإمّا لتحــدي النفوس التي تتوق إلى الله، العلي القدير. والتحدي الأساسي برأيه، هو نعمة منحها الله للإنسان، ولهذا منحه حرية الاختيار.

كما بيّن أهم التحديات التي تواجه البشر خلال تاريخهم، منها الخارجي، مثل الاحتلال العسكري الأجنبي، أو التأثيرات الثقافية الخارجية، ومثال على ذلك تاريخ سورية القديمة، إذ تعرضت بشكل متتابع لاحتلال اليونان والرومان، الذين فرضوا ثقافتهم مدّة طويلة نسبياً، التي تمثلت بعادات وتقاليد ومعتقدات، لكن هذا المجتمع لم يستطع هضم هذه الثقافة الوافدة، وقد استطاع السوريون الاستجابة لهذا التحدي، عندما حانت الفرصة، فرحَّبوا بالعرب المسلمين، واعتنقوا الإسلام طواعية، وحتى المسيحيين من السوريين، أسهموا في القضاء على الوجود الروماني في سورية؛ ليتخلصوا من التأثير الثقافي للحضارتين اليونانية والرومانية، ومن ثم بدأ المسلمون بترسيخ ثقافة جديدة انسجمت مع رغبات السكان من خلال بناء مدن إسلامية جديدة، كانت مركزاً للحضارة الإسلامية الزاهرة.

وهذا ما حصل أيضاً في المجتمع الغربي، عندما وصل المسلمون إلى إسبانيا، وحاولوا متابعة طريقهم إلى فرنسا، فواجههم الغربيون واستجابوا لهذا التحدي في معركة تور (بلاط الشهداء) عام (٧٣٢م)، التي أسهمت في خروج العرب والمسلمين من إسبانيا نهائياً فيما بعد، عام (١٤٩٢م)، لكن توينبي يلفت النظر إلى دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، لأن الأوروبيين والإسبان استفادوا من منجزات هذه الحضارة، وتفاعلوا مع هذا الصرح الحضاري في مختلف المجالات التي أبدعها العرب والمسلمون.

أضاف **توينبي** عاملاً آخر يتحدى البشر، ينبع من داخل المجتمعات البشرية، تمثل في ظاهرة الرق، فبعض الرقيق، على الرغم من قسوة ظروف حياتهم، استطاعوا استخدام قدراتهم الخاصة من ذكاء ومعرفة وعلم، من أجل الارتقاء إلى مستوى ساداتهم، فتمكنوا من العمل بالتجارة التي منحتهم الجاه والثراء، والمهم بالأمر أن ذلك سمح لهم بإدخال عباداتهم وتقاليدهم، التي تنتمي إلى بلادهم الأصلية، ويتضح ذلك بما فعله الأرقاء السوريون، الذين أسهموا في نشر الديانة المسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية، وكان لنشرهم هذه الأفكار والمعتقدات، دور مهمٌّ في تقويض أركان الإمبراطورية الرومانية، لأن العبيد استهوتهم الأفكار التي تقول: إن المسيح جاء ليرفع من شأن المستضعفين والفقراء لا ليعزز مركز الأقوياء ويدعمهم، هذه الأفكار أدت إلى سخط كثيرٍ من المستضعفين والرقيق على الرومان، وبدؤوا بالعمل على تحدي هذه الإمبراطورية.

ويـــرى **توينبي** أنَّ أفــكار المسيحية، بانحيازها إلى المظلوميـــن والضعفاء، أسهمت أيضاً بقيام ثورة الزنوج بأمريكا، التي أدت في النهاية إلى وصول المجتمعات البشرية إلى إلغاء الرق، وكان ذلـــك بإصدار قانون منع الرق عام (١٨٠٧م)، وقـــد طُبِّق هذا القانون بعد ستة وعشرين عاماً، فألغي الرق نهائياً في أمريكا والمملكة المتحدة، وتتابع إلغاؤه في بقية بلدان العالم.

أما تفسير **توينبي** لانهيـــار الحضارات فيوضحه بقوله: إن الأمر يعود إلى قصور الطاقة الإبداعيـــة عنـــد النخبة القليلة في المجتمـــع، مما يؤدي إلى تفكك وحـــدة المجتمع، وذلك عندما ينتقل الولاء من الأقلية والنخبة إلى الأكثرية العددية، فتضعف الطاقة الإبداعية عند الأكثريـــة، لأنَّ هذه الأكثرية وصلت إلى الحكم بالثورة المسلحة، واستخدامها القوة العسكرية حتى وصلت إلى هدفها في تسلّق السلطة والحكم، ومن ثم تحولت الأكثرية إلى أقليّة مسيطرة بالقـــوة، مما يضعف القوة الإبداعية في المجتمع، وتتابع السلطة الجديدة بعدها اللجوء إلى القوة من خلال التوسع الحربي خارج حدودها، لذلك فالتوسع العسكري بنظره وحتى التطور التكنولوجـــي، ليس دليـــلاً على تطور المجتمع، ولا مؤشراً إلى ارتقـــاء حضاري، بل هو دليل على بداية الانهيار في المجتمع، ويؤكد توينبي أن الارتقاء الحقيقي يتم من خلال استخدامه لمصطلـــح «التسامي»، ويقصد به التغلـــب الاجتماعي على العوائق الماديـــة، مما يؤدي إلى انطـــلاق الطاقات الروحية والإبداعية من عقالهـــا، وذلك من خلال العقائد الدينية، فما هو دور الدين في رأيه في حركة المجتمع والتاريخ؟

دور المعتقد في الارتقاء الاجتماعي

يـــرى **توينبـــي** أن التاريخ هو تفاعل بين الله والإنســـان، فمثلاً في الوقت الحاضر صحيح أن العلـــم انتصر على الدين انتصاراً ساحقاً، في بعض البلاد، لكن ذلك الانتصار، بدا كارثة علـــى العلم والدين معاً، ويعترف أن العلم الحديث أثار قضايا معنوية، بالغة الأهمية، لكنه لم يستطع إيجاد حلول لها، وليس بوسعه ذلك، في حين الدين يعطي الإنسان حلولاً على المستوى الشخصي، والاجتماعي.

ويرى أيضاً أن الدين يقوم على مبدأ الوحدة بين البشر، هذه الوحدة لن تحدث إلا بمشاركة الله، فالعقيدة الدينية تؤكد التنوع البشري لعباد الله، وتقبّل البشر ذلك، في وجدانهم، فالدين فعـــل اجتماعي فردي، والإنسان الذي يؤمن بعقيـــدة دينية، يساعده ذلك على الارتقاء بنفسه ومـــن ثمَّ يصبح قدوة لغيـــره من البشر، فالفرد من خلال الدين، يشعـــر أنه أدى رسالته على

الأرض، فيضفي هذا الإيمان معنى وقيمة ربانية كبيرة عليه، لذلك فالارتقاء الديني أعظم أهميةً من الارتقاء المادي للبشر، ومثال على ذلك: الحضارة الغربية ولدت من رحم الديانة المسيحية، وكذلك الحضارة العربية والإيرانية ولدتا من رحم الدين الإسلامي.

يرى **توينبي** أن المسلمين في العصر الحديث، عندما طبقوا سياسة متأثرة ومسايرة لنظرة الغرب المادي، أصبحوا «بستان الكرم» للعالم الغربي في القرن العشرين، فأصبح الشرق المسلم ميداناً يتصارع عليه الغرب الأوروبي والأمريكي وكذلك روسيا لتحقيق مصالحهم، على حساب هذا الشرق الذي يتعرض لأبشع أنواع الاستغلال والقهر.

وقد أبدع **توينبي** ما أطلق عليه نظرية «البعث الحضاري» ويعني بها التلاقي الحضاري، بحيث تلتقي حضارة بادت منذ زمن طويل، مع حضارة في طور النمو، كما حدث في الغرب أثناء نهضته، فقد تم إحياء فلسفة أرسطو، وإحياء الثقافة اليونانية، فانعكس ذلك على النمو الحضاري، وظهور التطور في كلِّ المجالات الفنية والعمرانية والأدبية، خلال عصر النهضة.

مصير الحضارة الغربية

يرى **توينبي** أن العالم في العصر الحديث، يعيش في العصر الذري (النووي)، لذلك لا يمكن للحضارة الغربية تأسيس حضارة عالمية.

هنا نعتقد أنه ابتعد قليلاً عن الحقيقة، لأن العالم حالياً أصبح كقرية صغيرة، بفضل المنجزات العلمية للحضارة الغربية، فانتشرت اللغة الإنكليزية عالمياً، حتى الطعام والملبس اتخذ النموذج الأوروبي أنموذجاً، مما يدفع إلى القول: إنَّ العولمة الغربية انتصرت إلى حدٍّ بعيد في عصرنا الحالي.

لكن يمكن قبول فكرته القائلة: إنَّ حرباً عالمية جديدة، ستكون إبادة جماعية للجنس البشري، ولن يكون هناك عندئذٍ لا منتصر ولا مهزوم، والحل بنظره لحماية البشر من فناء جماعي، يكون باحترام التنوع الحضاري للبشر من جهة، والإيمان بالوحدة الإنسانية من جهة أخرى، هذه الوحدة لن تتمّ بفرضها بالقوة العسكرية، بل طوعاً وبسماحة نفس، ولن يتحقق ذلك إلا بتوفر موارد داخلية روحية ومعنوية، عندها تنطلق الرغبة لدى الشعوب في التعاون والتفاهم.

ويعتقد **توينبي** أن أهم ما يواجهه الغرب من تحديات في زمنه، ومازال، هو: عبادته للدولة الإقليمية، وتمركزه حول ذاته الأوروبية، لأن الغرب انحرف عن عبادة الله إلى عبادة

الدولـة الإقليمية والـذات، هذا الانحراف برأيه، سيجلب الحـرب لا السلام للغرب والعالم، لأنـه سيملأ نفوس الشعوب الأخرى بالحقـد والكراهية، لما يبثه الغرب من نظرة استعلائية نحو الشعوب، التي تعرضت للاستعمار والتجزئة، بسبب سياسة الغرب وعنجهيته، وهنا لا بدّ من تقديـر موقف توينبي من القضية الفلسطينية، وعدّ الصهيونية مماثلة للنازية، واليهودية بوصفها سياسة ظاهرةً اجتماعية شاذة. وحينما زار غزة (١٩٦٤م) قال: «إن قرارات الجمعية العامـة لهيئة الأمم المتحدة ، التي تَعِدُ اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى وطنهم، واستعادة ممتلكاتهـم، لما تزل ورقة ميتة، في حين كان تصميم اللاجئين على الظفر بوطنهم المسلوب لا يزال ثابتاً ولن يتزعزع».

وباختصار يمكن القول: إنَّ **توينبي** آمن بأنّ التاريخ الديني هو المحتوى الأساسي للتاريخ البشـري، مناقضاً بذلـك النظرية الماركسية للتاريخ، التي تعتقد بـأن المادة موجودة بشكل مستقـل عن عقلنا، وأنَّ العقل مستمد من المادة وانعكاس لها، لذلك تنادي باستحالة الفصل بين الفكر والمادة.

ومن وجهة نظر **توينبي**، فإن النظرية الماركسية، تنفي الحرية عن الإنسان، لأنها لا تعدّه مخيراً، بـل مسيراً من خلال القوانين المادية، ومن خلال خضوعه لحتمية تاريخية، وبرأيه، فـإن الأحداث التاريخية يحركها أمران: مادي وروحـي، فالإنسان مخير جزئياً، حتى يصبح الثواب الإلهي والعقاب مقنعاً لعقل الإنسان وروحه.

وبعـد، فلا يسعنا أن نقول، إلا إن **توينبـي**، قد أثرى المكتبة العالمية بفكره ونظريته إلى حركـة التاريـخ سواء اتفقنا معه في بعضها أم اختلفنا معه فـي بعضها الآخر، يبقى أن هذه الأفكار تحفّزنا على تأمّلها، والاستفادة منها في واقعنا التاريخي.

فراس السواح

بمناسبة صدور أعماله الكاملة بدمشق

نضال بشارة

«إن وصف كتاباتي بالحذر هو في واقع الحال ميلٌ إلى الموضوعية والمنهجية الصارمة.
لطالما كنتُ مولعاً بالثقافة الصينية وتجسّد ذلك في كتابي «إنجيل الحكمة التاوية في الصين»



وجد الباحث فراس السواح نفسه بعد عدة سنوات من التشتت بين عدد من المنظومات المعرفية منساقاً إلى دراسة الميثولوجيا وتاريخ الأديان، إذ وجد في هذه المنظومة مدخلاً لفهم تاريخ الإنسان وآليات تفكيره، ومدخلاً آخر لفهم ما يجري في أعماق النفس الإنسانية، ولسبر ذلك القلق الروحي الذي يميز فصيلة الإنسان العاقل (أو الهومو سابيان بالتعريف الأنثروبولوجي) عن بقية فصائل الكائنات الحية.

كانت بدايته مع الكتابة والنشر، وهو في مرحلة الدراسية الثانوية، عندما نشر عدداً من القصص القصيرة في الصفحة الأدبية لجريدة دمشق المساء، ثم تحوّل بسرعة إلى كتابة الدراسات ونشرتْ له مجلة الآداب البيروتية عام (١٩٦٠م). كرمته أجيال القراء إذ

أبقت مؤلفاته في التداول مؤلَّفاً بعد آخر طوال العقود الأربعة المنصرمة، منذ أن أصدر كتابه «مغامرة العقل الأولى» عام (١٩٧٨م) الذي أعيد طباعته أكثر من عشر طبعات. وقد صدرت أعماله الكاملة في أكثر من عشرين مجلداً عن دار التكوين بدمشق. في هذا الحوار أسئلة حول أسباب إقامته في الصين منذ عام (٢٠١٢م) حتى صيف عام (٢٠١٨م) وما الذي أنجزه فيها، وما الذي وجده في فكر إخوان الصفا، وحول سلطة العقل مقابل سلطة النص الديني.

• أقمت في العاصمة الصينية بكين منذ عام (٢٠١٢م) حتى صيف عام (٢٠١٨م) فأيّ رياحٍ ساقتك إلى هناك، ولماذا الصين بالذات؟

لطالما كنتُ مولعاً بالثقافة الصينية، وقد تُوِّج ولعي هذا بتأليفي كتاباً صدر عام (١٩٨٨م) تحت عنوان «التاو تي تشينغ – إنجيل الحكمة التاوية في الصين»، وهو يحتوي على مقدمةٍ عامة في الفكر الصيني، وعلى نص الكتاب لمؤلفه الفيلسوف القديم «لاو تسو» بترجمتي عن عددٍ من المصادر، وعلى شروحاتي المطولة على المتن. وبعد عدة سنوات زار دمشق المستعرب الصيني الدكتور «شوي تشينغ قوه» واقتنى نسخةً من الكتاب، وبعد عودته إلى الصين راسلني وانعقدت بيننا أواصر صداقة توطدت بزياراتٍ أخرى قام بها إلى دمشق وبزيارةٍ لي إلى بكين للمشاركة في ندوة الحوار الثقافي الصيني العربي التي عقدتها إحدى الجامعات هناك. وقد تُوجت هذه الصداقة بإنجازنا كتاباً مشتركاً عن التاوية، صدر في بكين بالعربية مع النص الصيني للتاو تي تشينغ تحت عنوان «لاو تسو» عن دار النشر باللغات الأجنبية في بكين.

وفي صيف عام (٢٠١٢م) اتصل بي هاتفياً، وكان قد عُيّن عميداً لكلية الدراسات العربية في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين، وقال: إن لديهم شاغراً في الهيئة التدريسية وتمنى عليَّ أن أملأه. وهكذا كان. قضيت ست سنوات في الصين.

طريق النجاة

• في كتابك «طريق إخوان الصفاء» هدفت إلى الكشف عن ديناميـة التأويل في الفكر الإسلامي التي توقفتْ على يد الفقيه ابن تيمية المتوفى عام (٧٢٨هـ)، الذي كان له أكبر الأثر في إنتاج صيغةٍ جامدة للإسلام تتجلى اليوم بالسلفية الجهادية التكفيرية. فهل وجدت في فكر إخوان الصفاء مخرجاً مما نحن فيه؟ وكيف يمكن التأسيس مجدداً لطريق إخوان الصفاء؟

كان إخوان الصفا في عصرهم ظاهرةً تجديدية في الفكر الإسلامي، فقد قادهم التأويل إلـى إنكار ما درج عليه التفسير التقليدي من الفهم الحرفي لكثيرٍ من الآيات القرآنية، ومنها تلك التي تصف عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة.

كمـا قالوا بتعدد مستويات فهم النص الديني، لأن الأنبياء في خطابهم للناس يستعملون ألفاظـاً مشتركة المعاني يفهم منها كل إنسانٍ بحسب ما يحتمل عقله، لأن المستمعين لأقوال الأنبياء متفاوتون في درجات عقولهم، فمنهم عام ومنهم خاص ومنهم بين هذا وذاك. فالعامة يفهمون من تلك الألفاظ معاني، والخاصة يفهمون معاني أخرى أدق وألطف، وفي ذلك صلاحٌ للجميـع. وكان للإخوان موقفٌ من فهم النص القرآني يتفق مع موقف المعتزلة الذي يقوم على تحكيم العقل وترجيحه على النقل عن السلف. فالعقل عند الإخوان هو الرئيس والمرشد والهـادي للفضلاء من خلق الله، وهذا مـا جعلهم يعلون من شأن الفلسفة ويضعون الفلاسفة في مرتبةٍ تلي مرتبة الأنبياء. فالأنبياء كما يقولون هم سفراء الله بينه وبين خلقه، فإذا مضت الأنبيـاء لسبلهـا خَلَفَهم الحكماء وقاموا مقامهم فيما كانوا يفعلـون ويقولون. فمن قَبِل من الحكماء ما قالوه وعمل بما أمروا به فهو على طريق النجاة والفوز.

• هل يعني ذلك أن إخوان الصفاء يرون أن الفلاسفة هم أقدر على فهم وتفسير النص الديني؟

نعـم، كان ذلـك هو اعتقادهم ومؤدى قولهـم إنّ الحكماء هم ورثة الأنبيـاء، ولاسيّما أن الفيلسـوف في ذلك الزمن كان مستـودع معرفةٍ متضلعاً في علوم عصره من رياضيات وفلك وطـب ومـا إليها، أما رجال الدين فقد كانوا على جهلٍ بـكل علمٍ آخر عدا علوم الدين. وبما أن الإنسان عدو ما يجهل فقد عادى علماء الدين الفلاسفة والمفكرين والمتصوفة، وحرَّموا علـى أنفسهم كل علمٍ آخر لأن لديهم من كتاب الله مـا يكفيهم. أما إخوان الصفاء فقد رأوا أن الكمـال يحصل إذا جُمِعَ بيـن الشريعة الإسلامية والفلسفة، لأن القرآن قد عقد صلةً بين النبوة والحكمة عندما قال: «وآتيناه الكتاب والحكمة»، وما في معناه عن أكثر من نبي. وقال: «ومـن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً». وأعتقد أن من أوتي الحكمة وخيراً كثيراً بسببها هو الأقدر على تفسير النص الديني.

• وماذا عن موقف المعتزلة من الفلسفة؟

كان المعتزلة فلاسفةً دون أن يعلنوا ذلك، لأنهم اتبعوا الأساليب الفلسفية في البرهان على آرائهم وعلى رأسها علم المنطق. كما أنهم وضعوا العقل في مرتبةٍ أعلى من النقل، واعتمدوا عليه في تمييز الأحاديث الصحيحة بصرف النظر عن المعايير الشكلية التي وضعها علماء الحديث في التمييز، ونقدوا كثيراً مما ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم.

• **ولكن الفلسفة لم يكن لديها بالمقابل موقفٌ عدائيٌ من الدين، أليس كذلك؟**

منذ الكندي الذي أسس للفلسفة الإسلامية في عصر المأمون إلى ابن رشد الأندلسي، كانت هذه الفلسفة معنية بالتوفيق بين الفلسفة والدين. ولكن علماء الدين بقَوا على عدائهم للفلسفة وتكفيرهم للفلاسفة، لا نستثني من ذلك عقلاً جباراً مثل أبي حامد الغزالي الذي هاجم ابن رشد وفلسفته في كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة»، فرد عليه ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت».

سلطة العقل

• **إذن تقول بسلطة العقل مع إخوان الصفاء والمعتزلة والفلاسفة. وسؤالي الآن: ماذا تفعل سلطة العقل في مقابل سلطة النص الديني؟**

لا سلطة للنص الديني خارج سلطة العقل الذي يفهمه، ولدينا شواهد على ذلك من تاريخ الدين. فالنص المقدس للزرادشتية، مثلاً، كان مجموعةً من الأناشيد الدينية المعروفة باسم أناشيد الغاثا، التي نظمها زرادشت نفسه لشرح عقيدته. وبعد أن باعد الزمن بين الناس وعصر زرادشت، وجد الكهنة أن تلك الأناشيد صارت بحاجة إلى شروحات وتفاسير، فظهرت مجموعة الأفيستا الصغرى، وبعدها بمدةٍ ظهرت مجموعة الأفيستا الكبرى، وأخيراً الزندأفيستا، وذلك خلال ألف سنةٍ من عمر الزرداشتية. أي إن سلطة كلام زرادشت الأصلي قد أفسحت مكانها بالتدريج لسلطة التفسير أو العقل المفسر. ونستطيع إيراد أمثلةٍ مشابهة من البوذية والمسيحية وغيرها، ولكن الحديث عندها سوف يطول.

• تقول في مقدمة كتاب إخوان الصفاء: إن النص المقدس بطبيعته نص إشكالي، ثم تورد بعد ذلك عدداً من الأسباب المؤدية إلى هذه الإشكالية، ومنها أن النص المقدس في الديانات العالمية يُفترض أن يكون فوق الزمان والمكان، لأنه يتوجه إلى الإنسان في كل زمانٍ ومكان. هل أنت مع القائلين إنَّ النص المقدس يصلح لكل زمانٍ ومكان؟

إن النص المقدس إذا كان من أصلٍ إلهي يصلح لكل زمانٍ ومكان، وهذه نقطة دقيقة بحاجة إلى توضيح. فصلاحية النص لكل زمانٍ ومكان تعني أنه رسالةٌ لا زمانية تتفتح عبر مراحل الزمن من خلال التطور المعرفي للإنسان والمساحة المعرفية المتاحة لكل مرحلة، فكلما ازدادت المساحة المعرفية فهمنا مستوياتٍ للنص لم تكن ممكنة في المرحلة السابقة. فما كان يعرفه الناس في العصر الراشدي والأموي، لا يقارن بما توصلوا إليه في العصر العباسي الأول عصر انفجار المعرفة، عندما قاس علماء بيت الحكمة محيط الأرض ووضعوا خارطةً جديدة للعالم بأكمله. إن أحد أسباب إشكالية النص المقدس احتواؤه على معانٍ قريبة مباشرة وأخرى بعيدة، أو معانٍ ظاهرة وأخرى باطنة، الأولى نتوصل إليها بعملية التفسير، والثانية بعملية التأويل التي تعتمد على حجم التجربة المعرفية للإنسان التي تقود إلى إدراك عمقه وتعدد مستوياته.



إعادة النظر

• يرى بعضهم أنك تعاملت بحذرٍ مع المادة القرآنية في كتاباتك، في حين تعاملت بحريةٍ مع المادة التوراتية والإنجيلية، وذلك في كتابين «أساطير الأولين» و«الإنجيل برواية القرآن». هل يرجع ذلك إلى تفاديك الصدام مع حراس الشريعة؟

أولاً، أنا لا أخشى الصدام مع أحد، وعندما أريد أن أقول شيئاً أقوله دون حسابٍ للنتائج.

ثانياً، أنا ملتزمٌ منذ كتابي الأول بمنهجٍ علميٍّ موضوعي يستبعد المواقف السابقة وكذلك أحكام القيمة اللاحقة.

ثالثاً، أنا متعاطف مع الدين ومع المتدين الحقيقي الذي يستوعب معنى الآية القائلة: «لكم دينكم ولي ديني» ولا يتعصب.

رابعاً، لا تنسَ أنني أول من فتح باب المقارنة بين النص القرآني وما سبقه من نصوص حضارات الشرق القديم ونصوص أهل الكتاب، وذلك في مؤلفي «مغامرة العقل الأولى» الذي صدر قبل أربعين سنة وألهم جيلاً من الباحثين الذين ساروا على طريقه.

وبعد ذلك بمدة عالجت مسألة التناص بين النص القرآني والنصين التوراتي والإنجيلي في كتابين، يشير إليهما سؤالك، الأول صدر تحت عنوان «أساطير الأولين» خصصته للمادة التوراتية بعد أن نشرته متفرقاً على موقع مجلة الأوان، والثاني بعنوان «الإنجيل برواية القرآن».

إن ما يدعوه بعضهم بالحذر، هو في واقع الحال ميلٌ إلى الموضوعية والمنهجية الصارمة، ولكن بعض القراء يفضلون طرائق البحث الناشزة التي يلجأ أصحابها إلى القعقعة والضجيج لجلب الأنظار وكسب الشهرة.

• حدثنا عن إنجازاتك الفكرية خلال سنوات إقامتك في الصين؟

أنجزت ثلاثة مقررات جامعية لكلية الدراسات العربية، اثنان لطلاب مرحلة الليسانس وهما «موجز تاريخ العرب» و«موجز تاريخ الأدب العربي»، وواحد لطلاب الدراسات العليا وهو «الإسلام والقرآن ومقدمة في تاريخ فكرة الله»، وقد شغلت المقدمة نصف المقرر تقريباً. وفي العام الماضي اشترى مني المعهد العالي لإعداد المعلمين ببكين حقوق هذه المقررات

وترجمهـا إلى اللغة الصينيـة تمهيداً لنشرها أواخر هذا العام. كما أنجزت خلال هذه المدّة كتاباً جديداً بعنوان: «الله والكون والإنسان - نظرات في تاريخ الأديان»، صدر عام (٢٠١٦م). كمـا أنجزت بالتعاون مع دار التكوين بدمشق طبعة الأعمال الكاملة لمؤلفاتي في ٢٣ مجلداً، عُرضـت أوّل مرة في معرض مكتبة الأسد للكتـاب عام (٢٠١٧م). وكتاباً بعنوان «فصول من الفلسفة الصينية» صدر في صيف العام المنصرم.

• **ما السر وراء إنجاز هذا العدد الكبير من المؤلفات؟**

قبل سفري إلى بكين قال لي أحدهم، وكان قد شاهد برنامج «قصة نجاح» على الفضائية السوريـة، الـذي خصص مُعدّهُ معـن الصالح حلقتين للحوار معي: «ولكـن معن الصالح لم يسألـك السؤال الأهم وهو: ما سر نجاحك؟»، قلت له: «منـذ أن تفرغت للكتابة بشكلٍ كامل قبـل ثلاثيـن سنة، وأنا أعمل (٨) ساعات في اليوم، و(٧) أيام في الأسبوع، وأربعة أسابيع في الشهر، و(١٢) شهراً في السنة. لم أسمع بيوم الجمعة ولا بالأعياد والعطلات الرسمية. ولو أن إنساناً محدوداً اتبع هذا البرنامج لكانت له قصة نجاح».

«الكتابة المشتركة»

وكسر الصورة النمطية في السرد

علي الرّاعي

يُحكى أنّ ثمة شاباً ذهب إلى صاحب رواية «الفرسان الثلاثة» إسكندر ديماس، وعرض عليه أن يتعاونا معاً في كتابة رواية تاريخية؛ فما كان من ديماس إلا أن أجابهُ: وكيف تُريد أن يتعاون حمار وحصان في جرِّ عربةٍ واحدة؟ غير أنّ بداهة الشاب كانت حاضرة؛ فردّ عليه: هذه إهانة يا سيدي، كيف تسمح لنفسك أن تصفني بالحصان؟

لجرِّ عربة

ليس معنى ذلك أنه في الكتابة المُشتركة؛ ثمة حصان وحمار يتعاونان لجرّ عربة السرد دائماً، والأغلب أن من يجر العربة في هذه الحال خيولٌ لا غُبار على أصالتها، وما يُحدد «الرداءة»؛ هو جودة العربة، وجودة صناعتها ...

وعن عمل الفريق في العمل الإبداعي المُشترك، فهو ليس جديداً، حتى إنّ ثمة كثيراً من الأعمال الإبداعية لا يُمكن إنجازها دون تكامل جهود فريق، مثل الأعمال التلفازية، والسينمائية، والمسرحية وغيرها. وإن كان هناك «قائد» لهذا الفريق، غالباً ما يقع عليه إخفاق العمل الإبداعي، أو نجاحه، وأكثر ما يتجلّى في المخرج.

تدوين جماعي

ثمة أعمال إبداعية؛ ميزتها الفردية وحتى الذاتية، مثل الفن التشكيلي في مُعظم نتاجاته، أو السرد الأدبي. لكن هناك استثناءات لهذه الفردية، فقد نصدر كتباً بجهودٍ جماعية، كما

يحدث في معرض تشكيلي جماعي، وقد درجت العادة فيما سبق على اثنين، يكونان مُتقاربين في التفكير والهموم والشواغل، وحتى بالصياغة. لكن ما يُلفت الانتباه إليه اليوم في المشهد الثقافي السوري؛ هو كثرة الكتب الصادرة حديثاً باسم أكثر من مؤلف، يصل لأكثر من مئة كاتب، وقد يكونون من أكثر من بلدٍ عربي، وقد لا يعرفون بعضهم بعضاً.

ميزة هذه الكتابة أنها نتاج تجمعات ثقافية تهتم بشأنٍ مُعين وليس بنوع إبداعي فحسب، بل بشكل إبداعي ضمن النوع، وهذا أكثر ما انتشر في قصيدة «الهايكو» العربية، وفي القصة القصيرة جداً. بمعنى أنّ أغلب النتاجات التي تصدر مُشتركة اليوم؛ هي في أنواع القصة والشعر. وفي السابق كان أكثرها في الأبحاث والدراسات وحتى في بعض التجارب الروائية...

إصدارات اليوم غالباً ما تكون وراءها؛ روابط (فيسبوكية)، أرادت أن تجعل من الافتراض واقعاً من ورق في حنينٍ لحاملٍ ثقافي يُحاول طوال الوقت أن يكون يقين الأصابع.

قادمة من عالم الافتراض

و«الكتابة المشتركة»؛ ليست سُنّة جديدة في عالم الثقافة، فمنذ الإصدارات الأولى للكتابة كان يتعاون أكثر من كاتب في إصدار كتابٍ واحد يجمعُ نتاجهما الإبداعي، وإذا كان المُعتاد في الإصدارات القديمة؛ أن يجتمع اثنان، ونادراً ما زاد عن ثلاثة؛ وأن يكون المشاركون من ذهنية واحدة، وشواغل مشتركة، فإنّ اشتراك ما يزيد على مئة كاتب لإصدار كتاب واحد؛ هو ميزة الإصدارات اليوم ولاسيّما في الشعر والقصة القصيرة. وقد تضاربت الآراء النقدية، حول أهميّة الكتابة المشتركة؛ وحظيت تجارب بعض الكتاب، بطوفان من النقد الجارح، كان يشغل الساحة الثقافية بشكلٍ كبير، وذلك من الجهة المناهضة لهذا النوع من الكتابة.

عن مثل هذا التدوين الجماعي تقول الشاعرة لُجينة نبهان التي كان لها مثل هذه المشاركة في ديوان مشترك مؤخراً «همسات على أجنحة البحر» مع مجموعة من الشعراء السوريين: إنّ التجربة المشتركة في الكتابة؛ تُفيد - عدا عن أنّها تؤمن إطلالة ولو سريعة للشاعر- في تأمين احتكاك مباشر للنص الشعري مع أقرانه من النصوص ما يضع الشاعر (الجاد) أمام حتمية إعادة تقييم نصه واكتشاف مساحات التناص والتشابه في المفردة والصورة والفكرة والمناخ الشعري للنص عامةً، وما يضعه أيضاً أمام تحدٍّ جديد في خلق نصه الخاص المُتفرد الخارج عن السائد والمتشابه والمتوقع. كما أن مثل هذه الكتابة تُفيد أيضاً في خلق حالة

تفاعلية توليدية ترتقي بالنص عموماً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، وربما تكون الأهم، الرمزية التي تحملها التجربة، وروح الفريق والعمل الجماعي للوصول إلى مُنجز فيه من روح الجميع وخلق ذائقة شعرية شبه مُتجانسة... لكن نبهان في كل ما سبق تفترض تجربة كتابة جماعية جادة تخضع لمعايير تقييم مدروسة بدقة في اختيار النصوص المشاركة، ومشاركين يكون عندهم مشروع شعري حقيقي لا يدخل ضمن حالة الاستسهال الأدبي. أما الشاعرة والناقدة فاديا الخش؛ فترى أن الكتابة المشتركة تُعدُّ- بشكلٍ أو بآخر- كسراً للصورة النمطية للكتابة، ومحاولة لفتح أبواب جديدة في عالم الكتابات.

استخلاص الأبيض من الطيف

وفي الوقت الذي ارتآها بعضهم، مجرد مشاركة وجدل بين شخصين يتحاوران إبداعياً، يحتفظ كل منهما بخصوصيته، فلا تنصهر ذاته في الذات الأخرى مع ضرورة وجود كثيرٍ من المشتركات الثقافية والسياسية والاجتماعية والبيئية، ومع كثيرٍ من التقارب في الهواجس والخبرات الحياتية، والتركيبة النفسية، والرؤى الأدبية والفكرية، أي كمن يستخلص اللون الأبيض من ألوان الطيف؛ فإنَّ هناك- وفي الجانب الآخر- من عدَّ الكتابة المشتركة، زواجاً أدبياً غير موفق، لا تسفر عنه إلا ولادات مشوهة، وبأنها خرق سافر للكتابة الإبداعية الجادة التي تشترط التفرد، لا المشاركة، وهؤلاء يرتؤون أيضاً أن اختلاف الأصوات في الكتابة إنما هو مدعاة لسقوط النص الإبداعي.

تؤكد الخشن، ونحن نوافقها في هذا التأكيد: لا يمكن لنا، عدّ الكتابات المشتركة، فناً مستحدثاً، فقد عرفه العالم قديماً وحديثاً حيث كثير من الأساطير والملاحم والخرافات والأمثال الشعبية لم يَصُغْها كاتب، بل صنعها الضمير الجمعي، مثال الرواية الصينية (قصة الحضارة، وقصة حواشي الماء) إذ كتبهما رهط كبير من الناس..

كما عُرف هذا النوع من الكتابات في العالم العربي، وذلك عبر (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا)، هذه الرسائل التي بلغ عددها خمسين رسالة. وهنا نذكّر بحكايا ألف ليلة وليلة التي بقيت الإضافة على حكاياها في مرحلتها الشفهية، حتى حُسم أمر تدوينها في بريطانيا منذ ما يزيد على أكثر من قرنٍ ونصف القرن، ففي مرحلتها الشفوية؛ كان دائماً ثمة من يُضيف إلى حكاياتها حكايات، ومن مُختلف البلدان والحضارات التي تنقلت في أرجائها، وقد أصبحت «كتاباً عالميّاً»...

وفي مرحلة سابقة؛ أسهم ثمانية وعشرون كاتباً أوروبياً في كتابة رواية ضد الحرب، وحديثاً خاض الشاعر العراقي أسعد الجبوري التجربة بفرادة غرائبية حين اختار لقرّائه مئة قصيدة لشعـــراء من العالَمين الغربي والعربـــي. جمع هذه القصائد ملتقطاً بحســـه الشعري العالي الخيـــطَ الأزرق الذي يربطها، بحيث بدت منسجمة وكأنهـــا قصيدة واحدة، وخاض التجربة أيضـــاً؛ كل من الروائي أمين صالـــح والشاعر قاسم حداد حين اشتـــركا معاً في كتابة رواية (الجواشـــن) التي رآهـــا بعض النقاد من الاستثناءات. كذلك الأمـــر بالنسبة إلى رواية (عالم بـــلا خائط) للروائي عبد الرحمن منيـــف والروائي جبرا إبراهيم، جبرا، اللذين حققا نجاحاً ملحوظـــاً، أسهمت في نجاحه الوحدة الفكريـــة التي تحلى بها الكاتبان بالإضافة إلى المهنية العالية التي امتاز بها كل منهما على حدة.

وأخيراً إذا ما تحدثنا عن «الأنطولوجيّات» والمختارات من قصائد وقصص كانت ولا تزال تصـــدر في كتـــاب واحد فسنحصل على المئات، ولعلّ أكثرها جـــدلاً تلك التي أصدرها على أجزاء الشاعر السوري المقيم في اليابان محمد عُضيمة من الشعر العربي الحديث. كتابات هي أقرب لمهرجانات أدبية، لكن بين دفتي كتاب.

لَمُّ شملٍ

في ظاهرة الكتابة الجديدة المُشتركة؛ يُمكن للمرء أن يقرأ أكثر من إشارة إلى هذه الحالة مـــن «لم الشمل» في كتابٍ واحد... لعلّ أبرزها تجاهل دور النشر للكتابة الجديدة التي تسعى اليـــوم، وبلا هوادة، إلى كسب شرعية ثقافية ما، في المشهد الثقافي المُكرس لنوعية واحدة مـــن الكتابـــة المُستمرة منذ عقودٍ طويلـــة، مثل القصة القصيرة جـــداً، والقصيدة الومضة، ونصوص الهايكو، وحتى في بعض قصائد النثر وغيرها... ومن ثم نقل هذا النتاج الذي كان قد سبق نشره غالباً في مواقع الميديا الجديدة – مواقع إلكترونية وفيسبوك- والذي يُعطيه النشر الورقي شرعيةً ما. ولأنّ الإصدار المُتفرد قد لا يُحقق مثل هذا الإجماع والقبول على الإصـــدار الجديد؛ كانت الدعوة لمثل «التعاضد» في النشر الجماعي، الذي على الأقل يصير القائمون عليه؛ يُشكلون مثل هذا «الاعتراف» به بمفردهم، أو قل بمجموعهم، وهم الذين قد يتجاوز عددهم المئة كاتب...

وإذا مـــا أخذنا الأمور المادية، وكلفة الإصدارات الورقية الباهظة في الحسبان؛ فإنّ مثل هـــذا الالتفاف لإصدار كتاب ورقي يُخفـــف كثيراً من هذه النفقات التي قد يعجز عنها كاتب

واحـد بمفـرده في هذا الزمن الصعـب...، ويُمكن أن نُضيف أمراً ثالثـاً قد يكون وراء مثل هـذا النتاج الجماعي في الإصدارات؛ وهو في ظل ندرة المُتلقي والقارئ في العالم العربي؛ فقـد تُشكل هذه الإصدارات؛ دائرة من القُرّاء؛ هم أنفسهم أصحاب النتاج الورقي نفسه، في قراءتهم لنتاج بعضهم بعضاً، حتى إن أمست هكذا دائرة؛ دائرة مُغلقة.

ومـن المهم جـداً أن نذكر صبغة تجاريـة يستغلها القائمون على بعض هذه «الروابط» والمجموعـات الأدبية لتحقيق كسبٍ ماديٍّ ما، يُجمَع ويُنـال من أعضاء هذه الروابط بحجة الإصـدار المُشترك، وهـم المدفوعون بغبطة المشاركة وولادة كتـاب ورقي بين أيديهم، قد يكـون صعباً نيلـه أو إنجازه لواحدٍ منهم بمفرده، سواء من جهة قدرته المادية لإصدار كتاب، أم لعجزه عن إنتاج مجموعة النصوص التي تكفي لإصدارها في كتاب.

إذن، الكتابة المشتركة:

- بعضهـم وجدها زواجاً أدبياً غير موفـق، لا تسفر عنه إلا ولادات مشوهة، وبأنها خرق سافر للكتابة الإبداعية الجادة التي تشترط التفرد، لا المشاركة.

- تؤمن إطلالة ولو سريعة للشاعر في تأمين احتكاك مباشر للنص الشعري مع أقرانه من النصوص ما يضع الشاعر (الجاد) أمام حتمية إعادة تقييم نصه، واكتشاف مساحات التناص والتشابه في المفردة والصورة.

لذلك أقرأ الشعر

لينا شدود

ما الذي يُغرينا في قراءة شاعر ما؟

أهي رؤيته المغايرة التي تزيد من ثراء تجربته وفرادتها بما تحمله من إشارات فلسفية وفكرية وجمالية، أم دأبه على كتابة شعر مسكون بهواجس الاكتشاف ومشاكسة الواقع المحسوس واللا محسوس، بالإضافة إلى نبذه للوصايا التي هي ضد الوعي؟

كل ما تقدّم يقود الشاعر إلى انتقاء المفردات النافرة التي تنجح في تبديل لون الجلد وربما الأرض أيضاً بعمليات تحاكي إلى حدٍّ بعيد ظاهرتي الحت والتعرية.

وهكذا لم يعد أمامك أيها القارئ سوى التحديق في عين الشاعر المُبْهَمة والمُتهِمة أو المُنْصفة للشعر سواء في انكساراته أم انتصاراته، والاحتفاء معه حتى لا يضيق صدر العالم في حال خفت صوت الشعر يوماً.

فحين يختار الشاعر خط الأفق لإطلاق صرخته المدويّة أو الخافتة في وجه العالم، تأتي قصيدته قدراً لا مفرّ منه، ويتجلّى ما يقترحه لنا كلمعة برق قادرة على إيقاظ أرواحنا، فنأخذ كل ما يقوله لنا على محمل الجدّ، حتى إننا نكاد نحدس بما يحدس به كنوع من التماهي فننتصر له كما ينتصر بنا. وكلّما تمكن الشاعر من تبديد عجزنا نغدو كمعجزاته المتنقلة هنا وهناك.

يحـــدث أحياناً أن تنهي قراءة قصيدة مـــا فيتملّكك حزن غريب، حتماً ليس لرومانسيتها، بل لأنها لامست ذلـــك الجزء الغامض والمحّمي داخلك، وكأنها نشلت من ماء بئرك الخاص وتركتك بحالة ظمأ دائم. الآن وقد صار لخيالك جسد من كلمات، ستقاسي من جوع أزلي إلى الشبيه المتعذّر والنادر، ولن ترضى بما هو دونه بعد أن مسّك.

تشدّنـــي قصائد الشاعر الهندي **جاينتا مهاباتـرا**، وأجد متعة لا تُضاهى في تتبع حيرته واضطرابـــه وسرده المطـــوّل غير المُضجِر بسبب التناغم الجليّ بيـــن سيكولوجية القصيدة والشاعر.



مهاباترا

جينتا مهاباترا الشاعر الهندي المتحدّر من الطبقة المتوسطة والأستاذ الفيزيائي المعروف الذي أتم تعليمه المبكر في الغوتاك ليمتهن التدريس والخدمة في كليات حكوميـــة مختلفة في أوريسا بعـــد حصوله على شهادة الماجستير مـــن الدرجة الأولى. كتـــب الشعر باللغتين الإنكليزيـــة والأورديـــة ، وحاز عدة جوائـــز، من أهمها جائزة «جاكوب غلاتستين» التي تمنحها مجلة شعر، كما أنـــه أول شاعر إنكليزي هنـــدي تمكن من الفوز بجائزة «ساهيتيا أكاديمي» للشعر الإنكليزي عام (١٩٨١م).

كتـــب مهاباترا كثيراً من القصائد الشعبية الشهيرة التي عُدّت فيما بعد مـــن كلاسيكيات الأدب الإنكليزي الحديث، مثل قصيدة «جوع».

«سمعتهُ يقول: ابنتي أكملت الخامسة عشرة
تحسّسها. سأعودُ حالاً، حافلتُك تُغادر في التاسعة.
غِواية والدها المُضنية أوقعت السّماء على رأسي
كانت طويلةً ونحيلة، وسنواتها باردة كما المطاط».

أهدى **مهاباترا** فوزه إلى أوريسا كما أعلن في خطابه حين تسلم الجائزة «إلى أوريسا التي تختزن جذوري وماضيّ، منها بداياتي وفيها سأنتهي».

بالإضافة إلى فوزه بجائزة «بادما شري» المرموقة من رئيس الهند عام (٢٠٠٩م)، وحصوله على الدكتوراه الفخرية عام (٢٠٠٩م).

مــع أن **مهاباترا** لم يكن مــن نتاج مدرسة الشعر في بومباي، استطاع ومع مرور الوقت أن يكتســب صوتــه الشعري الخاص والمختلف إلى حدّ بعيد عــن معاصريه، وقد كان أحد أبرز المؤسسين للقصيدة الهندية الحديثة، وفيما بعد أصدر مجلة أدبية باسم «**تشـاندراباغ**» نسبة إلى اسم نهر ذي أهمية في أوريسا.

ترجــم **مهاباتــرا** روح الهند معتمدًا على الأسلوب التجريــدي ليعبّر عن أحاسيسه دون أن يغفل عن الملامح الحسيّة والنفسيّة للهند. بشعره شجّع العالم ليُصغي إليه ولمنطقته.

قصائـــده حرة تتحرك ببطء، ونعومة، ومن ثم تبزغ فجأة الصور الحسيّة النادرة للهند في استعارات لا تُنسى نتيجة دمج الأضداد بخيال يتوهج كالشرر كما في هذا المقطع من قصيدة دولي:

«بعدما انتهت حروب الكالينغا
ها هي حقول دولي المُراحة
تُخفي دم الأجساد المذبوحة.

كأرض أخفَت داخل موتاها نهم
ديدان دون شفقة
أرشدت الثعالب إلى عوراتها المترهلة.

بعد سنوات، ستُرجِف ريح المساء
ماء نهر دايا الصقيل.
عويلٌ في الصخر يعلن عبث العالم
كزيزان الحصاد البكماء في الليل».

يُعرّف **مهاباترا** نفسه بأنه الشاعر الأوريسي الذي يكتب بالإنكليزية. ألّف عدداً من الكتب النقديــة وسبعة وعشرين كتاباً شعرياً، سبعة منهم فحسب كُتِبَــت باللغة الأوردية، مع أنه بدأ كتابة الشعر في الأربعين من عمره.

يقول مهاباترا: «المهاتما غاندي كان دليلي في مواجهة فساد العالم».

ينتمـــي الشاعر الهندي مهاباترا، الوفيّ لروح وثقافة أمته، إلى مناطق المجاعات والفقر؛ التي زودت شعره بالرؤى والصور الصادقة، كما في قصيدته « خريف آخر»

«خريف آخر

تهب الرّيح الجنوبية باستمرار من جهة النّهر.

فتأخذني رغبة في الطيران،

الرّيح تُباغت رماد الموتى

على ضفّة النّهر، فترجفُ الخرائط الرقيقة

في يد بائعها، وتضغط مُبعدةً

ستائر المهرجان اللامعة.

لتلهث بين الصخور الطحلبية، من هنا

أرى الرّيح تُحرِّك السّراخس،

بشدّة فتشوّش كلّ الأفكار،

أحداث الفصل... غرفتي...

التي تحتفظ بكل ما خفيَ.

دفتر ملاحظاتي، وإشارات الرَّاديو التي استدللتُ عليها.

حيث تنزلق قدماي في الحذاء وخارجه.

لكن في المكان الذي لا يُسمَع فيه صوت الرّيح،

يُمكن لأحدنا أن يشعر

بروح الزّهرة وعبيرها.

هنا، حيث كل شيء لا يزال كما هو

وكافٍ لجعلي أرجف من البطاقات القديمة التي استلمتها يوماً.

ها أنا أرقبني، وأنا أنظر من النّافذة

إلى غُصنٍ يهوي من غُرفتي ماراً ببائع الخرائط

باتجاه شخص يُنادي باسمي

ويدخل ليسحبني ثانية.

أغاني الألم والفقد، تجعلني أبكي

كما أبي،

في النّهاية أجد الزّاوية البِلا تفكير حيث تنتظر الطحالب

وقد نفد صبرها لتظهر

في شقوق جدران الحلم،

ولكن الآن لا أستطيع أن أسمع أي أغنية.

جفنايَ مُطبقانِ، في حين

تهبُّ الرِّيح وتغيب

كشَعرٍ يلين ويقسو

ومن رماد الحقيقة يتردد صدى الفراغ

مُبتلعاً الرّيح والخريطة والنهر».



بيلي كولينز

وكـم تُربكنا قوة التنبـؤ في الشعـر، والغرابة التي يرتضيهـا بعض الشعراء معيـاراً رصيناً للشعر العظيم الذي يهيمـن عليك ويسلبك إرادتك فتعـود إليه مراراً دونمـا ملل، حتى لو غيّبك في دوّاماته، كما في قصائد الشاعـر الأمريكي **بيلي كولينـز** الذي يكتب شعراً حرّاً أخّاذاً، غير عابئ بالأوزان التقليدية.

ولد **كولينز** فـي نيويورك عـام (١٩٤١م)، وحصل على درجـة البكالوريوس من كلية الصليـب المقدّس، وعلـى الماجستير والدكتوراه من جامعة كاليفورنيا عام (١٩٧٥م). حـاز جوائـز عدة، منها جائـزة ملك شعراء الولايـات المتحدة (٢٠٠٢م)، وجائزة سلسلة منشورات الشعر الوطني عام (١٩٩٠م)، وجائزة زمالـة غوغنهايـم عام (١٩٩٣م)، كما أنـه شغل منصب شاعر الولايـات المتحدة بين عامي

(٢٠٠١- ٢٠٠٣م)، ولُقِّب بالشاعر الأكثر شعبية في أمريكا. يعدّ البروفيسور البارز في كلية ليمان الواقعة في مقاطعة برونكس.

سلّط كتابه الشعري الرابع «أسئلة عن الملائكة» الأضواء الأدبية عليه، إذ اختار تلك المجموعة من قبل الشاعرُ **إدهيرش** من أجل سلسلة الشعر الوطني عام (١٩٩٠م)، وقد أشاد الناشر ويكلي بالمجموعة والصور الغريبة الرائعة التي تحرّض على ردود فعل عاطفية.

مع **كولينز** لا يمكن تجاهل جدّية الكابوس الذي يكتنف أغلب قصائده، حيث يتقلّب أسلوبه مابين الشفافية والغموض، بغرض حثّنا على اجتياز بوابات الشعر، إشراكنا في متاهات شعرية مدهشة لن نفلت من إسارها إلا بعد أن نخلص إلى حكمة غاية في البساطة ولكنها حارقة وتدوم، ومن خلالها تُروِّض الصور الباردة ليتخلص كولينز من دبق الممكن، مُحلّقاً في فضاء المستحيل والدهشة بغرض إحراج الأبدية. تُحسب لكولينز قدرته على تدريب القراء على تذوّق بساطته الآسرة في سرده المُتقن والعفوي المعجون بروح الدعابة كي لا يتسرّب إلينا الملل.

وصف نفسه بأنه ضمير القارئ الواعي لكل ما يجري من حوله، وأن ثمة قارئاً في مخيلته، شخصٌ يحيا معه في غرفته، ويجادله طوال الوقت في موضوعات لا يمل منها.

يقول **كولينز**: «أعتقد أن عملي يتعلّق بفكرة أنني كنت أحاول طوال الوقت أن أنجز مساراً منطقياً وعقلانياً تارة يميل إلى الشمال وتارة إلى اليمين، ثم إن هناك مجموعة من الارتباكات التي عادة لا نستطيع تحمل تبعاتها لكن الشاعر على استعداد دائم للقيام بما لا يسعنا عمله».

في عام (٢٠٠٢م) طُلب منه كتابة قصيدة إحياء لذكرى سقوط البرجين التوءمين في ١١ أيلول، وكانت القراءة أمام الكونغرس:

«تخيّلتُ أن الجوّ سيكون نيّراً،

مَرمياً بنور نقيّ،

وليس كهذا السديم الكبريتي،

الذي صيّره الهواء معدنياً قبل العاصفة الرعدية.

كثيرون رسموا النهر هنا،

ولكن لا أحد ذكر جميع القوارب،

ومقاعدها الغاصّة بمسافرين عراة،

وقد انحنى كلٌ منهم فوق لوح الكتابة».

ثمة شعر يخلق عندك حالة من الترقب والقلق، وأن شيئاً مصيرياً وقاسياً على وشك الحدوث، حتى إنك تكاد تحبس أنفاسك كما في هذا المقطع من قصيدة «الدب» للشاعر الأمريكي **غالواي كينيل**، الذي ولد عام (١٩٢٧م) في بروفيدنس في رود أيلاند، وبسبب انطوائيته انكبّ **كينيل** في طفولته على قراءة الكتّاب الأمريكيين مثل **إدغار آلان بو وإيميلي ديكنسون**، وبعد سنين من الخدمة في قوات البحرية الأمريكية حصل على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف من جامعة برينستون، وفي عام (١٩٤٨م) حصل على الماجستير من جامعة روشستر.

جلّ قصائده كانت تعكس تجارب شتّى من الحياة اليومية، معتمداً فيها على الجوانب الروحية والثقافية، ومن خلال وفائه القوي لمعاصريه والأسلاف أيضاً على حدّ سواء.

دأب أغلب النقّاد على وصفه بأنه من أبهى شعراء أمريكا، ربما لأن الحضور الإنساني كان طاغياً في معظم قصائده، كما أن حذاقته في تقليد أصوات الحياة وارتباطه الوثيق بالطبيعة الحاضرة بتفاصيلها وكائناتها كخلفية عاكسة لقصائد تصوّر ببراعة تجارب شعرية لافتة، وسواء كانت معيشة أم مبتكرة هذا لا يهم، لأن شعره منحها مصداقية لا مجال للتشكيك فيها.

«مساء

يعتمُ السديم اللون القرمزي

للأبدية على التلال،

يعبرها الطير الأخير،

ويهوي يهوي

مفتوناً بتلك اللحظة».

وصفه الناقد الأمريكي موريس ديكشتاين بأنّه أحد أهم الشعراء الحقيقيين من بين أبناء جيله الذي تمكّن من جعلنا نشعر بقوة الوجود الإنساني. كما نوّه روبرت لانغبوم في مجلة

الشعر الأمريكية، أنه في الوقت الذي كان فيه كثيرٌ من الشعراء يكتفون بالمهارة والتهويل في قصائدهم كان كينيل يتحدث إلينا نيابة عن الحياة بصوته القويّ المتفرّد.

دأب في تجاربه المبكرة على حماية الحقوق المدنية ومناهضة الحروب.

إذن، كل ما تقدم مهّد كي يغدو من أهم الأصوات الشعرية الأمريكية، على الرغم من أن بعضهم كان يروق لهم أن ينعتوا قصائده بالقسوة والفجاجة، ومع ذلك حاز عن مجموعته «قصائد مختارة» جائزة بوليتز الشهيرة للشعر الأمريكي، وجائزة الكتاب الوطني فيما بعد.

صرّح **كينيل** لصحيفة لوس أنجلس تايمز، «أنه منحاز للقبح في الحياة ليخرج منه بالحقيقة التي تصنع الشعر، بدلاً من التركيز على الأحداث المبُهجة فيها».

عاش في فرمونت سنوات عدة، وتوفي عام (٢٠١٤م) عن عمر يناهز سبعة وثمانين عاماً.

«باقٍ على قيد الحياة أقتات على دم الدب فحسب،
بإمكاني رؤية جثته المقلوبة البعيدة أمامي
كسفينة بخارية خربة،
في حين يتقلّب الفراء الكثّ في الريح.
أعتليه
وأحدّق في العينين الضيقتين،
وقد مال الوجه الهلع على الكتف،
على الأغلب اتسعت فتحتا الأنف
حالما التقط رائحتي وهو يموت.
أشقّ
قناة في فخذه، آكل وأشرب،
أصنع شقّاً على طوله كاملاً
أفتحه وأتسلقه
وأغلقه عليّ
محتمياً به من الريح
وأغفو»

عادة يُفلح الشاعر الذي حنّكه الزمن في تدريبنا لا شعورياً ونحن نقرأ قصائده، على اكتساب مهارة تذوق الشعر والتلذذ بمساحات الضوء التي تكتسحنا دون إذن منا، إذ يغدو ما ينتقيه لنا من كلمات وصور رموزاً سحرية لا فكاك من سطوتها.

كما في هذا المقطع من قصيدة الشاعر الأمريكي **ويليام ستافورد** (١٩٩٣- ١٩١٤م) الذي ولد في ولاية كانساس في الولايات المتحدة الأمريكية. **ستافورد** الملقّب بشاعر السكينة والسلام. على الرغم من صوته الشعري الهادئ نجح في أن يثير كثيراً من القضايا والأسئلة، وذلك حتماً لشدة اهتمامه بكل ما هو مثير وغير مألوف. بمفرداته العادية وبساطة صوره كان يحرص على كشف أسرار العالم وجلب السلام للأرض؛ إلى الحدّ الذي يجعل قارئه يعيش معه مغامراته الشعرية وقد تملّكه شغف الكشف والانتقال إلى ما هو محسوس وغير مرئي.

حساسية **ستافورد** المفرطة تجاه الأماكن والأزمنة وانسجامه مع الحياة البريّة جعلا منه شاعراً حقيقيّاً ومستقلاً، ولا يسعك هنا سوى أن تصدّق أنه فعلاً كان يودّ إنقاذ هذا العالم بشعره.

«حينما تعبر أرضاً كهذه

تكون ذاتك أكثر: لمعة البرق

تفصحُ عنك؛ كلّ جلمود

ينفي بقية العالم»

ولو أنه كان يصادف أن نفور بعضهم من شعره واتّهامه بلعب دور الواعظ غير المرغوب فيه. كان شغفه بالقراءة والكتابة يعود إلى تعلّق والديه بالقراءة أيضاً. صرح أكثر من مرة أن الصوت الذي يسمعه في قصائده هو صوت أمه، إذ كان يتحسّس أثر وجودها في مواقفه تجاه الأحداث والناس، وكذلك والده الحاضر دائماً بدوره البطولي وأخلاقه العالية.

كان **ستافورد** شاعراً حقيقياً وقوياً، لم يهتم يوماً برأي النقاد في أعماله، حتى إنه كان يؤكد أن النقاد لم يضيفوا له شيئاً.

من أهم الجوائز التي حازها، جائزة ملك شعراء الولايات المتحدة، وجائزة الكتاب الوطنية فئة الشعر، وميدالية روبرت فروست عام (١٩٩٣م).

«حينما يكون النهر متجمّداً اسألني
عن الأخطاء التي اقترفتها. اسألني
إذا كان ما أنجزته هو عمري.
آخرون عبَروا بخفّة في خاطري،
وآخرون جرّبوا أن يقدّموا العون أو
يسيئوا، اسألني عن الفرق
الذي منحه حبهم، أو بغضهم الشديد.
سأصغي إلى ما تقوله.
بمقدورنا أنا وأنت أن نستدير وننظر
إلى النهر الهاجع وننتظر. ندرك
أن التيار متوارٍ هناك؛ وثمة جريان
إلى الأمام والخلف على بعد أميال؛
يُبقي على خموده أمامنا.
ما يقوله النهر، هو ما أقوله».

أما عن شعراء العبث واللا جدوى، فلا يسعك سوى أن تدخل في اللعبة وفي تلك التوليفة المبهرة لشعر دون هالات أو مهمات وهنا تكمن جماليته. كما في قصائد **تينيسي ويليامز** (١٩١١ -١٩٨٣م)، الكاتب المسرحي الأمريكي المعروف الذي نال كثيراً من الجوائز عن أعماله المسرحية، من أهمها جائزة بوليتزر للمسرح عام (١٩٤٨م) عن مسرحيته «عربة اسمها الرغبة». كتب وليامز الشعر والمسرح والقصة، وحظيت أعماله بقبول شعبي لافت، حتى إن بعض شخصياته تعدّ شخصيات أسطورية، على سبيل المثال شخصية بلانش دوبوا من مسرحية «عربة اسمها الرغبة».

استخدم الأسلوب الرمزي، واعتمد على المفارقة بجمع أضداد الحياة من خير وشر، وكوميديا ودراما بغية تصوير فظاعة العالم. برأيه عالمنا ليس رومانسياً بل يحكمه العنف من خلال أشخاص هم أنفسهم يعانون من ندوب نفسية وجسدية.

«يجلس شاربو النبيذ في المرآب تحت أشعة الشمس.

افتقادهم للسعادة في الحب جعلهم بليدين.

ينقّلون مراوحهم بحركات لا تثير أي ريشة.

من وهج الشمس دكنت بشرتهم».

مـرّ وليامز بكثيـر من التجارب المؤلمة التي جعلته يعاني مـن الانفصال والاغتراب عن مجتمعـه إلى حـدٍّ ما، لذلك اتسمت أغلـب أعماله بالمأساوية والغموض، والاحتجاج على مظاهر العنف الذي يشوه العالم وينشر الرعب هنا وهناك.

مـع أنه كان مقلّاً في كتابة الشعر، إلا أن قصائـده زخرت بإشارات فلسفية وجمالية في صور صريحة تضبط الواقع بمفردات غاية في البساطة والدهاء.

«أنا تعب،

تعب من الحديث والعمل.

إذا كان عليك أن تلتقيني

في الشارع لا تسألني شيئاً

بإمكاني فقط أن أخبرك اسمي

واسم البلدة التي

ولدت فيها وهذا يكفي.

لا يهم إن كان الغد

سيأتي أبداً. حتى لو لم يكن

هناك سوى تلك الليلة ومن بعدها

الصباح هذا لا يهم الآن

أنا تعب. تعب من الحديث

والعمل. ستجد في قلبي

حفنة ضئيلة من الغبار.

خذها وانثرها خارجاً

في الريح. دع الريح تأخذها

وهي ستجد طريقها إلى البيت».

وماذا عن الشعر حين يقيم الجسور بين عذابات متعاقبة لأرواح سكنت أجساداً خالدة ما فتئت تجول في البقاع المتألمة، الشعر هنا هو الشاهد على ما خلفته الحروب من فظائع، بل هو الوسيط الروحي بيننا وبين ما مضى؟

كما في قصائد الشاعرة **نابو ماشين**، التي ولدت في سويتو ونشأت في كواكوا في جنوب إفريقيا. بصوتها الشعري القادر والمبتكر تمكنت من تجسيد عنفوان وقوة أجيال جنوب إفريقيا الفتية التي اكتشفت في الشعر المنطوق ما يُرضي حاجتها إلى التعبير عن قضاياها وطموحاتها. ألّفت **ماشين** كثيراً من الأعمال المسرحية، وشاركت منتجةً ومؤدية في فعاليات شعرية عمّت جميع أنحاء إفريقيا وأوروبا.

وهكذا حينما يشتد الظلم والقهر سيأتي الشعر ولو بشفاه مجروحة ليسرد مآسي شعب يعيش على أرض ممهورة للحروب. بداية بدا الأمر مغامرات شعرية بغرض منح الشعر طاقات روحية وجسدية قادرة على الإبداع والخلق وغير معنية بالتصنيفات الشعرية المجحفة التي لم تقدم للشعر يوماً ما يضمن استمراره ومواكبته لواقع مرّ يتلهف لمن يتمثله.

«يا إلهي...

إذا صدف ووصلت إلى عالمنا،

حيث لازمني وشاح نضالي

في شوارع سويتو،

إلى طفولتي في جبال كواكوا الموحشة،

إذا ما وصلت أرضي

بين الشفاه المجروحة لجوهانسبرغ،

أو من التاريخ الدموي لآزانيا

أو من الزهور الجميلة الذابلة في زيمبابوي

أو الصحارى المقفرة الداكنة لبوتسوانا

القريبة من خضرة سوازيلاند

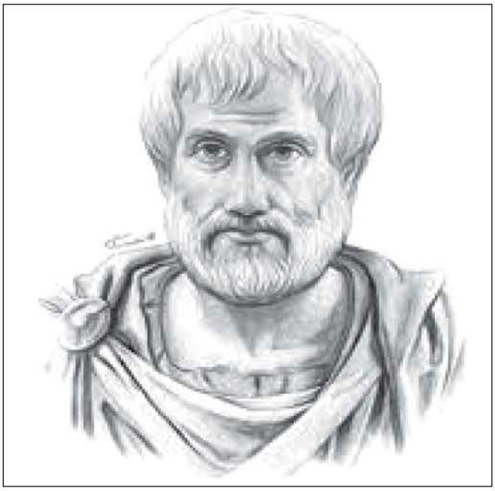
تحت شلالات زامبيا

بالقرب من تاريخ أنغولا السرّي

تماماً في لوحات سان في ناميبيا
فوق قمة جبال مالوتي في ليسوتو
أو بحر موزامبيق الأزرق.
تذكر الفتاة بشعرها المجدول المسفوع
التي عبرت كل حدود الصداقة؛
تذكّر نحيب كلماتها المؤطّرة؛
تذكّر عينيها المشعتين الحالمتين
وكيف ترجرجتا في المطر.
تذكّر كيف أطبق الصمت على
تفتّح ابتساماتها،
ركون قلبها داخل حزنها،
نجّها من الخوف.
أشبعها بمفردات الأمل لأجل شعبها،
دعها تغدو حرّة ثانية».

الإيضاح لأرسطوطاليس في الخير المحض

ناجح خضر الحمود



قال أرسطو: «كل علة أولية أكثر فيضاً على معلولها من العلة الكلية الثانية، فإذا رَفَعَت العلّة الكلية الثانية قوتها عن الشيء، فإن العلة الكلية الأولى لا ترفع قوتها عنه، وذلك أن العلة الكلية الأولى تفعل في معلول العلة الثانية قبل أن تفعل فيه العلة الكلية الثانية التي تليه، فإذا فعلت العلة الثانية التي تلي المعلول لم يستغن فعلها عن العلة الأولى التي فوقها، وإذا فارقت العلة الثانية المعلول الذي يليها لم تفارقه العلة الأولى التي فوقها لأنها علة لعلته، فالعلة الأولى إذن أشد علة للشيء من علته القريبة التي تليه».

إنه يقول: إنَّ هناك علة لكل الأشياء؛ أي إنَّ هناك قوة أولية هي سبب وجود كل الموجودات، وإنَّ هذه الموجودات ترتبط بها ارتباطاً مطلقاً إلا أن لهذه الموجودات أيضاً علة ثانية هي ما تجعلها تأخذ صفتها التي عرفت فيها. فالعلة الأولى هي خالقة العلة الثانية، والعلة الثانية هي ممكنة الزوال عن الموجودات التي تعطيها هي صفتها أو تحدد ماهيتها أو خصوصيتها،

أما العلــة الأولى أي قوة السبب الأوّل فغير زائلة، أي باقية بأثرها وتأثيرها في الموجودات. والأنيّــة تعني عنده الموجود، وهو الموجــود بشكل دائم أي غير قابل للزوال لأنه سبب وجود الأشياء، وليس هناك أي شيء سبب لوجوده هو، بل هو علة ذاته. إنه علة العلل.

نتابع كلماته

«ونحــن ممثلون ذلك بالأنيّة والحي والإنسان، وذلــك أنه ينبغي أن يكون للشيء أنيّة أولاً ثم يكون حياً ثم إنساناً. فالحي هو علة الإنسان القريبة، والأنيّة هي علته البعيدة. فالأنيّة أشد علة للإنسان من الحي لأنها علة للحي الذي هو علة للإنسان. وكذلك إذا جعلت النطق علة للإنسان كانت الأنيّة أشد علة للإنسان من النطق لأنها علة لعلته، والدليل على ذلك أنه إذا رفعت القوة الناطقــة عــن الإنسان لم يبق إنساناً، وبقي حياً متنفساً حساســاً، وإذا رفعت عن الحي لم يبق حياً ويبقى أنيّاً لأن الأنيّة لا ترتفع عنه، ويرتفع الحي لأن العلة لا ترتفع بارتفاع معلولها فيبقى الإنسان أنيّاً، فإذا لم يكن الشخص إنساناً كان حيواناً وإن لم يكن حيواناً كان أنيّاً فحسب.

فقد بان ووضح أن العلة الأولى البعيدة أكثر إحاطة وأشد علة للشيء من علته القريبة. من أجــل ذلك صــار فعلها أشد لزوماً للشيء من فعل علته القريبة، وإنما صار هذا على هذا لأن الشيء إنما ينفعل أولاً من القوة البعيدة ثم ينفعل ثانياً من القوة التي هي دون الأولى، والعلة الأولــى قد تعين العلة الثانية على فعلهــا لأن كل معلول علة تفعله العلة الثانية، والعلة الأولى أيضــاً لكنها تفعله بنوع آخر أعلى وأرفع، وإذا رفعت العلة الثانية عن معلولها لم تفارقه العلة الأولى لأن فعل العلة الأولى أعظم وأشد لزوماً للشيء من فعل علته القريبة. وإنما ثبت معلول العلــة الثانية بقوة العلة الأولى، وذلك أن العلة الثانية إذا فعلت شيئاً أفاضت العلة الأولى قوة على ذلك الشيء من قوتها فتلزمه لزوماً شديداً وتحفظه».

يمثــل الحديث الأول بالأنيّــة والحي والإنسان. والأنيّة هي علــة العلل أي هي علة الحي البعيــدة، والحي علة الإنسان القريبة. فإنّ لم يبق حيّاً بقي أنيّاً أي موجوداً، وهذا هو الوجود اللامــادي أي الوجــود غير المدرك بالحواس، لأن العلة الأولــى برأيه لا تنزع قوتها عنه، ثم يعطــي الإنسان علة أخرى هي النطــق، وزوال النطق عنه لا يزيل عنه قوة كونه حيّاً. والنطق هو صفة للإنسان، فالإنسان ليس حيواناً ناطقاً فحسب.

إذن النطق ليس علة وجود، بل صفة لهذا الموجود، وإنما يكون برأيه النطق علة للإنسان لأنــه يعرّف الإنسان بأنه حيوان ناطق فحسب. وعندما نصــف الإنسان بالتعريف أنه حيوان

ناطق فهذا يجعلنا نؤكد أنَّ النطق علةٌ للإنسان، ولكن عندما نعطي الإنسان تعريفاً آخر يجعلنا قادرين على أن نؤكد أن عدم وجود النطق عند بعضهم لا يزيل عنه صفة الإنسانية، فهو بغير النطق يمكن أن يستخدم قواه الدماغية، ويتمكن من تحصيل كثيرٍ من المعارف والخبرات، وهذا ما نجده عند البُكم الذين يمارسون حياة عملية ومهنية جيدة، بل كثيرٌ منهم يتقن أكثر من أصحاب النطق السليم.

إذن فالنطق هو إحدى صفات الإنسان وليس الصفة الكلية للإنسان، ومن ثمَّ ليس علة لوجوده. أما الحي فهو علة لوجود الإنسان وهو حسب قوله العلة التي يمكن أن تنزع قوتها عنه فيبقى أنيّاً أي موجوداً، ولكن دون أن يشرح لنا كيفية هذا الوجود أو ماهيته، وإننا نستنتج أن بقاء قوة الأنيّة يعني أن الإنسان هو في الأنيّة، قوة كامنة ممكنة على الرغم من أنها غير مدركة بتفاصيلها إلا أنها كامنة فحسب في الأنيّة متى أرادت كونتها وأعطتها علة وجودها الثانية، وهي الحياة كما أن الحطب هو نار كامنة، أو البذرة هي نبات كامن.

وإن تعريفنا للإنسان بأنه حيوان مفكر هو أكثر دقة من تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق. فعندما تزول عنه قدرة التفكير يبقى حيواناً، لكنه لا يمكن أن يوصف بأنه إنسان، فالتفكير هو علة للإنسان إن زال عنه بقي حيواناً فحسب أي كائناً حياً، وإن زالت عنه الحياة بقي أنيّاً أي موجوداً وجوداً ممكناً بفعل قوة الأنيّة التي هي القوة المنشأة (المكونة).

وفي باب آخر يقول:

«كل أنيّة بحق إمّا أن تكون أعلى من الدهر وقبله، وإمّا مع الدهر وإمّا بعد الدهر وفوق الزمان. أمّا الأنيّة التي قبل الدهر فهي العلة الأولى لأنها علة له وأمّا الأنيّة التي مع الدهر فهي العقل لأنه الأنيّة الثانية، وأمّا الأنيّة التي بعد الدهر وفوق الزمان فهي النفس، لأنها في أفق الدهر سفلاً وفوق الزمان، والدليل على أن العلة الأولى قبل الدهر بينٌ. وذلك أن الأنيّة فيه مستفادة. ونقول كل دهر أنيّة وليس كل أنيّة دهر فالأنيّة أكثر سعة من الدهر والعلة الأولى فوق الدهر لأن الدهر معلول منها، والعقل يحاذي الدهر لأنه ممتد معه ولا يتغير ولا يستحيل، والنفس لاصقة مع الدهر سفلاً لأنها أسفل تأثيراً من العقل ومن فوق الزمان لأنها علة الزمان».

هنا يقسم الأنيّة إلى ثلاثة أقسام أي ثلاثة مستويات: أنيّة قبل الدهر وهي علة للدهر، أي هي العلة الأولى، والدهر هنا يعني اللانهائي من البعد الزماني والمكاني ابتداءً.

أمّا الأنيّة الثانية فهي مع الدهر، أي وجدت بوجود الدهر، وهي العقل، أي إنَّ العقل وجد عند وجود الزمان والمكان وهو مرافق لهما.

أمّا الأنيّة الثالثة وهي النفس فهي بعد الدهر وفوق الزمان، أي هي تبقى لاصقة بالمكان وليست ممتدة مع الزمان، لأنها علة له، أي ينقضي وجود النفس زمنياً لكنها تبقى موجودة في المكان، أي خارج حدود الزمان المدرك.

إنه هنا يجعل للأنيّة ثلاثة مستويات من القوة: الأنيّة الأولى، والعقل الأنيّة الثانية والنفس الأنيّة الثالثة، وإنَّ هذه القوى الثلاث مرتبطٌ بعضها مع بعضٍ من جهة، وهي منفصلة من جهة أخرى.

وفي باب آخر يقول:

«كل نفس شريفة ذاتُ ثلاثة أفاعيل: فعل نفساني، وفعل عقلي، وفعل إلهي، فأمّا الفعل الإلهي فإنه تدبر الطبيعة بالقوة التي فيها من العلة الأولى، وأمّا فعلها العقلي فإنه تعلّم الأشياء بقوة العقل التي فيها، وأمّا الفعل النفساني فإنه تحرك الجرم الأول وجميع الأجرام الطبيعية لأنها هي علة حركة الأجرام وفعل الطبيعة، وإنما فعلت النفس هذه الأفاعيل لأنها مثال من القوة العالية، وذلك أن العلة الأولى أبدعت أنيّة النفس بتوسط العقل، ولذلك صارت النفس تفعل فعلاً إلهياً، فلما أبدعت العلة الأولى أنيّة النفس صيرتها كسياق العقل يفعل العقل فيها أفاعيله، فلذلك صارت النفس العقلية تفعل فعلاً عقلياً. فلمّا قبلت النفس تأثير العقل صارت أدنى منه في تأثيرها فيما تحتها، وذلك لأنها لا تؤثر في الأشياء إلا بحركة، أعني أنه لا يقبل ما تحتها فعلها إلا أنّ تحركه. فلهذه العلة صارت النفس تحرك الأجرام، فإن من خاصة النفس أن تحيي الأجسام إذا فاضت عليها قوتها، وتسددها أيضاً إلى العقل الصواب، فقد وضّح الآن أن النفس ذات أفاعيل ثلاثة لأنها ذات قوى ثلاث قوة إلهية، وقوة عقلية، وقوة ذاتية».

يتحدث هنا عن النفس الشريفة أي النفس البعيدة عن الكدر أو غير الملوثة وهي ذات أفعال ثلاثة أي قوى ثلاثة: نفسانية، وعقلية، وإلهية. فهي التي تحرك (الأجرام) يعني الأجساد، أي إنَّ حركة الأجساد مرتبطة بالنفس، والمقصود من النفس هنا الروح التي لا يمكن للأجسام الحية الحياة من دونها، والمعنى أن الروح هي القوة المحركة للأجساد، فالأجساد من دون روح هي أجساد عاجزة عن الحركة، وهذه الروح ذات طبيعة خيرة لأنها تدفع الأجساد نحو

مـــا يوافق العقل، لأن قبولها للعقل جعلها أدنى منـــه. ولذا تفعل أفاعيله. وهو هنا لا يتحدث عـــن النفســـ بشقيها السعيد والشقي، بل عن النفس السعيـــدة فحسب التي تفعل فعلاً عقلياً ومرتبطـــة بتوجيه إلهي، ونلاحظ هنا تأكيد ارتباط العقل بالإرادة الإلهية توافقاً، وهذا إنكار لفرضيـــات إمكانية ضلال العقل أو خطئه. فالعقل مرتبط مباشـــرة بالقوة الإلهية، التي هي الأنيّة الأولى والنفس الشريفة مرتبطة بالعقل، ومن ثمَّ مرتبطة بالقوة الإلهية وهذا الارتباط يجعلها خارج دائرة الخطأ، وهذه هي النفس التي ألهمها الله تقواها.

وهكذا يتبين من خلال دراستنا أن أرسطو قد بنى الكون على تقسيمات هي أشبه بالدوائر، التي ينبثق بعضها عن بعض. فالدائرة الأولى هي الأنيّة وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام، والدائرة الثانيـــة هي الدهر، والدائرة الثالثة هي الحياة. وهذا العمل يشبه تقسيم الذرة من حيث هي نواة وإلكترونات وبروتونات ونترونات.

وفي باب آخر يقول:

«إن أول الأشياء المبتدعة الأنيّة وليس من ورائها مبتدع آخر، وذلك أن الأنيّة فوق الحس وفـــوق النفســـ وفوق العقل. وليس بعـــد العلة الأولى أوسع ولا أكثـــر معلولات منها، ولذلك صـــارت أعلى الأشياء المبتدعة كلها وأشدهـــا اتحاداً. وإنما صارت كذلك لقربها من الأنيّة المحض، الواحد الحق الذي ليس فيه كثرة من الجهات، والأنيّة المبتدعة وإن كانت واحدة فإنهـــا تتكثر، أعنـــي أنها تقبل الكثير، وإنما صارت كثيرة لأنهـــا وإن كانت بسيطة ليس في المبتدعـــات أبسط منها فإنها مركبة من نهاية ولا نهاية، وذلك أن كل ما كان منها يلي العلة الأولـــى هو عقل تام كامل غايـــة في القوة، وسائر الفضائل والصور العقلية فيه أوسع وأشد كلية، والأسفل منه هو عقل أيضاً إلا أنه دون ذلك العقل في التمام والقوة والفضائل، وليست الصـــور العقلية فيـــه أوسع كسعتها في ذلك العقل، والأنيّة المبتدعة الأولى عقل كلها إلا أن العقـــل فيها يختلف بالنوع الذي ذكرنا، فلما اختلف العقل صار هناك صور عقلية مختلفة. وكمـــا أن الصورة الواحدة، إذا اختلفت في العالم السفلي وحدث منها أشخاص، لا نهاية لها فـــي الكثرة، كذلك الأنيّة الأولـــى المبتدعة لما اختلفت ظهرت الصور التي لا نهاية لها، إلا أنهـــا وإن اختلفت فإنه لا يتبايـــن بعضها من بعض كمباينة الأشخاص. وذلك أنها تتحد من غيـــر تفاسد وتتفرق من غير تباين، لأنها واحـــد، ذات كثرة وكثرة وحدانية، والعقول الأولى تفيض على العقول الثواني الفضائل التي تنال من العلة الأولى، وتتسلك الفضائل فيها إلى

أن تبلغ آخرها. والعقول العالية الأولى التي تلي العلة الأولى تؤثر الصور الثابتة القائمة التي لا تندثر فلا تحتاج إلى إعادتها مرة أخرى، وأمّا العقول الثواني فتؤثر الصور المائلة الزائلة كالنفس فإنها من تأثير العقول الثواني التي تلي الأنيّة المبتدعة سفلاً، وإنما كثرت الأنفس بالنوع الذي به كثرت العقول، وذلك أن أنيّة النفس أيضاً ذات نهاية، وما كان منها سفلاً فغير متناه. فالأنفس التي تلي العقل تامة كاملة قليلة الميل والزوال، والأنفس التي تلي الأنيّة سفلاً هي في التمام والميلان دون الأنفس العالية، والأنفس العالية تفيض بالفضائل التي تقبل من الفعل على الأنفس السفلية، وكل نفس تقبل من العقل قوة أكثر فهي على التأثير أقوى ويكون المؤثر فيها ثابتاً باقياً، وتكون حركته حركة مستديرة متصلة وما كان منها قوة العقل فيه أقل، يكون في التأثير دون الأنفس الأولى، ويكون المؤثر منها ضعيفاً مستميلاً دائراً، إلا أنه وإن كان كذلك، فإنه يدوم بالكون، فقد استبان لِمَ صارت الصور العقلية كثيرة، وإنما هي أنيّة واحدة مبسوطة، ولِمَ صارت الأنفس كثيرة بعضها أقوى من بعض، وأنيّتها واحدة مبسوطة لا خلاف فيها».

يقول هنا: إنَّ الأنيّة هي المبتدعة من جهة، ومن جهة أخرى هي الأقرب إلى الواحد الأحد «الخير المحض». إذن هي ليست هو على الرغم من أنها المبتدعة لكل شيء والأعلى من الحس والنفس والعقل، وهي مركبة من نهاية ولا نهاية، أي إنها محدودة بنقطة بداية ونقطة نهاية، ومادامت محدودة ببداية فهي مخلوقة، ومادامت محدودة بنهاية فهي فانية، فنهاية كل شيء هي إمّا فناؤه وإمّا تحوله إلى شيء آخر لا يشبهه، لأن تغيراً جوهرياً أو كلياً حدث له. ومادام هو علة كل الأشياء الأولى، فالمعلولات فانية بوصفها محكومة بنهاية أيضاً، هي في أقل تقدير نهاية علتها، وما انتهت علته أصلاً لا بقاء له. وبوصفها علة النفس والعقل، فالنفس والعقل محكومان بالزوال كما هي، ومن ثمَّ النفس والعقل لا يرتبطان ارتباطاً مباشراً بالأنيّة المحض، ثم يقول: إنَّ كل ما كان من العلة الأولى، أي هي، هو عقل كلي تام، كيف يكون العقل كليّاً وتاماً ومرتبطاً بنهاية، ثم يجعل هذا العقل الكلي التام متكثراً يعني أنه ينتج عقولاً كثيرة هي أقل منه قوة وبقاء؟

إذن عقل كلي ينتج عقولاً ناقصة، ألا يعني هذا أن العقل الناقص ليس عقلاً بالمعنى الصحيح لأنه يحتوي صفات غير صفاته الأساسية؟ وإذا كان العقل يعني الفضيلة التامة ألا يعني النقص في الفضيلة بعدّها صفة العقل هو هدم لجوهر كلمة العقل؟ فالعقل الكلي التام لا تتبدل صفاته عبر وجوده وإلا فَقَدَ ذاته كعقل، ولذا فإنه لا يتكثر مطلقاً وإنما هو ثابت

متصل ومنفصل مع عالم الحسيات حسب مقدرات هذا العالم الحسي. وليس الدماغ البشري سوى أداة تؤمن إمكانية تحقيق صلة الإنسان بالعقل، ويسمى تكثر العقل بالعقول الثواني التي تنتج النفس ومن ثمَّ النفس، هي ناتج العقول الثواني الناقصة عن مستوى العقل الأول، في حين قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾، (الشمس ٧-٨).

أي إنَّ الله هو من سوّى النفس، أي من خلقها وجعلها في قسمين هما الفجور والتقوى. والله هو الخير المحض أو حسب تعبير أرسطو الأنيّة المحض. ويقول كتاب الله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ (الشمس ٩-١٠).

وهنا ربطٌ للنفس بالفضيلة شرط التزكية، وشرط التفريط هو الابتعاد عن الفضيلة.

وبما أن الفضيلة هي صفة العقل الأول، فارتباط النفس بهذا العقل يكون باختيارها الفضيلة التي أمر بها العقل، لأنها صفته، ولا يمكن الاتصال به من دونها، فباب الدخول إلى العقل هو الفضيلة.

❁ ❁ ❁

تجليات الحرب على سورية

للدكتور شاهر الشاهر

محمد خالد الشبلاق



الأزمة السورية واحدة من الأزمات الدولية الكبرى؛ التي تعددت أطرافها وتشابكت أحداثها، حتى تحولت سورية إلى ميدان لتدخلات دول كثيرة تبلورت في اتجاهين، الأول معسكر التدمير والتكفير وتدعمه إقليمياً تركيا، ودول الخليج، والأردن، ومن ورائهم جميعاً الغرب بجناحيه الأوروبي والأمريكي، والمعسكر الثاني تمثله محلياً سورية، التي يدعمها إقليمياً كل من إيران، والعراق، وحزب الله اللبناني، ودولياً كل من روسيا والصين والبرازيل والهند وجنوب إفريقيا. ولإلقاء الضوء على هذه الأزمة بين أيدينا كتاب صادر ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب في سورية. يتألف من (٤٠٩ صفحات) من القطع الكبير، موزّعة على سبعة فصول ومقدمتين وقائمة بالمصادر والمراجع.

أمّا المقدمة الأولى فهي للدكتور فيصل المقداد نائب وزير الخارجية والمغتربين السوري، يبين فيها أهمية الكتاب والحقائق التي أوردها المؤلف عن هذه الحرب القذرة؛ التي شنَّت على سورية، وكيف استطاعت أن تنتزع اعتراف العالم بصمودها الأسطوري وقوة وبسالة جيشها، وتضحيات شعبها، وكيف استطاعت بصمودها أيضاً صياغة المنطقة والعالم.

أما المقدمة الثانية فهي للمؤلف يشرح فيها باختصار أسباب الحرب على سورية، ولماذا شنت هذه الحرب القذرة عليها، والهدف من تأليفه هذا الكتاب، ووَضْعِه بين أيدي القراء.

أضاء المؤلف في هذا الكتاب مواقف الدولة السورية وتطلعاتها وإستراتيجيتها خلال الحرب عليها، بكل غموض هذه الحرب والتباساتها وتداخلاتها وامتداداتها الخارجية، ويميط اللثام عن الجماعات التكفيرية ومن وقف وراءها، ومصادر تمويلها، والمخططات التي زجَّت فيها والأدوار التي أسندت إليها، وأيضاً معرفة طبيعة السياسة الأمريكية التوسعية والمزيد من التعمق في فهم النزعة الإجرامية لدى الولايات المتحدة الأمريكية. إنه يقدِّم لنا نظرة كثيرة الزوايا عن الأزمة السورية، ويُوثّقها من بداياتها إلى وقتنا الحاضر، كيف تطورت؟ وأي جهات خارجية تدخلت؟ وإلامَ كانت ترمي المخططات الغربية؟

الفصل الأول

المخططات الخارجية لتقسيم سورية

في هذا الفصل شرح المؤلف الصورة الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية من خلال استقصاء الخطوط العريضة عن طبيعتها العدوانية، وقدَّم نبذة عن مداخل سياساتها، وكيف تستخدم مختلف الأساليب لكسر الروح المعنوية للأمم.

يتألف هذا الفصل من ثلاثة مباحث، يناقش في المبحث الأول فكرة التقسيم في الإستراتيجية الأمريكية من خلال تحليله السياسة الخارجية الأمريكية منذ نشأتها، فلاحظ أنها تتسم بسياسة التدخل في كل شؤون العالم، ويكون هذا التدخل ما بين العسكري والدبلوماسي، فالولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأكثر ارتباطاً والتصاقاً بمشروعات التقسيم في العالم، إذ يندر وجود مشروع استعماري تقسيمي توسعي ليس للولايات المتحدة

الأمريكيــة إسهام فيه، ويعــد التقسيم المحور الرئيسي الذي قامــت عليه شتى المشروعات الاستعماريــة التــي عرفتها المنطقة العربيــة، إذ يحتل مكانة مهمّة فــي السياسة الصهيو-أمريكيــة، لذلك ألقى المؤلف في هذا الفصل نظــرة تاريخية على المشروعات الاستعمارية التــي استهدفت منطقة الشرق الأوسط بشكل عــام، والمنطقة العربية بشكل خاص، ومن ثم مراحــل التخطيط لتدمير سورية، ثم شرح أيضاً العوامل المؤثــرة في التوجه الأمريكي إلى التوسع وتقسيم البلدان، ومن هذه العوامل:

١- هيكل النظام العالمي.

٢- أولوية القوة العسكرية.

٣- نمط تخطيطها الإستراتيجي الأمني.

٤- الأمن القومي الأمريكي.

٥- سياستها نحو محاور الصراعات الدولية.

وقد لخّص المؤلف السياسة الأمريكية بشكل عام بأنها تسعى إلى السيطرة على العالم تحــت مسميات وعناوين مختلفة، منها ادعاء زعامة مــا أطلقت عليه اسم النظام الدولي الجديد، وسعيها لتطبيق شعار العولمة ومختلف المفاهيم الليبرالية، يعني تصميمها لفرض هيمنتهــا السياسيــة والاقتصادية والثقافية على العالم كله، وأهــداف الدول الغربية من تقسيــم المنطقة العربية تختلــف تبعاً لمصالح كل دولة، لكنهــا تشترك في هدف واحد هــو ضمان أمن الكيــان الصهيوني، وتعظيــم دوره وهيمنته على المنطقــة، إضافة إلى السيطــرة على منابع النفط وضمان تدفقه إليها من خــلال آليات تبدأ من نشر الفوضى وإقامة علاقات مزدوجة مع نظام الحكم الرسمي وغير الرسمي في كل دولة، وصولاً إلى استخــدام القوة الناعمــة وسياسة ازدواجية المعايير، واستخــدام معيارين للحدث نفسه وسياســة العصا والجزرة فــي التعامل مع الدول وسيناريوهــات تقسيم مختلفة، ولاسيّما مــا يخص المنطقة العربية عامة وسوريــة خاصة، لأن منطقة الشرق الأوسط حسب رأي المؤلــف الأكثر قابلية للتأثر بمتغيرات النظام العالمــي الجديد بحكم قدرتها وإمكاناتها المحــدودة، وضعف تماسكها ولاسيما اقتصاديــاً وسياسيّاً واتساع نطاق وعمق صراعاتها وأزمتها البنيويــة العميقة، التي تكشفت حدتها من خلال الأحداث الجارية في ساحاتها. وقد رصد أهم السيناريوهات:

الأول: خطة بينون عام (١٩٨٢م) (لبننة العالم الإسلامي)، والثاني: خرائط برناردلويس عام (١٩٩٢م)، **والثالث**: مشروع الشرق الأوسط الجديد وهو مشروع خاص بالكيان الصهيوني بامتياز يعتمد على انفراده بالهيمنة على المنطقة، أما **الرابع** فهو خرائط الشرق الأوسط الكبير عام (٢٠٠٤م)، تتلخص العناصر الأساسية لهذا المشروع بتجميد معاهدة الدفاع العربي المشترك، وإقامة أمن إقليمي جديد بدلاً منه، **والخامس**: خرائط رالف بيترس (حدود الدم) (الشرق الأوسط الكبير) عام (٢٠٠٦م)، نسبة إلى الخبير الإستراتيجي الأمريكي رالف بيترس إذ أعطى الشرق الأوسط الحدود التي يرى أنها عادلة في مقالة بعنوان (حدود الدم) تضمنت خريطة جديدة للمنطقة على أساس عرقي ومذهبي، وشرح المؤلف أهم خطوطها العريضة، **والسادس**: خريطة (أتلانتك) (٢٠٠٨م)، نُشِرَت ضمن سلسلة مقالات في مجلة (أتلانتك) لجيفري جولدبرج، امتدت هذه المرة لعمق إفريقيا بتقسيم الصومال، واعترف بقوة حزب الله ومركزيته في جنوب لبنان، **والسابع**: خرائط الربيع العربي، **والثامن**: خرائط الدولة المدنية، وهو النموذج الذي يتوقع أن ينتشر خلال العقود القادمة في الشرق الأوسط: (القدس، والحجاز، ودبي، وبغداد، ومصراته). كلها مرشحة للاستقلال بذاتها بوصفها دويلات ذات طابع خاص.

في نهاية هذا الفصل يؤكد المؤلف أن أغلب المشروعات الغربية لتقسيم المنطقة استندت إلى مشتركين اثنين:

١- التقسيم على أسس عرقية وطائفية ودينية لضمان عدم نهوض أي من دول المنطقة.

٢- الكيان الصهيوني هو المحرك الخلفي لمخطط التقسيم الجديد

الفصل الثاني

مرحلة التجهيز لاستهداف سورية

في التطورات المصيرية الراهنة تتربع سورية مرة أخرى في قلب المشهد، ويعود السبب في ذلك إلى مركزية التاريخ والجغرافية السوريين، إذ تختزل سورية في طياتها لب المشرق العربي وجوهره: تاريخه وجغرافيته، ويكشف موقع سورية الجيو -سياسي كل توازنات القوى في الشرق الأوسط والمنطقة، علاوة على أهميتها الحقيقية الكامنة في جدلية العلاقة بين الموقع والمحور.

في المبحث الأول من هذا الفصل يلقي المؤلف الضوء على الأهمية الإستراتيجية لسورية. أورد بعضاً منها:

١- سورية مركز لكل توازنات القوى الإقليمية في المنطقة.

٢- لسورية دورٌ مهمٌّ في محيطها الطبيعي عبر موقعها الجيو إستراتيجي بوصفها بوابة آسيا إلى أوروبا.

٣- تقف سورية بوجه ما يسمى (الربيع العربي) الذي ترجم بأنّه وكيلٌ للمصالح الأمريكية في المنطقة.

٤- سورية باتت خط الدفاع الأول عن الأمن السياسي الروسي والصيني والإيراني، ولم ترضخ لمشيئة الولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى موقعها الجغرافي والتاريخي الفريد.

هذه الأهمية الإستراتيجية ساقت لسورية مجموعة من التحديات الإقليمية والدولية بسبب تداخل ملفات عدة على المستووين المذكورين، وهذا ما تناوله المؤلف بشيء من التفصيل، ومن هذه التحديات تحدي السياسة الأمريكية نحو سورية، التي قامت على استغلال الأحداث التي مرت بها المنطقة العربية بالشكل الذي يحقق أهدافها بأقل التكاليف سعياً منها إلى التكيّف مع التحولات واستثمارها وقد اعتمدت الولايات الأمريكية خطة إضعاف سورية واستنزافها؛ التي خضعت لعدة مراحل تمهيدية قبل الدخول بمرحلة التنفيذ، عكست بشكل أو بآخر مدى أهمية وصعوبة استهداف سورية، لكن الصراع في جوهره لا يغدو أكثر من صراع إرادات بين مشروع الرئيس الأسد لإقامة الشرق الذي تصنعه الشعوب وترسم خياراته الحرة من جهة، والشرق الأوسط الخاضع لهيمنة الكيان الصهيوني، ويشرح أيضاً الأدوات التي استخدمتها الولايات المتحدة الأمريكية للنيل من سورية وإضعافها. منها:

١- الأدوات الداخلية: المجموعات الإرهابية وشبكات ما يسمى المجتمع المدني واستغلال أصحاب الاتجاهات الليبرالية والعلمانية، واستخدام بعض علماء الدين واستمالة الصحافيين والكتّاب المأجورين والحركات الإسلامية المتشددة والأحزاب الكردية.

٢- الأدوات الخارجية: التركية، والإسرائيلية، والفلسطينية، والأردنية، والمنظمات العربية ولاسيّما جامعة الدول العربية، ومجلس التعاون الخليجي وتطويع المنظمات الدولية.

الفصل الثالث

الأزمة السورية الأسباب والأطراف والأهداف

يتألف من ثلاثة مباحث، يناقش المؤلف فيها الأحداث التي شكلت البيئة المناسبة لتغيير بنية وشكل النظام الدولي، التي تلاقت في نقطة مشتركة وهي سورية وأزمتها التي شهدت استقطاباً إقليمياً ودولياً، والتي شكلت الأساس لولادة نظام دولي جديد على أنقاض النظام الدولي القديم، أهمها:

١- ضعف النظام أحادي القطبية الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- قصف قوات الناتو ليوغوسلافيا (١٩٩٩م).

٣- دخول العالم عصر العولمة وثورة الاتصالات والمعلوماتية.

٤- سقوط النيوليبرالية في بداية هذا القرن بسبب الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم عام (٢٠٠٨م).

٥- حدوث ثورة اقتصادية عظمى في الصين.

٦- وصول فلاديمير بوتين إلى سدة الحكم في روسيا عام (٢٠٠٠م).

٧- تشكيل منظمة شنغهاي للتعاون.

٨- سقوط العروبة الوهمية بمؤسساتها القائمة ممثلة بجامعة الدول العربية.

وحسب رأي المؤلف فإن هناك عوامل كثيرة تسببت بالأزمة السورية، فهي لم تنشأ مجزأة، وليست وليدة اللحظة، ولكنها نتاج تفاعل أسباب وعوامل نشأت قبل الأزمة. وفيما يأتي محاولة المؤلف لدراسة أسباب الأزمة السورية.

أولاً: الأسباب السياسية

ترتبط بمصالح سياسية وأمنية واقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية ومشروعاتها، لترتيب البيت الشرق أوسطي، وتقسيم سورية على أساس طائفي، وضرب مكاسب وإنجازات المقاومة، والتخريب الأيديولوجي للعقيدة الإسلامية.

ثانياً: الأسباب الاجتماعية

تعاني سورية كأي دولة أخرى من مشكلات اجتماعية كثيرة نتيجة زيادة الوعي الثقافي لأبناء المجتمع السوري وغير ذلك...

ثالثاً: الأسباب الاقتصادية

ناقش المؤلف هذا المحور من خلال تفسيره أسباب الأزمة اقتصادياً، بتقسيمها إلى شقين: داخلي وخارجي

رابعاً: الأسباب الجيوسياسية للأزمة السورية

بسبب الميزات العالية الجيوسياسية الجيبوليتيكية التي تتمتع بها الدولة السورية.

خامساً: الأسباب الخارجية

تعدّ الأسباب الخارجية أهم أسباب الأزمة على الإطلاق، فقد كان انتهاء مدة اتفاقية سايكس بيكو في عام (٢٠١٤م) مفترقاً مهمّاً بالنسبة إلى تاريخ المنطقة العربية التي لم تسلم من الاستهداف الغربي من أجل رسم خارطة جديدة لشرق المتوسط للمئة عام القادمة، وتصفية القضية الفلسطينية بضرب جميع العقبات التي تعرقل حلها حسب المشروع (الصهيوني - الغربي)، وأهمها: سورية، وحزب الله، وإيران.

وهكذا استغلّت الأزمة السورية بوصفها نقطة تنافس بين الدول الكبرى، لأسباب تتعلق بأهمية سورية ودورها السياسي لتطبيق المشروعات الغربية التي خُطِّطَ لها، إضافة إلى العامل الإقليمي ودوره في تأجيج الأزمة، فكان الإمداد القطري - السعودي بالمال والسلاح والرجال تحت عنوان الجهاد والأيديولوجية الإسلامية المتطرفة كالوهابية.

لكن المؤلف يرى أن أسباب الأزمة السورية تتميز بأنّها مجهولة في الغالب من الرأي العام، الذي يقتنع بسهولة بعمليات البرمجة السياسية والإعلامية، إذ عملت وسائل الإعلام التي تخدم السياسات العدوانية باستمرار على الافتراء على القيادة السورية التي تقود النظام السياسي السوري بمؤسساته المتعددة.

الفصل الرابع

الأطراف الإقليمية للأزمة السورية

قسَّم المؤلف الأطراف الإقليمية والدولية للأزمة السورية إلى:

١- الأطراف الداخلية للأزمة السورية:

أطراف تدميرية وتكفيرية تسعى إلى إسقاط الدولة السورية، وتتعدد تسميات هذه الأطراف في الداخل السوري، إلا أنه يجمعها هدف مشترك يتمثل في العمل على تقسيم سورية بما يتوافق

مـع المصالح الأمريكيـة ومصالح الكيان الصهيوني بشكل عام، ويدعـم هذه الأطراف إقليمياً تركيا ودول الخليج والأردن، ومن ورائهم جميعاً يقف الغرب بجناحيه الأوروبي والأمريكي.

٢- الأطراف الدولية للأزمة السورية:

الداعمون لسورية (روسيا والصين):

ينطلـق الموقف الروسي من ضرورة احتـرام المبادئ الإستراتيجيـة الحاكمة للعلاقات الدوليـة، والمتعلقة بتكريس مبدأ السيادة، وعدم قبول التدخل الخارجي في الشأن الداخلي لأي دولة من الدول، ولاسيّما تغيير النظم السياسية بالقوة العسكرية وبالتدخل الخارجي.

في حين اتّسم الموقف الصيني برفض التدخل الخارجي عامة، والتدخل العسكري خاصّة، ومن ثم رفض أي إجراء في مجلس الأمن من شأنه أن يفتح الطريق أمام احتمال هذا التدخل، وهو ما يفسر استخدامها الفيتو مرتين متتاليتين ضد مشروعي قرار بشأن سورية.

المعسكر الآخر:

يضم الدول الكبرى التي وقفت ضد الدولة السورية وعملت على إضعافها، وهي:

١- **الولايـات المتحـدة الأمريكية**: وتتلخص سياستها فـي سورية باستمرار الصراع لأطول مدّة ممكنة، مما يؤدي إلى ضرب النسيج الاجتماعي السوري، وإلى تدمير الاقتصاد والبنى التحتية ووسائل الإنتاج، وضمان أمن واستقرار الكيان الصهيوني في أي ترتيبات مستقبلية متعلقة بالمنطقة.

٢- **أوروبـا** : تمثلت ردود الفعل الأوروبية فـي إصدار بعض البيانات والتصريحات وبعض القـرارات التي تشدد العقوبات الاقتصادية على دمشـق، إذ لجأ الاتحاد الأوروبي إلى ثلاث عشـرة رزمة من العقوبات منذ بدء الأزمة السورية، كما أعلنت بعض الدول الأوروبية دعمَها وتواصلها مع مكونات المجموعات الإرهابية.

٣- الأطراف الإقليمية للأزمة السورية:

- **الأطـراف المؤيـدة**: هناك طرف وحيد في الإقليم مؤيـد لسورية وهي إيران، إذ تمثل سورية قاعدة إستراتيجية بالغة الأهمية بالنسبة إليها، وتوفر لها نافذة على المتوسط، وطريقاً آمنـاً إلـى لبنان وشريكاً يُعتَمد عليـه، يجعل من إيران طرفاً في الصـراع العربي مع الكيان الصهيوني. ويتلخص الموقف الإيراني من الأزمة السورية بأن سورية ستخرج من أزمتها أكثر منعة وقوة، وإيران تدعم الدولة السورية لمواجهة المؤامرة الغربية الجديدة.

- **الأطراف المناهضة إقليمياً:**

أ- تركيا: ارتكبت تركيا أخطاءً بحق سورية باستسلامها للخط القطري السعودي، إذ سمحت باستخدام أراضيها ممراً للإرهابيين؛ الذين يحملون الفكر المتشدد القاعدي مع سلاحهم، إضافة إلى لجوء تنظيم داعش إلى تركيا ومعالجة جرحاه ومَدِّهم بالسلاح.

ب- دول الخليج: يتلخص الموقف الخليجي بأنه جسد الشكل المالي والإعلامي للأطراف المتآمرة على سورية، وبأنه أداة تتلخّص مهمتها بتسليح الجماعات المسلحة الإرهابية وتدريبهم، وتقديم الاتصالات والمواصلات لهم.

تجليات الأزمة السورية

يقصد المؤلف بالتجليات الأشكال التي ظهرت بها الأزمة والأبعاد التي ذهبت إليها، والتي لم تخرج عن إطار الجوانب المستهدفة فيما يتعلق بأمن واستقرار سورية، ويذكر المؤلف بعض الأشكال التي اندرجت الأزمة أو الحرب على سورية ضمن إطارها.

١- الشكل التقني.

٢- الشكل الإعلامي: شرح المؤلف أشهر الأساليب التي اعتمدت عليها وسائل الإعلام المعادية في تضليلها الإعلامي، ومحاولتها تشويه صورة الحكومة السورية.

٣- الشكل المسلح: عرفت هذه المرحلة باستشهاد الآلاف من السوريين، ونزوح الملايين من السوريين المدنيين جراء إرهاب المجموعات المسلحة، فيما تضررت البنية التحتية والاقتصادية للبلد.

٤- الشكل الديني: أدّى دعاة الفتنة في المشهد السوري دورهم في تطبيق غايات دول العدوان وإرسال الإرهابيين، وتأليبهم للرأي العام،بعد ضخ العصبية الدينية والمذهبية في خطبهم عبر تسييس منابر المساجد، علماً بأن سورية لم تشهد قبل الأزمة أي مشكلات ذات صبغة دينية خطيرة.

الفصل الخامس

الملفات الإقليمية والدولية المتداخلة في سورية

يتألف هذا الفصل من ستة مباحث موزعة على عدد الملفات التي يناقشها المؤلف بحيث يفرد مبحثاً لكل ملف، وأهم هذه الملفات:

أولاً- ملف الطاقة (النفط والغاز):

بقـــراءة أولية قدمها المؤلف لخارطة الغاز في المنطقة تبين أنها تتموضع من حيث الكم والقدرة علـــى الوصول إلى مناطق الاستهلاك في الشرق الأوسط في المناطق الآتية: سورية ولبنان وقطر ومصر، وعلى هذا سارعت موسكو إلى العمل على خطين إستراتيجيين:

الأول التأسيس لقرن روسي – صيني (شنغهاي)، يقوم على أساس النمو الاقتصادي لكتلة شنغهـــاي من ناحيـــة، والاستفادة من منابع الغـــاز من ناحية أخرى. وبنـــاء عليه فقد أسست لمشروعيـــن، أولهما مشروع السيـــل الجنوبي، وثانيهما مشروع السيـــل الشمالي في مواجهة مشروع أمريكي لاقتناص غازَيّ البحر الأسود وأذربيجان، وهو مشروع نابوكو.

وبعد اكتشاف المخزونات الكبيرة من النفط والغاز في الأراضي السورية ومياهها الإقليمية فـــي المتوسط التي قدرت بأكثر من ٧٠٠ تريليون متـــر مكعب من الغاز، أصبحت سورية خزان غاز المتوسط، وعقدة طرقه إلى أوروبا، ولما كان الرئيس الأسد غير راضخ للولايات المتحدة الأمريكيـــة وأزلامهـــا وتركيا ومناطق أخرى، وبعدما رفض الرئيـــس الأسد مرور أنبوب الغاز الذي يحمل غاز الكيان الصهيوني في سورية، وينافس حليفته روسيا في سوق أوروبا، واستعاض عنـــه بأنبوب الغـــاز الإيراني الذي سيعبر إيـــران والعراق وسورية، بـــدأت الحرب في سورية لإسقاطها، لأنها بموقعها الجيو إستراتيجي باتت قطب الرحى وعقدة مواصلات أنابيب الغاز العالمية، إضافة إلى أنها عقدة طرق برية وجوية وبحرية ونقطة التقاء القارات الثلاث.

إن الدور المركزي لسورية في خط الغاز العربي يفسر لماذا أصبحت سورية مستهدفة.

ثانياً- الملف النووي الإيراني ودور إيران الإقليمي:

تنـــاول المؤلف هذا الموضوع بشيء من التفصيل والتحليـــل، لأن الملف النووي الإيراني استقطـــب المشهد العربي والإقليمي والدولي بحيث أصبح الأزمة الكبرى التي تنضوي تحت لوائها مشكلات المنطقة جميعها، فحدد أهداف الولايات المتحدة الأمريكية نحو إيران، وكلها تتمحور حـــول إسقاط النظام الإيراني وصولاً إلى تفكيكهـــا، وبيّن المؤلف صعوبة استهداف البرنامج النووي الإيراني لأسباب تتعلق بعدم توافر معلومات كافية، وعدم وجود غطاء سياسي عالمي، والموقع الجغرافي الصعب.

كمـــا قدَّم المؤلف سرداً لمراحل سير البرنامج النووي الإيراني من عام (١٩٥٨م) إلى عام (٢٠١٥م).

ثالثاً- ملف أمن الخليج ومنابع الطاقة والمنعكسات العالمية:

تعد منطقة الخليج العربي إحدى أهم المناطق الإستراتيجية في العالم، ومع تزايد الاعتماد على النفط، وزيادة الاحتياطي البترولي في منطقة الخليج انتقل أمن الخليج إلى المرتبة الأولى في سلم الأولويات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا. وقد شرح المؤلف أسباب عدِّ منطقة الخليج قضية حيوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، لذلك قامت مراكز الدراسات الأمريكية في وضع عدد من الصيغ لأمن الخليج تبدأ من الوجود الأمريكي الدائم والمباشر في المنطقة إلى نظام أمني كثير الطبقات، إلى توسيع رقعة حلف شمال الأطلسي، ثم قدم المؤلف رؤيته للترتيبات الأمنية في منطقة الخليج العربي من عدة مستويات.

رابعاً- ملف الصراع التركي- السوري والأحلام العثمانية المتجددة:

تؤدي تركيا دور العدو الشرس الذي يستهدف تدمير وحدة واستقرار الدولة السورية، والاستفادة القصوى من الأحداث في سورية لتحقيق مكاسبها الخاصة، ولاسيما في ظل تداخل الملفات الإقليمية والدولية في سورية.

خامساً- ملف الصراع بين سورية وحزب الله من جهة، والكيان الصهيوني من جهة أخرى:

شرح المؤلف محاولات الكيان الصهيوني لإضعاف المجتمع والدولة والجيش معاً في سورية، لأن سورية دولة محورية في الشرق الأوسط، وترتبط بعلاقات وثيقة مع إيران وحزب الله وبعض التنظيمات الفلسطينية، لذلك بدأت مساعدة المجموعات الإرهابية من خلال معالجة جرحاهم وتقديم السلاح لهم، وهذه المساعدات شملت أيضاً مقاتلي داعش والنصرة بهدف إضعاف حزب الله، وإبعاده عن التركيز على جبهة المواجهة معها على الحدود اللبنانية.

سادساً- ملف الجماعات التكفيرية المتطرفة:

قارب المؤلف هذا الملف من خلال ظهور ما يعرف بالسلفية الجهادية، وهو مصطلح أطلق منذ نهاية الثمانينيات على بعض جماعات الإسلام السياسي التي تتبنى الجهاد منهجاً للتغيير، وقدّم المؤلف شرحاً مقتضباً جداً لأهم الكتب التي يعتمد عليها التيار السلفي في أفكاره، وأوضح أن سورية قد عرفت منذ بداية الأزمة ولغاية اليوم مختلف أشكال التكفير

والإرهـــاب ممثلاً بكثيــر من الاتجاهات الفكرية والسياسية المنغلقــة والمؤدلجة بما يضمن استخدام الآخرين لها أداةً.

في نهاية الملف أفرد المؤلف شرحاً لدور سورية في نشر الإسلام المعتدل، وكيف أنها قدمت نمطاً مختلفاً للخطاب الإسلامي، تميز بالاعتدال والتسامح فسورية رائدةٌ في الشأن الإسلامـــي، بهوية إسلامية معتدلة واضحة، تتناغم مع إخـــاء إسلامي- مسيحي مشترك، وأنتجــت كما ذكرنــا خطاباً إسلامياً معتدلاً ومميزاً استطـــاع التعامل مع خطاب متعصب ومتشدد، وهذا يؤهلها أكثر من غيرها لطرح ما يمكن أن ينفع الآخرين في ظروف عالمية معقدة.

الفصل السادس

رؤية ومبادرات الدول الكبرى لحل الأزمة السورية

يعرضـ المؤلف في هـــذا الفصل مجمل الرؤى والمبادرات الدوليـــة الكبرى لحل الأزمة السوريـــة، ويفرد مساحة للرؤية السورية انطلاقاً من ثوابتهـــا المبدئية، وفي مقدمتها سيادة الدولة واستقلالية قرارها.

أولاً- رؤية الدول الكبرى

أ- رؤية الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها:

تقوم رؤية الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها على فرض الحل كما تريد هي وحلفاؤها، وفرضـــ تكتيـــكات دبلوماسية وعملية تتسبّـــب بإخفاق الجهود الدولية لحـــل الأزمة السوريّة ولاسيّما الروسيّة، وبيَّن أيضاً المحددات لعزوف الإدارة الأمريكية عن حل الأزمة السوريّة.

ب- الرؤية الأوروبية:

بـــدأت التغييرات على مواقف الدول الأوروبية من الأزمة في سورية تحديداً منذ أيلول عام (٢٠١٥م). وذكـــر المؤلف أن مواقف تلك الدول لم تكن على وتيرة واحدة، وهناك تباينات فيما بينها، وأورد مثالاً على ذلك الرؤية البريطانية والفرنسية من خلال شرحه للرؤية الأوروبية، وأورد الأهـــداف السياسية للاتحاد الأوروبي في سورية التـــي أكدت حتمية الحل السياسي واستحالة الحل العسكري. كما شرح المؤلف الأسباب التي تفسر هذا التغيير، وكان أهمها التدخل الروسي، وتحليله المبادرات الأمريكية والأوروبية ولكنّها تبقى نصوصاً غير قابلة للتنفيذ.

ج- رؤية سورية وحلفائها للحل في سورية:

ألقى السيد الرئيس بشار الأسد كلمة في دار الأوبرا بدمشق بتاريخ (٢٠١٣/١/٦م)، طرح فيهـــا مبادرة الحكومة السورية للحـــل السياسي للأزمة في سورية القائمة على ثلاث مراحل، وقد أوردها المؤلف وفق الآتي:

- المرحلة الأولى:

١- تلتـــزم فيها الدول المعنية الإقليمية والدولية بوقـــف تمويل وتسليح وإيواء الإرهابيين بالتوازي مع وقف الإرهابيين للعمليات الإرهابية.

٢- إيجاد آلية لتأكيد التزام الجميع بالبند السابق ولاسيّما ضبط الحدود.

٣- تبدأ الحكومة القائمة مباشرة بإجراء اتصالات مكثفة مع كل أطياف المجتمع السوري بأحزابـــه وهيئاتـــه لإدارة حوارات مفتوحة لعقـــد مؤتمر حوار وطني تشـــارك فيه كل القوى الراغبة في الحل في سورية من داخل البلاد وخارجها.

المرحلة الثانية:

١-تدعـــو الحكومة القائمـــة إلى عقد مؤتمر الحوار الوطني الشامـــل للوصول إلى ميثاق وطنـــي يتمسك بسيـــادة سورية ووحدة وسلامـــة أراضيها، ورفض التدخل فـــي شؤونها ونبذ الإرهاب والعنف بكل أشكاله.

٢- يعرض الميثاق الوطني على الاستفتاء الشعبي

٣- يطرح الدستور على الاستفتاء الشعبي.

٤- تشكيـــل حكومة موسعة تتمثل فيهـــا مكونات المجتمع الســـوري، وتكلّف بتنفيذ بنود الميثاق الوطني.

المرحلة الثالثة:

١- تشكيل حكومة جديدة وفق الدستور الموجود في ذلك الوقت.

٢- عقد مؤتمر عام للمصالحة الوطنية وإصدار عفو عام.

٣- العمـــل علـــى تأهيـــل البنـــى التحتية، وإعـــادة الإعمـــار، وتعويضُ علـــى المواطنين المتضررين.

وتمثل بنود الوثيقة التي تقدم بها الوفد المفاوض للحكومة العربية السورية في جنيف إلى مبعوث الدولة لسورية (ستيفان دي مستورا) أهم جوانب الرؤية السورية للحل السياسي.

ثانياً- المبادرات الدولية لحل الأزمة السورية:

١- المبـادرات على المستـوى الداخلي: يوضّح المؤلف أن هـذه المبادرات أخذت شكل العروض أحياناً ولاسيّما عندما كانت تنفيذاً لأجندات خارجية.

٢- المبادرات على المستوى الإقليمي:

قامت بعض الدول الإقليمية على اختلاف مواقفها من الأزمة السورية بتقديم عروض معينة أُطلقت عليها مجازاً اسم مبادرات، إلا أن قلة قليلة منها كانت ترقى إلى مستوى المبادرة.

٣- المبادرات على المستوى الدولي:

عرضت القيـادة الروسية حل الأزمة بالطرائق السلميـة (٢٠١٢م)، ووقف العنف من أي مصـدر كان، وإنشاء آلية رقابة جديدة، ورفض التدخل الخارجي، وإتاحة تقديم المساعدات لجميع السوريين من دون إعاقة. كما دعمت روسيا مؤتمر جنيف الأول والثاني.

ثـم ذكر المؤلف بعض المؤتمرات الدولية التي عُقِدَت تحت عنوان البحث عن حل الأزمة السورية.

الفصل السابع

إستراتيجية القيادة السورية في مواجهة الأزمة السوريّة ونتائجها

يعدّ هذا الفصل من أهم فصول الكتاب، لأن حكمة الإدارة السورية في مواجهة المؤامرة كانـت محط توقف المحلليـن والباحثين في جميع أنحاء العالـم، فكُتِبَت كثيرٌ من المقالات والدراسات لتحليل المرحلة الجديدة في العلاقات الدولية، والمتمثلة بسقوط أسطورة القطب الواحـد ودخول العالم في مرحلة القطبيـن، أو حتى مرحلة تعدد الأقطاب بدِراسة المواقف السياسية والخطب الرسمية لسيادة الرئيس بشار الأسد.

أولاً- مقومات الإستراتيجية:

يعرض المؤلف بعض البنود المتعددة التي تشكّل بنظره مقومات الإستراتيجية التي اتبعها لمواجهة الأزمة السورية منها:

١- تأكيد الهوية الوطنية والقومية.

٢- تمسك الخطاب الرسمي السوري بمقولة سورية دولة علمانية، بجيش وطني عروبي متماسك.

٣- تنبيه العروبيين والقوميين والإسلاميين المعتدلين كحزب الله وإيران والعراق إلى خطورة المشروع الصهيوني.

٤- التأكيد أن الحركات الانتهازية أخطر على الأمة من الكيان الصهيوني نفسه

٥- ترسيخ الثقة الفكرية بأن وَهْم الخلافة لا مستقبل له في سورية ولا في العراق أو غيرها.

٦- إدراك الرئيس الأسد أن الإرهاب سينقلب على داعميه ويهدد أوروبا والعالم.

إلا أن المؤلف لا يغفل عن شرح مقومات الصمود السوري بوصف سورية تمتلك عناصر قوة متكاملة ومن الصعب تفكيكها أمام هذه الأزمة، لأن هذه القوة ليست وليدة اللحظة، بل هي امتداد لتاريخ عريق في الإستراتيجية والدبلوماسية. ومن أهم هذه المقومات:

١- الدعم الروسي والإيراني. ٢- موقعها الإستراتيجي. ٣- صمود الجيش العربي السوري طوال السنوات الماضية وغيرها.

ثانياً- نتائج الأزمة السورية:

ناقش المؤلف هذا الموضوع بالتفصيل على كل الصعد الداخلية والإقليمية والدولية. فعلى الصعيد الداخلي: تعددت الجوانب التي طالتها الأزمة بتأثيراتها السلبية سواء على الصعيد الاقتصادي، أم على صعيد الصحة والبيئة، أم على الصعيد الاجتماعي والبطالة والتعليم وغيرها.

أمّا على الصعيدين الإقليمي والدولي فقد أورد المؤلف ثلاث نتائج مهمة؛ الأولى لم تعد الأمم المتحدة قادرة على حل الأزمات العالمية بشكل جيد بسبب انتهاء سيطرة القطب الأمريكي وبدء مزاحمة القوى الأخرى للولايات الأمريكية، والثانية تشكيل محورين:

الأول أمريكي مؤلف من فرنسا وتركيا والكيان الصهيوني والسعودية وقطر.

الثاني يستند إلى قوتين عظيمتين روسيا والصين، ويمتد في الجغرافية السياسية نحو إيران والعراق وسورية.

الثالث بدء مرحلة انتقالية تتشكل فيها ملامح نظام عالمي جديد.

الخاتمة

ختـم المؤلف كتابـه بشرح عوامل نجاحات السياسة الخارجيـة السورية وأهداف الحرب عليها، فـرأى أن عوامل نجاحات السياسة الخارجية السورية تعـود إلى الرؤية الإستراتيجية الدقيقة التي تميزت بها القيادة السورية والحس الوطني والقومي، الذي تميز به الشعب العربي السوري، والثبات في المواقف الإستراتيجية التي تخص الكرامة العربية والأرض العربية مهما كان حجم الضغوط، واستشراف المواقف السياسية من نبض الشارع.

النتائج

خلص المؤلف إلى نتائج مهمة تتعلق بأهم أهداف الحرب على سورية خصوصاً، والمنطقة العربية عموماً:

- ضمان أمن الكيان الصهيوني.
- الوقوف في وجه خط أنابيب الغاز بين إيران والعراق وسورية.
- رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في أن تفقد روسيا نفوذها في البحر المتوسط.
- القضاء نهائياً على المد القومي والوطني السوري.
- القضاء على الأسس الروحية والدينية المشرقة التي تجسدها سورية.
- إن حقيقة التآمر على سورية هو استهداف لها، ولموقعها الإستراتيجي، ولعقيدة جيشها المعادي للكيان الصهيوني.
- إصرار سورية على مواقفها السياسية جعلها مستهدفة.
- هدف التآمر على سورية تصفية القضية الفلسطينية.

من خلال ما عرضناه من هذا الكتاب المهم نلاحظ كم التساؤلات التي تطرح على الذهن في موضوع الأزمة السورية والحرب عليها.

وقد استطاع المؤلف تقديم إجابات وافية حالت دون التعتيم على الحقائق.

احتـوى الكتاب على معلومات بحثية مهمـة حديثة تغطي الحرب على سورية، مما يجعله مرجعاً للباحثين وإضافة علمية لتوثيق الحرب على سورية.

وقـــد عرض المؤلـــف المعلومات عرضاً جذّاباً بهدف وصـــول الحقيقة إلى أوسع فئة من الجمهور والباحثين، لأن معرفة أسباب الحرب على سورية وخطوطها العريضة تعين المتلقي علـــى قراءة ما وراء الأحداث، وتساعد على تعريفنـــا بالطريق الصحيح الذي ينبغي علينا أن نسلكه.

كما رأينا أن المؤلف يُقَدّم وصفاً شاملاً للحرب على سورية والقوى المحركة لها بدءاً من الولايات الأمريكية إلى باقي دول الإقليم، واستطاع أن يعرض وجهة نظر الدولة السورية للحل في سورية بحيادية تامة.

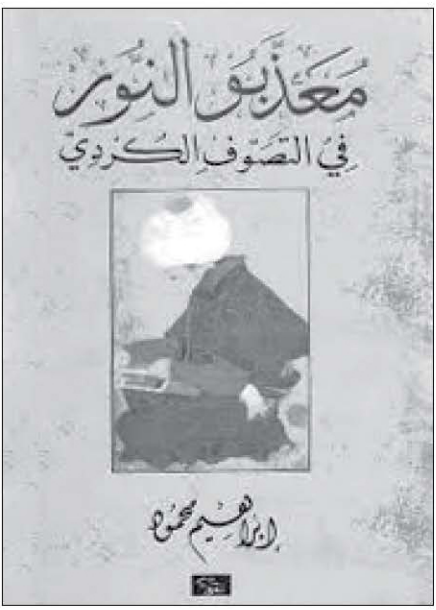
يعـــدّ كتاب الدكتور شاهر إسماعيـــل الشاهر «تجليات الحرب على سورية» من أهم الكتب الصـــادرة التي توثّق الحرب عليها، لأنـــه يسجل أحداثها في تسلسلها وتعاقبها، ولكنه لا يقف عنـــد تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول إبراز الترابط بينها، وتقديم صورة كاملة عن حجم تآمـــر الولايات المتحـــدة ومن يقف إلى جانبهـــا للنيل من صمود سوريـــة خصوصاً، ومحور المقاومة عموماً.

❁ ❁ ❁

معذّبــو النور

محمد أحمد الطاهر

هـــذه الدراسة في (التصوف الكردي)، كتبها الأستـــاذ إبراهيم محمـــود، وصدرت في طبعتها الأولى عام (٢٠١٥م) عن دار تموز في دمشق.



وأنت تقـــرأ العنوان، وتستعيـــد فرانز فانون صاحـــب «معذبو الأرض» تذكـــر أن العنوان هنا «معذبو النور» وهم أرضيون، ولكنهم شغوفون بنور إلهي معظم. إنهم انتحاريـــون، ولهذا ستستغرق كلمة (انتحاري –انتحاريون) الكتاب كاملاً، لأنها المحور الحامل له، ولأن المنتحر هنا معذّب بنور منشود فيتطهر بنار جسده.

مُزّقـــت أوصال، **منصـــور الحـــلاج**، وهو على قيد الحياة. إنه أعظم شهيد في تاريخ التصوف، ولكن هل يمكنك أن تسمـــي الشخص الذي قام بذلك؟

أما **السهروردي** فقد حَكَمت عليه السلطات بالإعدام، ولكن مَنّ هو جلاده؟

وقـد أُلقيت كتـب «الغزالي» في النار ولكن مَـنْ فعل هذا؟ لا أحد يتذكـر أسماء هؤلاء الأشخاص، لأن المتصوفين يتجنبون تكرار أسماء الأشخاص ذوي السمعة السيئة، أما أسماء «الغزالـي» و«الحلاج» و«السهـروردي» فيعرفها الجميع، وبمعنى آخر نحـن نتذكر ونتشرف بأسماء معلمينا الكبار وهل نذكر ما قدموا لنا من تعاليم؟

ذلك ما قاله (إدريس شاه، عن طريقة الصوفي (ص٣٥٢) في مقام الإهداء.

وفي مفتتح الكتاب إشارات أكثر منها عبارات، يقول المؤلف:

يُسمـي التصوف ما ليس يُسمى، ليكون لـه اسمُه ومسماه، وما لا يُسميه يقصيه، وإلا لما كان لـه مـن ولادة وشهود عيان، وما يُسميه يُبقيه ويرتقي بـه، وحسب المسمي من جهته أنه أفقي وحسب المسمـى به أنه عمودي صُعُدي. حسب المسبب لظهوره ما يخفيه عن الأنظار وهو صاحب سلطة واقتدار، وحسبه هول (التصوف) أنه لا يعبأ بالحاضر إلا لأنه ألم مخاضه، وسرده عن المفارق وما فيه من فائض غيب، جرّاء عيب المعاش، وأن توقه للمجهول الإلهي، ردٌّ على حرمانه من ممارسة حقوقه الجسدية.

ومن إشاراته:

تعرفـت إلى الصوفية، منذ كنت صغيراً في قريتنـا الصغيرة، ضمن عالمي الصغير، من خـلال رجل من أهل هذه القريـة. كان اسمه «صوفي حمو»، ويبـدو أن (صوفي) أقرب إلى اللقب وإن كان اسمه مركباً، ولا أخفي أنني أحببت في هذا الرجل دعابته، وكان صاحب دكان (سمانه) وتميز بطيبته وبشاشة وجهه، وكنت كلما أبصر رجلاً وهو ملتح، أقارنه به. ومع الزمن يتسع العالم، وتتنوع العلاقات، وتتفاوت الإشارات قيمةً ورد فعل، فمن جهة: لم يكن الربط بين الملتحي ووصفه (صوفياً): فكل من يربي لحية كما يقال هو صوفي، ومن جهة ثانية: تعرفت إلى لطفـاء ورعين متواضعين بسطاء من هؤلاء الصوفية، ومـا أقلهم! وإلى خبثاء مراوغين مرائيـن مزيفين من هؤلاء وما أكثرهـم! ربما لأن وسطاً ما بمفهومـه الاجتماعي والثقافي والتعليمي والسلوكي، هو المسؤول عما تقدم.

فصـل الكتـاب الأول عنوانه «التصوف، وجـوه النص الواحد». افتتحه بـ: باب شرائط الصوفيـة، مبتدئة باقتباس من محمد بـن أحمد النيسابوري، يقول فيـه المؤلف: «فينبغي للعامـل في زماننا هـذا أن يعرف شيئاً من أصول الصوفية، وطريقة أهل الصدق منهم، حتى يميز بيـن المتشبهين بهم، والمتلبسين لباسهم، والمتسمين بسماتهم، فإن الصوفية أمان الله في أرضه، وأخدان أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، وهم ممدوحون بلسان النبوة».

وكلمـــة الصوفي في العربية كما يراها **هنري كوربـان** في كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية) مشتقـــة، بحسب الاشتقـــاق المتعارف عليه عموماً، مـــن الصوف، واستعمالهـــا قديم... وهـي لا تحتوي، من حيث اشتقاقها، أي معنى خاص بالعقيدة التي تميز الصوفية، عن بقية الفرق في الإسلام. ومصطلح صوفي يشير إلى مجموعة النساك والروحانين الذين اشتغلوا (بالتصوف).

أمّا عند **ماسـينيون**، فـإن أصل التصوف مصدرُ الفعل الخماســي المصوغ من (صوف) للدلالة على لبس الصوف.

وفصل الكتاب الثاني عنوانه «مفتتح التصوف الكردي»، وفيه يقول المؤلف: «إنّ المقصد منه ليس (إعلان) استقلال كلي له عما عداه من التصوف، فيكون التصوف العربي، والفارسي والتركي، وغيره طبعاً، وإن كان من الجائز التحري في مدى حضور كل من هؤلاء في (حاضرة) التصوف، فإنما هو الفاعل المعرفي: الجغرافي، والبيئي، والثقافي، والنفسي، وكيفية الوجود وســط الآخرين، في ظل سلطة لاتخفي (هويتها) السياسية، ومن يكون ولي أمرها، أو المعني بها، والتصوف مسكون بها».

حسبـي أن أشيـــر إلى ما هو تاريخي بجلاء، إلى الكردي وهـــو يتقدم بعقيدة تعنيه، أو ما هـــو مستولد من داخل عقيدة، وهو يحرص على نمائه والدفع به إلى التكون بمواصفات تلهم الآخرين بالذات، أو يتحدث بلسان غيره كما لو أن الـ(غير) هو.

ويقـــول: «إن ما حاولت تبينه هو إذا مـــا كان في وسع الكردي بوصفه كائناً تاريخياً، مهما اختلـــف حولـــه مفهومـــاً وتوصيفاً، أن يظهر في هيئـــات، طالما أن ليس مـــن هيئة تسمح له بالعيانيـــة، باسمه ونسبه، جراء حظرٍ سلطويّ ما، أو تعزيز قوي ترى في بروزه بهذه الطريقة سفـــور تاريخ، وتهديد أمـــن وجدان جماعي انشغل كثيراً به ليبقى هكذا، ليكون تستره تمهيداً يومضـــ بأن المتكلم هـــو شخص آخر، وليس الذي يحمل اسماً كمـــا يتداول، وأن المعنى هو مـــا كان يجب عليه الظهور بكامل سيمائه وليس من أراد له التحول والتنقل والتخفي والبقاء، ما أمكن المحمول والمأخوذ بالقناع، وأحسب أخيراً وليس آخراً، أن التصوف في أكثر مقاماته وأحوالـــه، يمثل الأسلوب الأمثل للدفع برهينة الرمـــز أو القناع أو الخطاب المجازي، في أن يبحث عن سبل للفت الأنظار، حتى لو بلغ به الحال درجة الانتحار بالنور».

ويضم الفصل الثاني بعد مفتتح التصوف الكردي البحوث الآتية:

- معروف الكرخي: الكردي المتصوف الزاهد، وأي زهد؟

• ثلاثة أقطاب من جهة واحدة، هل من تصوف كردي؟

• أبو يزيد البسطامي، سري السقطي، الحلاج.

• الجنيد: وإكسير التصوف الروحي.

• السهروردي المقتول: أهو حفيد زرادشتي الأصل؟

• عبد القادر الكيلاني: ترميم ما يمكن ترميمه.

• الطبعة الكردية من النقشبندية.

• بديع الزمان النورسي، وأي تصوف كردي يكون؟

• الشعر حاضناً للتصوف الكردي، ومن هذا الجزء من الفصل الثاني نقتطف للقارئ هذه النصوص من الشعر:

• توغَّلتُ في المقبرة عمقاً،
أبصرت حال الغني والفقير،
لا الفقير ووري الثرى دون كفن،
ولا الآخر تم دفنه دون كفن هو الآخر!

(بابا طاهر الهمداني، رباعياته، ص ٦٥)

ومن رباعيات بابا طاهر العريان:

• لو أن قلب الحبيب يقول من هو القلب
ولو أن الحبيب بقلب يقول ما هو القلب
فإني أرى القلب والحبيب متناغمين
لا أعرف ما هو الحبيب وما هو القلب!

• لو أن البعيد البعيد عني هو قلبي
فليس لدي أي عشق آخر منذ البداية
بروحك في العالمين
أنت الحبيب كما أتمنى وأرجو!

ومن شعر سعدي الشيرازي قوله:

ما أحب هذه التأوهات التي تحرق القلوب بنارها الضرام.

فإنني أستطيع بواسطتها... مهما اشتدت... أن أقضي الليالي والأيام...!

ولقد يتقضى الليل... وأنا أتلهف طواله إلى رؤية وجه حبيبي الصبوح

فإن صباحاته تضفي على صباحي كثيراً من النور والوضوح

ولو أنني رأيت ثانية وجهة الذي يزيد ما بي من حب وحنين...

لظللت أشكر يمنَ حظي وطالعي إلى يوم الدين!

ومن (بستان الورد) للشيرازي هذه الأبيات:

أبلبل الروح مافي الحب من طربِ
فكيف تهتف بالأسحار جذلانا

إنْ كنتَ صباً فأصل الروح محتذياً
حذو الفراشة دون الشكو نيرانا

تعلّم العشق من تلك التي فنيت
وما سمعنا لها حساً بدنيانا

مَنْ يطلع على قائمة مصادر المؤلف ومراجعه التي زادت على الثلاثمئة، وعلى مؤلفاته ومترجماته التي زادت على الخمسين يُقدّر الجهد الكبير الذي بذله في تأليف هذا الكتاب بصفحاته الـ/٤٧٩/ صفحة، من القطع الكبير.

يقول: ويمكن لمن يريد المتابعة في هذا الاتجاه قراءة المزيد، أي ما يُبقي التصوف الكردي في انتظار اسمه بعمق، أي إنّ انتحاريي النور، كما هو اللقب المقترح للتعريف، ما أمكن، ومن زاوية رؤية بحثية للتصوف الكردي، كانوا ومازالوا يمارسون الانتحار في المكان الغريب عنهم، ولعلهم غرباء فيه، أو لم يمتلكوا، كما يجب، ملكة التمييز بين ما يعينهم في المقدرة على تمثيل أنفسهم، وما يعني الآخرين: حولهم، معهم، داخلهم، جرّاء روح افتداء تصوفية، ترتد من حيث النتيجة بما هو سلبي، وهذا ما يستوقفني للنظر في مغزى «انتحاريي النور»، الانتحار بوصفه سلباً والنور كشفاً.

❁ ❁ ❁

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال

من سيرة الغمام والظّلّ

يطلّ علينا الشاعر «عباس حيروقة» بمجموعة شعر جديدة من إصدارات الهيئة العامة السوريّة للكتاب، هذا العام (٢٠١٩م).

تقع المجموعة في (١٤٨) صفحة، وتقسم إلى قسمين اثنين:

الأول: (أسئلة الفصول).

الثاني: (أجوبة الماء).



من قصائد المجموعة: (هاموا بنورك يا ريّاه أم تاهوا؟!، وجهات الوطن، وفراغ، وحتى الكروم حداداً أمحلت وذوت، ونشيد الماء، ومن سيرة الغمام والظّلّ، وكم... وكم، وانتظار... انتظار، والقاتل خلف الباب، ويعلو غمام).

ومن القصيدة الأخيرة نقتطف:

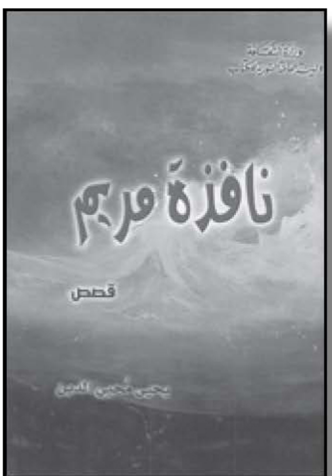
«على بوحِ نهرٍ شغوفٍ
بقدِّ الحقولِ قرانا
تنامُ

وتصحو على فيضِ آهٍ
لزهرةِ لوزٍ إذا
ما اصطفاها بهذا
البهاءِ غرامُ».

جاء في الغلاف الأخير للمجموعة:

«أن تأتي النصوص عمودية ومُفعّلة ونثرية في كتاب واحد، فهذا يدل على أن كاتبها متمكن مــن أدواته التعبيرية؛ ولاسيّما إذا مــا استثمر إمكاناته بصياغة مناسبة، وكلمات وجمل تحمل شحنــات مشاعره؛ وأقواله وأفكاره في هذا الشكل أو ذاك؛ كما أن لدى الكتاب رصيد مهم من المعرفــة التاريخيّة، والجغرافيّة؛ والنفسيّــة- ينعكس في نصوصه، كما تظهر مقدرته البيانية في كثير من النصوص، وفي شكل المخطوط ككل...».

نـافـذة مـريم



يقــول الأديب «يحيى محيي الديــن» في قصة «نافذة مريم» من مجموعته التي اعتمرت العنوان نفسه:

«مُنعت مريم من الخروج غير كل الفتيات في القرية، قالــت لها أمها: إنَّ جمالك الزائــد هو السبب، فوالدك يخاف عليــكِ، ظلّت مريم حبيسة جمالهــا تجلس أمام نافــذة الغرفة الوحيدة، تحلم بالحقــول وتطعم القطط الصغيرة. لكنَّ كلاماً وصل مسامع أبيها، فأغلق النافذة، صبرت مريم طويــلاً... وُجدتْ بعدها ميتة في غرفتها، حين جاؤوا بالنعشــ لحملها لم يخرج النعش من الباب، كبّــر الناس حين شاهدوه يتّجه نحــو النافذة ولن يخرج إلّا منها...».

اشتملــت المجموعــة على عــددٍ كبيرٍ مــن القصص القصيرة والقصيرة جداً نذكر منها:

(عزف علــى نبض القلب، وستعرف معنــى ذلك، ومسربلاً بتعبيــر ناقص، وفصل من روايــة، وحده العشق، وصوت المؤذن، وأحلام صغيرة، وثمة ما يلوح، ونشيد مؤجل، والقط،

والمحاضـــرة، والصمت، والشرفـــة، والثعلب، وملهاة، وسخرية، وجلنـــار، ومحاكمة، ومبدأ، ورحيل، وديما).

«نافذة مريـــم»: مجموعة قصصية صـــادرة حديثاً عن الهيئة العامـــة السورية للكتاب، تتفـــاوت أحجام قصصهـــا وتنحاز ثيمات القصصـــ للموضوعات العامـــة كالحب والزواج ومشـــاكلات العيش والمواجع المستجدة كالحرب ومفرزاتهـــا، وينطوي أسلوبها الفني على المفارقة والسخرية.

الشرق الغارق المتوسط



يقع كتاب «الشرق الغارق المتوسط- يومياتي» للكاتبة نهلة كامل في (٢٨٨) صفحة، ويتوزع إلى العناوين الآتية:

(عكســ اتجاه الفناء، والفرجـــة الضارية، وأيام، واللا منشـــور، ورسائل، ودمشـــق- بيروت، والبرابـــرة أصبحوا في الداخـــل، وسيغرق الغزاة بالمطـــر، ونيزك بعيد يعبر احتمالات سوداء).

تقول الكاتبة «نهلة كامل» في تقديم كتابها تحت عنوان «شعر لم يُكتَب للنشر»:

أنشر الآن شعراً لم يكتب للنشر، بعد أن كنت منسجمة مـــع قناعـــة أن الكتابة بحـــدّ ذاتها غاية تجوهـــر النفس وتتجوهر بالممارسة، وأن الـــلا منشور جنس أدبي أيضاً، له شخصيّته وقراؤه، وحريته.

لكـــن هذا الجنس يتمرد على كاتبه كلما خرج من خصوصيته الفردية إلى الحياة الإنسانية العامـــة، ويرفضـــ البقاء في ذاكرة الشاعر وهو يصبح جزءاً مـــن ذاكرة الحياة كما حصل في هذه التجربة».

من موجودات الكتاب (مقطوعة مهداة إلى أطفال بلادي... إلى محمود):

الأبيضُ قطنُنا

والأزرقُ بحرُنا

والأحمرُ جوريّ دير الزور

الفراتي
وأنتَ يا صغيري
تبدأ الرَّسمَ
هذه الألوان أرضنا

مذكرات على أساور الأكمام



جاءت كتابات بولغاكوف لتخدم قضية السمو بالشخصية الإنسانية، وتجاوز ما فيها من أنانية وأثرة وزيف ورياء. وبهذا التقت مع المهمة التاريخية لتربية الإنسان الجديد...

يذكّر ما لاقاه بولغاكوف من سلطات زمانه، والمتمسحين لها والمنتفعين «بدينار أو صحن حساء» بأزمة المثقفين في كل زمان ومكان، حين لا تتوافق الأهواء ولا تنسجم الأمزجة.

في موسكو، جاع بولغاكوف ونام في الشارع حين وصوله إليها من فلاديقوقاز. لكنه لم يهادن ولم يساوم، وبقي حتى الرمق الأخير مصرّاً على نقل ما يراه بعينيه، لا ما يراه الآخرون».

المقطعان السابقان من رواية «مذكرات على أساور الأكمام» لمؤلفها الروسي العالمي، الأديب «ميخائيل بولغاكوف».

ترجم الرواية «شريف ناصر»، وتقع في (٢٧٢) صفحة، قطع وسط، وتوزع على خاتمة وجزأين رئيسين:

- الجزء الأول: يحتوي على (إلى كاتب سيرتي الذاتية مستقبلاً، والنثر الذاتي المبكر، وفي ليلة الثالث من الشهر، ومغامرة عجيبة لدكتور، والتاج الأحمر، وحكاية صينية، وأسبوع ثقافي).
- الجزء الثاني: يتألف من قسمين:
- القسم الأول (القوقاز).
- القسم الثاني (موسكو، وذكريات، وبحيرة الكحول).

العين والماء والفخّار



أقانيم ثلاثة...، ثالوث مميز في حياتنا الواقعية.

وهي المواد التي يتمحور حولها الكتاب الذي نشرته الهيئة العامة السورية للكتاب حديثاً تحت عنوان: «العين والماء والفخّار- في التراث الساحلي الريفي».

الكتاب من تأليف الباحثة «فريال سليمة الشويكي».

ويعود تصميم غلافه للفنان «مضر سليمة». وهو حسب مؤلفه يتكون من ثلاثة كتب في كتاب؛ الكتاب الأوّل «العين»، والكتاب الثاني «الماء»، والكتاب الثالث «الفخّار».

وينقسم الكتاب إلى (٢٤) فصلاً، كل فصل منها يتفرّع إلى عناوين. من تلك العناوين:

(العين مغرفة الكلام، والمقولات والأمثال التي ذكرت عن العين، وتعريف الماء وأوصافه وما ذكر فيه، وأسوأ فقر فقر الماء، وآية الأمس عمرها آلاف السنين، والأدوات المصنوعة من الفخّار).

يقع كتاب «العين والماء والفخّار» في (٣٢٠) صفحة، ونقرأ على غلافه:

«في هذا الكتاب مقيدات تراثية توثّق نبعة الماء ووسائل نقله وحفظه في ريفنا الساحلي، وما رافق أعمال الاستقاء من النبعة من أشعار شعبية وأهازيج وحكايا وأخبار العشّاق وغنج الصبايا اللواتي يملأن جرارهن، ويطربن آذانهن مما يسمعن من بديع القول.

هذا الكتاب وثيقة مهمة تصون تراثنا الشعبي وتحفظه وتجعله حيّاً ماثلاً في وجدان الأجيال وعلى وجه الدهر».

التوزيع الأوركسترالي

من الكتب المتخصّصة بالفن الموسيقيّ. بدأه الباحث بمقدّمة نظرية في علم الصوت، تتناول الطبقات والشدّة الصوتية وطابع الصوت وصندوق الرنين المصوّت، ثم انتقل إلى التعريف بعددٍ من الآلات الموسيقيّة، مقدماً إلى جانب ذلك أهمّ المفاهيم في عالم الأوركسترا السيمفونية.



وقد أرفق الكاتب ببحثه مجموعةً من الصور والأمثلة التي تشكّل معيناً جيّداً في استيضاح مفاهيم الفقرات.

وفي ختام بحثه أضاف ملحقين اثنين، يحتوي الأول منهما على بعض المدونات الأوركسترالية بهدف تحليلها والاطلاع عليها. في حين يحتوي الملحق الثاني صورَ بعض الآلات الموسيقية القديمة، وقائمة بأهم المصطلحات العلمية التي يحتاج إليها المهتم بالفن الموسيقي، مثل: الغناء الأمبروزي، ضربة، ولا مقامي، ونوتة مساعدة، وباص كلارينيت.

الكتاب صدر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٩م، ضمن سلسلة مسارات فنيّة، لمؤلفه رامي درويش، ويقع في ٣٣٦ صفحة، من القطع الكبير.

❁ ❁ ❁

صدى المعرفة

إعداد: ريما محمود

أخبار عن دان براون

«لا يتعلق الأمر بما تخبر به القارئ، بل بما تخفيه»



يستقي الروائـــي الأمريكي دان بـــراون إلهامه مـــن شخصيات حقيقية، ويقول: «الإلهام من حولنا دائماً لكـن علينا الاختيار فحسب»، ويوضِّح قائلاً: «الروايات لا تكتب في العدم، بل عن الناس ومنهم». ويؤكد أن عائلته وتحديـــداً والده وأمه كانا مصدر إلهامه، فوالده كان معلِّمَ رياضيات وأمه متخصصة بالموسيقا الدينية، وهما السر وراء انشغاله بقضية الدين والعلم. وأضاف: «عامةً في كل أعمالي، أخلق شخصيـــات متضادة في الرؤى والفكر لتخلق حالة الجدل وتثير التساؤلات الكبرى».

ولـــد دان بـــراون بتاريـــخ (٢٢ حزيران، عـــام ١٩٦٤م) في ولاية نيوهامشيـــر، الولايات المتحـــدة الأمريكية، اتّخذ الموسيقا مهنةً له بعد تخرّجه في الجامعة، وبدأ كتابة الألحان.

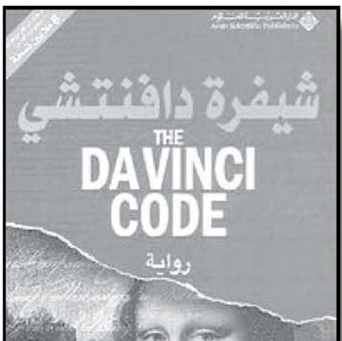
وأطلق بعدهـا (شريط كاسيت) خاص بالأطفال وسمّاه «Synth Animals» ولاقى نجاحاً جيداً إذ بيع منه مئات النسخ. مما جعله يُنشئ شركة تسجيل سمّاها «Dalliance».

أصدر عام (١٩٩٠م) ألبومه الأوّل «Perspective» الموجّه إلى الشباب والمراهقين، وبيع منه بضع مئات من النسخ. بعد ذلك انتقل إلى هوليوود لمتابعة حلمه المهني، لكنّ حياته الموسيقية لم تكن كما أراد ولاسيّما من الناحية المادية، لذا لجأ إلى تعليم اللغة الإسبانية.

انضم براون إلى الأكاديمية الوطنية لكتّاب الأغاني، وأصدر ألبوماً جديداً في عام (١٩٩٤م) بعنوان «ملائكة وشياطين»، واتخذه عنواناً لروايةٍ بعد ذلك، ثمّ عاد إلى نيوهامشير، وعمل مدرّساً للغة الإنكليزية والإسبانية. وكانت قراءته لرواية «The Doomsday Conspiracy» للكاتب سيدني شيلدون هي نقطة التحوّل في حياته، إذ ألهمته بساطة الكلام النثري الواقعي الموجود فيها مع المحافظة على الكفاءة العالية التي تعامل فيها الكاتب مع أحداث القصة، فقرر بعدها التحوّل إلى مهنة الكتابة.

ترك براون التعليم في عام (١٩٩٦م)، وبعد سنتين من هذا التاريخ أصدر روايته «الحصن الرقمي»، وهي أول رواية له مبنية على التشويق، وكانت بداية تحقيق حلمه في احتراف الكتابة.

عمل براون على كتابين فكاهيين الأول «189 Men to Avoid: A Guide for the Romantically Frustrated Woman» الذي نشره تحت اسم «دانيال براون»، وشارك الكتاب الثاني «The Bald Book» مع زوجته بليث براون.



تتالت نجاحات براون بعد نشر روايتيه «ملائكة وشياطين» في عام (٢٠٠٠م)، و«حقيقة الخديعة» عام (٢٠٠١م). إذ لاقت الروايتان نجاحاً متوسطاً وبيع أقل من عشرة آلاف نسخة من كلٍّ منهما. وكانت روايته الرابعة «شيفرة دافنشي» التي نشرها عام (٢٠٠٣م) قد حققت نجاحاً كبيراً، وحصلت على مكانٍ في قائمة «نيويورك تايمز» لأفضل الكتب مبيعاً خلال الأسبوع الأول من نشرها، بِيعَ منها نحو (٨١) مليون نسخة حول العالم. وتقدر عائدات بيع هذه الرواية بـ(٢٥٠) مليون دولار أمريكي، ترجمت هذه الرواية إلى أكثر من أربعين

لغة. وكانت السبب في دفع مبيعات رواياته الأولى لأفضل الكتب مبيعاً. ومن ثم رواية «الرمز المفقود» عام (٢٠٠٩م)، ورواية «الجحيم» عام (٢٠١٣م)، ورواية «الأصل» عام (٢٠١٧م) التي وصلت المراكز الأولى من قوائم الكتب في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة.

إن العامل المشترك بين روايات دان براون أنها تبدأ بجريمة قتل أو انتحار، ويمتاز أسلوبه الأدبـي بالجمع بين الخيال والإثـارة الممزوجة بطابع علمي وفلسفي حديث، وبأسلوب شائق لـه تقنية الصورة السينمائية ما مكّنه من تحقيق أفضل المبيعات. ولا تمر أشهر على صدور إحدى رواياته إلا وتُحوَّل إلى فيلم سينمائي تحتفي به هوليوود ويثار حوله الجدل العالمي.

صمـم براون بيته على غـرارٍ رواياته الممتلئة بالأحاجي والأسـرار، فهو يتكون من كثير مـن الممرات والأبواب السرية. كما أن المكتـب الذي يكتب فيه يقع خلف لوحة، وتماماً كما يحـدث في الأفلام، يقوم بضغط زر سري ليفتـح باب مكتبه. كما يحتوي المنزل على مكتبة ضخمـة بممرات سرية وبها نسخة من كل لغة ترجمت إليهـا رواياته، ويطلق دان براون على هذه المكتبة اسم (حصن الامتنان).

أظهر براون مخاوف كثيرة من التكنولوجيا، وأكد أنها من أكثر الأشياء تأثيراً على البشرية: «اليـوم نحتاج إلى أن ننظر إلى الجيل السابق لنا فحسب، لنرى كيف أن حياتنا مختلفة تماماً عنهم، والحقيقة أن أبناءنا سينظرون إلينا بوصفنا جيلاً متأخراً تكنولوجياً».

ينصح براون الكُتّاب الجدد: «اكتب صفحة في اليوم أو اكتب ما أنت شغوف به» وأضاف: «لابـد أن تكون جاداً جداً فيما تكتب وملتزماً بـ«عملية الكتابة»، وأن تخصص وقتاً محدداً... وأقتـرح الكتابـة في الصباح .. على الرغم من أن كثيراً من كبـار المؤلفين والأدباء يفضّلون الكتابة ليلاً».

وعـن نفسه يقـول: «منذ أن بدأت أكتب لـم أكن متفرغاً تماماً للكتابـة، فكنت أكتب من الرابعـة إلى السابعة صباحاً، ثم أذهب إلى عملـي الأوّل، ثم أنتقل إلى عملي الثاني، ثم أنام لأعاود الكرة مرة أخرى».

«أعتقـد أنّ واحداً من الأسباب التي جعلت كتبي تلقى نجاحاً كبيراً أنها مكتوبة من وجهة نظر مشككة».

«لا أعـرف أيـن أضع نفسي في المشهد الأدبي، أنا أكتـب الكتب التي أرغب في قراءتها فحسب».

«لا يتعلق الأمر بما تخبر به القارئ، بل بما تخفيه».

شجرة الدم





يعــود ظهورهــا على سطــح الأرض إلــى أكثر من خمسيــن مليون عام، ويرجح ظهورها في حوض البحر الأبيض المتوســط. تنتشر اليوم في جزيرة «سُقطرى» اليمنية التي أصبحت محميــة طبيعية بسبب احتوائها على كثيرٍ من الكائنات النادرة، حيوانية كانت أم نباتية. يناسب هذه الشجرة الأرض الصخرية والأماكن العالية، وهي تستطيع أن تتحمل الجفاف بشكل كبير، وهذا يعود إلــى قدرتها على الاحتفاظ بالماء لسنين طويلة وتشبه الفطر العملاق، إذ تتكون من جذع واحد وقمة الشجرة علــى شكل مظلة، كمــا تنمو عادة إلــى أن يبلغ طولها اثنتيــن وثلاثين قدماً. فبذلــك تستطيع الحفاظ على جذور الشجرة في الظل، وتمنع جفاف التربة، وتحمي شتــلات الشجرة من الأشعة فــوق البنفسجية الضارة؛ لذلك تعيشــ كثيرٌ من أنواع النباتات والحيوانات تحت ظل شجرة دم الأخوين.

ما يميزها -إضافةً إلى شكلها- هو قيمتها الطبية، إذ يستخرج من لحائها نوع من الراتنج قرمزي اللون، يستخدم في بعض العلاجات إضافة إلى استخدامه في الصباغة.

المــادة الفعالة فيها تسمى «دراكو» وتصل نسبتها فــي النبات إلى ٥٥ ٪، وقد استخدمت قديمــاً في علاج الجروح والحروق والتقرحات الجلدية وتقوية الجهاز الهضمي، وذكرها أهم أطباء العرب القدامى وعلى رأسهم ابن سينا.

وهــي تستخدم اليوم علاجياً إذ تُستخرج منها أدوية لعلاج تشققات المعدة ووقف النزيف الداخلــي في أي مــكان داخل الجسد وكذلك تدخل في معاجين مــادّةً قابضة ومطهرة للّثة، وتدخــل في صناعة الورنيش، وفــي صباغة الرخام، وفي صناعــة المراهم، وحبر الطباعة وغيره. وفي سُقطرى تزيّن بها جدران المنازل من الخارج والأواني الفخارية...

أمــا الاسم «دم الاخوين» فهو يعود إلى الأسطــورة التي تتناقلها الأجيال في اليمن، والتي تحكــي قصة أول قطرة دم وأول نزيف بين الأخوين «قابيل وهابيل». وبحسب الأسطورة فقد كان قابيــل وهابيل أول من سكن جزيرة سُقطرى... ولمَّـــا وقعت أول جريمة قتل في التاريخ وســـال الدم نبتــت شجرة دم الأخوين. وإضافـــة إلى ندرةِ هذه الشجـــرة الجميلة، كانت نبتة مقدسة في الديانات القديمة عند الحميريين والفراعنة والآشوريين. وهذا ما ظهر من خلال النقوش القديمة.

يشير العلماء إلى سوء حالة هذه الأشجار المميزة والنادرة، ويؤكدون أنها مهددة بالانقراض بسبــب تغذية الماشية عليها في أثناء رعيها، ويقال إنّها فقدت ٢٠٪ من المساحة الكلية لها، ويتوقع خسارة أكبر خلال العشر سنوات القادمة بنسبة تصل إلى ٤٥ ٪.

الخنـفساء وآلية استثـمار الفريـسة

فــي عالمنا الــذي تغزوه الحشرات، هذه الأيـــام تبرز الخنفساء، هذه الحشـــرة ذات العوالم المجهولة عند معظمنا. ويبدو أن عالم الخنافس متنوع وفيه أنواع كثيرة، فمنها ما هو ضار ومنها مــا هو نافع. وهي حشـــرات قوية قادرة على العيش في ظروف قد تمـــوت فيها حشرات أخرى، أجسامها متراصة متينة محمية بغلاف صلب.

للخنافـــس حاسة شم قوية جـــداً تساعدها على تمييز الحشـــرات الأخرى على مسافات بعيدة فـــي بعض الأحيان وعلى إيجاد الطعام لها ولصغارهـــا، ولكثير من الخنافس زبانيات متعددة المفاصل المفلطحة القائمة جنباً إلى جنب كصفحات الكتاب، وهذه هي أعضاء الشم عندهـــا، ولها عينان كبيرتان، وتكون لها فـــي بعض الأحيان عين ثالثة في أعلى رأسها، ولكن حاســـة النظر ليست شديدة الأهمية بالنسبة إليهـــا، إنها حسَّاسة بالنسبة إلى التغييرات التي تطرأ على الضوء لكنها لا تستطيع أن ترى الأشياء بوضوح إلا إذا كانت قريبة جداً منها.

بعضــ يرقات الخنافس تأكل الخشــب، وهنالك أيضاً خنفســـاء الدعسوقة وهي نافعة لأنها تـــأكل الحشرات الضارة، وكثيراً مـــا يأتي بها منتجو الثمار إلى مـــزارع الفاكهة لإبادة الحشرات التـــي تتلف الأشجار، ومنها ما هو ضار بالأشجـــار. ومنها الخنافس الحمراء، والسوداء أو الجعل وتسمـــى الخنافس الدافئة أو الحفارة تقوم بعملية تنظيــف، تعتمد على حاسة الشم في صيدها لفرائسهـــا التي تلتقطها فـــي الظلام، الخنفسة السوداء يبلغ طولها نحـــو البوصة، تراها تتبختر



ببطء ذهاباً وإياباً، معتمــدة على أيديها البرتقالية البراقة التي تزيِّن غطاء جناحيها، تجوب الخنفسة الغابات في الليل بحثاً عن دلائل الموت، ويسترعي انتباهها جثة فأر أو سمكة جافة أو طائر صغير، أما الحيوانات الميتة ذات الحجم الكبير فتتركها، اسمها العلمي «نيكروفورس Nicrophorus»...

تستنشق الخنفسة الروائح التي يحملها هواء الليل، فحاسة الشم عندها قوية تتركز في ملامسها الخارجية مدببة الرؤوس، فتكتشف الفأر الميت حتى لو مضى عليه بضع ساعات لا أكثر، وتشق طريقها لولبياً لتصل إلى المنطقة المجاورة لمكان الجثمان الصغير، ثم تطوي جناحيها وتمشــي مندفعة ومغيِّرة سيرها بين أعشاب الدغل حتــى تصل إلى وليمتها المفضّلة، وعندما تصل إليهــا تتفحصها من كل الجهات، وتقف على ساقيها الخلفيتين، في حين تضرب برؤوس ملامسهــا المدببة فروة فريستهــا .. وعند الانتهاء من هذه الطقوســ الأولية، تدور الخنفسة، وتزحف تحت الجثة، وتخرج من الجهة المقابلة، وتعيد الكرَّة مغيَّرة المراكز التي مرت بها في المــرة السابقة، وتُظهِر حركاتها مدى قوة الرفع في أطرافها الخلفية السوداء، فإنها تقوم برفع الجثمان لتتمكن من المرور من تحته.

الخطوة التالية الغامضة التي تقوم بها الخنفسة نيكروفورس تحيِّر المراقبين! وذلك لأنها تتــرك الغنيمة بغتــة وتتفحص الأرض حولها، وقد تبتعد مسافة بضعــة أمتار ثم تعود إليها، فتــدور حولها وتعيد تفتيشها، ثم تبدأ بالحفر في عدة مواقع وتقوم بدفع التراب الذي تفتته بجسمها، والذي تستخدمه محراثاً ثم تتجه إلى جثة الفريسة الصغيرة، وتبتعد ثانية لتواصل حفرهــا . وبعد هذه المرحلة تبدأ الخنفساء بالهجــوم الأقوى، وتنقل فريستها إلى مكان آخر وقد تنضمُّ إليها خنفساء ثانية، والطريف أن الخنفساء الضيفة إذا كانت من جنس الخنفساء الأولــى تنشب معركة قصيــرة تهرب فيها الخاسرة، أما إذا كانت من جنس مختلف فتجدهما تتعاونــان وتقومان بدفن الفريسة في التراب ولفّهــا على شكل كرة، ويحفظانها مصدرَ غذاءٍ ليرقاتهما التي ستفقس بعد بضعة أيام من البيض الذي وضعته الأنثى في تلك الحفرة.

❁ ❁ ❁

مارسيل بروست - توماس وولف

قصتان

موت فيكونت سلفانيا – أسمر في الغابة، غريب كالزمن

ترجمة : نخلة ورد

ترجمة : سميرة عزام

اختيار وتقديم : ناظم مهنا

رئيس مجلس الإدارة

محمد الأحمد

وزير الثقافة

المدير المسؤول

ثائر زين الدين

رئيس التحرير

ناظم مهنا

الإشراف الطباعي

أنس الحسن

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

أماني الذبيان

التنضيد

ابتسام عيسى

قصتان

١- موت فيكونت سلفانيا

قصة للكاتب الفرنسي الشهير مارسيل بروست، صاحب الرواية الأشهر في القرن العشرين: «البحث عن الزمن المفقود»، وهي من سبعة أجزاء، نشرت أجزاؤها بين عامي (١٩١٣ و١٩٢٧م).

ولد بروست عام (١٨٧١م)، وتوفي بمرض الربو عام (١٩٢٢م).

عُرف بأسلوبه الصعب الذي يكثّف الزمن والحدث الروائي.

روايته «البحث عن الزمن المفقود» نالت شهرة منقطعة النظير، وترجمت إلى لغات العالم، ونشرت بعض أجزائها بعد وفاته.

وصفه الكاتب الإنكليزي غراهام غرين بأنه الروائي الأعظم في القرن العشرين.

له مقالات نقدية، ومجموعة قصص بعنوان «المتع والأيام».

والقصة التي اخترناها هنا من ترجمة الكاتب السوري المغترب ابن أنطاكية السليبة نخلة ورد من مجموعة «قصص من الغرب»، منشورات الرواد، دمشق (١٩٥١م).

يظهر في هذه القصة أسلوب بروست وميله إلى الخيال والسرد الشاعري.

٢- أسمر في الغابة، غريب كالزمن

قصة للكاتب الأمريكي توماس وولف، ولد عام (١٩٠٠م) وتوفي في عام (١٩٣٨م) بمرض السل.

تتجلى في أعماله نظرته الفلسفية إلى الزمن المتصل والمنفصل عن الإنسان. يعتمد وولف في أعماله الأدبية على رصد النظائر والتقابلات المتقاربة والمتعاكسة في الحياة.

من أعماله: «انظر صوب البيت أيها الملاك، ونهر الزمن، ونسيج العنكبوت والصخرة...».

وهذه القصة من ترجمة الأديبة الراحلة سميرة عزام من كتاب مختارات من الفن القصصي لتوماس وولف. الصادرة في طبعتها الثانية عن دار المدى عام (٢٠٠٤م).

موت فيكونت سلفانيا

الفصل الأول

«كان أبوللون يحرس قطعان أدميتوس،
هكذا يقول الشعراء. والإنسان إله مقنع،
هو أيضاً، يقلد المجنون».

- لا تبكِ هكذا يا سيد ألكسي. إنَّ حضرة فيكونت سلفانيا قد يهبك حصاناً.
- حصاناً كبيراً؟
- قد يكون كبيراً كحصان السيد جاردينيو. ولكن لا تبكِ إذن هكذا... في يوم ميلادك الثالث عشر!

والتمعت عينا ألكسي، من خلال الدموع، لهذه الأمنية السعيدة أصبح رجلاً في الثالثة عشرة من عمره، وسيكون له حصان!

ولكن العزاء لم يجد سبيلاً إلى قلبه، فقد كان عليه أن يذهب هذا اليوم لزيارة عمه بلداسار سيلفند، فيكونت سلفانيا. صحيح أن ألكسي كان قد شاهد عمه مرات كثيرة، مذ علم بأن علته لا يمكن شفاؤها. ولكن كل شيء تغيّر بعدها. فقد عرف بلداسار حقيقة مرضه وبات يعلم أن حياته على الأرض لن تطول سوى ثلاث سنين على الأكثر.

وكان ألكسي يحار في سره، كيف أن هذا التأكيد لم يورث عمه الجنون أو يقتله غماً وحزناً، وكان يخيل إليه بأنه لن يتحمل ألم رؤيته، ويعتقد بأنّه لا بد لعمه أن يحدِّثه عن نهايته القريبة، فلا يجد في نفسه القوة على حبس عبراته، بله التسرية عنه وإدخال العزاء إلى قلبه.

كان يحب عمه حباً يقارب العبادة ويجد فيه أجمل شباب العائلة، أشدهم فتوة وحياة وظرفاً. كان يحب عينيه الرماديتين وشاربيه الأشقرين وركبتيه، ملجأه الأنيس الأمين يوم كان طفلاً. وقد كانتا تبدوان له منيعتين كقلعة حصينة، محترمتين كمعبد، ومسلِّيتين كأحصنة من خشب.

وكان ألكسي ينكر في سره تجهم أبيه وملامحه القاسية، ويحلم بمستقبل يكون فيه، على حصانه دائماً، رشيقاً كسيدة، ورائعاً كملك، ويجد في بلداسار أسمى وأكمل مثال حي للرجل.

كان يعرف أن عمه جميل، وأنه يشبهه، وكان يعلم أنه ذكي كريم، وأن سلطته تعادل سلطة أسقف أو قائد. والحق أن انتقادات أهله كانت قد صورت له الفيكونت رجلاً ذي مساوئ ومباذل، حتى ليذكر ما شاهده من ثورة غضبه يوم هزأ به ابن عمه جان جالياس، ولهجة الاحتقار التي كان يحدِّث بها لو كريسيا عندما صارحته بأنها لا تحب موسيقاه.

ولكن مساوئ عمه كلها زالت الآن على التأكيد. فعندما علم الفيكونت بأنه قد يفارق الحياة خلال سنتين، لشد ما أضحى عنده هزء ابن عمه وقيمة موسيقاه، وكل ما عدا ذلك، أشياء تافهة لا يؤبه لها. وكان ألكسي يصوّره لنفسه جميلاً رائعاً، من روعة ذات طبيعة خاصة ليس لها صلة بروائع هذا العالم. وكان يمتزج بأساه وحزنه على عمه شيء من الخوف والقلق.

وأعدَّت العربة فصعد إليها ألكسي. ولكنه لم يلبث أن نزل منها، وقصد إلى مربيه يستشيره في أمر. وعندما بدأ يتكلم تضرَّجت وجنتاه بلون الدم.

– سيد ليجران. هل يستحسن أن يشعر عمي بأني أعرف أنه سيموت.

– كلا يجب ألا يشعر.

– وإذا حدثني بذلك.

– لن يحدثك.

– لن يحدثني! قالها ألكسي مستغرباً إذ كانت الاحتمال الوحيد الذي لم يساور خاطره. فعندما كان يتخيل زيارته لعمه كان يفترض دائماً أنه سيحدثه عن الموت بلطف وهدوء الراهب الناسك.

– ولكن على افتراض أنه حدثني.

– تقول له: إنك واهم.

– وإذا بكيت؟

– بكيت كثيراً هذا اليوم، فلن تبكي أمامه.

وصرخ ألكسي يائساً: «لن أبكي! ولكن قد يعتقد عمي العزيز بأنّي لا أحبه». وراح يجهش بالبكاء. وكانت أمه قد ملّت انتظاره فجاءت تفتقده، وسارت بهما العربة.

***

عندما أعطى ألكسي معطفه الصغير للخادم المنتصب في البهو توقف قليلاً مع أمه ليستمع إلى نغم قيثارة ينبعث من غرفة مجاورة. ودخلا غرفة مستديرة جدرانها من البلور، وتطل من جهة على البحر ومن الجهة المقابلة على غابة وسهول ومراع خضر. وكان في صدر الغرفة هرتان وأزهار وورود وآلات موسيقية. وظلّا ينتظران لحظة. واندفع ألكسي إلى أمه. ظنته في البدء يريد معانقتها، إلّا أنه قال لها بصوت خافت وفمه ملصق إلى أذنها: كم يبلغ عمي من العمر؟

– سيبلغ السادسة والثلاثين في حزيران القادم.

وودَّ ألكسي لو يسألها: «أترينه سيبلغ السادسة والثلاثين؟» ولكنه لم يجسر.

وفُتِحَ باب، فاعترت ألكسي رعشة، ودخل خادم يقول: «سيحضر سيدي الفيكونت توّاً». ثم عاد وأدخل طاووسَيْن ومعزاة لم يكن يفارقهما الكونت. وسمع وقع أقدام، وفتح الباب من جديد. وكان قلب ألكسي يثب كلما سمع ضجة. وقال في سره هذه المرة: «لا بد أن يكون خادماً آخر»، ولكنه سمع في الوقت نفسه صوتاً لطيفاً يقول له: «صباح الخير يا صغيري ألكسي، أتمنى لك عيداً سعيداً». وتقدم إليه يعانقه، فشعر ألكسي بشيء من الخوف لم يغب عن الكونت الذي أراد أن يعطيه فرصة يهدِّئ بها من روعه فشغل بالحديث مع امرأة أخيه، وكانت أعز مخلوق عنده بعد وفاة أمه.

ومرت دقائق لم يعد يشعر ألكسي بعدها إلّا بحنانٍ هائل نحو هذا الشاب الجميل، وقد علت وجهه مسحة شحوب خفيف، وراح يمثل دور الفرح والبهجة في هذه الدقائق الفاجعة.

إنّه ليودّ أن يرتمي على عنقه فلا تواتيه الجرأة، خشية أن تنهار أمامه مقاومة عمه المسكين فلا يستطيع السيطرة على أعصابه. وكانت نظرات الفيكونت الحلوة الحزينة تبعث فيه رغبة ملحّة في البكاء. كان يعلم أن نظرات عمه كانت حزينة دائماً. حتى في اللحظات الفرحة السعيدة، كانت تبدو كأنها تلتمس العزاء لآلام خفية لا تظهر على سيمائه علائم الشعور بها.

وشعر في هذه اللحظة أن آلام عمه التي استطاع أن يبعدها عن حديثه بشجاعة وعزم، قد استقرت في عينيه الغائرتين وفي خديه الهزيلين.

قال له عمه: «أعرف أنك تحب أن يكون لك عربة بحصانين يا صغيري ألكسي. سأقدّم لك الحصان غداً، وأكمل الزوج في السنة القادمة. فتكون لديك عربة خلال سنتين، ولكنك قد تستطيع امتطاء الحصان هذه السنة. سنجرب هذا عند رجوعي، إذ إنّي راحل غداً. ولكني لن أتغيب طويلاً. سأعود قبل مضي شهر ونذهب معاً إلى حضور المسرحيات التي وعدتك بها».

وكان ألكســي يعلم أن عمه سيقضي بضعة أسابيع عند أحد أصدقائه. وكان يعرف أيضاً أنهم ما يزالون يســمحون لعمه بالذهاب إلى المسرح. ولكن مدى تغلغل فكرة الموت في رأسه، قد ضعضــعته في أعمق أعماق ذاته قبل أن يقصــد لزيارة عمه، أثارت في نفسه دهشة عميقة محزنة. وهتف لنفسه: «لن أذهب، فلشد ما سوف يؤلمني تهريج الممثلين وضحك النظارة».

وسألت أم ألكسي عن اللحن الذي سمعاه عند وصولهما.

– آه! ترينــه جميلاً؟ هو اللحن الذي حدثتك عنه. قالها بلداســار وعلى وجهه مظاهر الفرح. وتساءل ألكسي في سره: أتراه يمثل الكوميديا؟ كيف يستطيع نجاح موسيقاه أن يدخل السرور إلى قلبه بعد؟

واتخــذ وجه الفيكونت في هــذه اللحظة عبارة ألم عميق فشــحبت وجنتاه، وقطّب شــفتيه وحاجبيه، وامتلأت عيناه بالدموع.

وصرخ ألكسي في سره: يا إلهي! إن هذا الدور ليتجاوز درجة احتماله. وآهاً لعمي المسكين! ولكن. لمَ يخشى إلى هذا الحد أن يسبب لنا الأكدار؟ لمَ يرهق نفسه بمثل هذه الشدة؟

***

عندما عاد ألكسي مع أمه تأثر قلبه الصغير لفكرة بدأت تراوده أنه هو أيضاً سيموت يوماً. وإذا كان مجالــه أفســح مدىً من مجال عمه فإن بســتاني حديقة الفيكونــت وابنة عمه الدوقة دالربوفر لن يعمِّرا بعده طويلاً. ولكن البســتاني ما يزال مســتمراً، مع ذلك، في ســعيه اليومي لكســب أكبر قدر ممكن مــن المال، ولكي تظفر وروده بأعظم الأثمــان. والدوقة، على الرغم من ســنيها السبعين، ما زالت تهتم لأمر زينتها وأصــبغتها، وتدفع أموالاً للصحف لتشيد بفتوتها ومشيتها الرشيقة، وأبّهة حفلاتها، وسعة معارفها...

وعجب ألكســي لمهازل هذه النماذج الإنســانية الحية، ولم يستثنِ منها مثال حياته نفسها، واتخذ في قرارة نفســه قراراً خطيراً: أنه لن يجاري هؤلاء الضــالين السخفاء. وكهؤلاء الأنبياء الذين تعلّم تمجيدهم وعقد قلبه على حبهم، سيعتزل العالم وينزوي في الصحراء مع بعض رفاقه الصــغار. وكاشــف أهله بهذا القرار، ولكن الحياة، وهي أقوى لحســن الحظ من مهازل هؤلاء الأطفال، لم تكن قد اســتنفذت معهم حليبها المنعش المحيي، فمدت إليه ثديها لتحوله عن عزمه فأخذ يعب بنهم وفرح، ويسمع ببراءة خياله الخصب، إلى نغم شكاتها، ويصلح على أبدع شكل ما تقوضه معاولها المخربة.

«الجسد حزين، يا للأسف...»
ستيفان مالرمي

في اليوم التالي لزيارة ألكسي سافر فيكونت سلفانيا لقضاء أسابيع في قصر صديق له، إذ يستطيع المدعوون الكثر، أن يسرّوا عن نفسه الحزن الذي يعقب نوبات مرضه. ولم تلبث مسراته كلها أن تجمعت بمصاحبة امرأة صبية كانت تضاعف أفراحه بمقاسمته إياها. وقد خيِّل إليه أنها تحبه، ولكنه استبقى حيالها بعض التحفظ.

كان يعرف أنّها وفيّة طاهرة. وكانت تنتظر بفارغ صبر قدوم زوجها. ثم لم يكن واثقاً من حبه الأكيد لها. وكان يشعر بصورة مبهمة بالجريمة التي يرتكبها إنْ جرَّها إلى الإثم.

في أي لحظة اتخذت علاقتهما شكلاً غير طبيعي؟

لم يعد يذكر شيئاً من هذا، أما الآن، وكأن ذلك نتيجة لاتفاق ضمني لم يعد يذكر عهده، فهو يقبِّل معصمها ويلف يده حول عنقها. وكانت تبدو سعيدة إلى درجة أنه تجاوز هذا الحد في إحدى الأمسيات. بدأ يعانقها، ثم داعبها طويلاً، وقبَّلها من جديد في عينيها وخديها وشفتيها وعنقها، وفي أطراف أنفها.

وكان فم الصبية يختلج لهذه المداعبات، وتتألق نظراتها في أعمق أعماقها، كما تلتمع قطرات الندى في وهج الشمس.

وغدت مداعبات بلداسار، مع الزمن، على أكثر من الجرأة. وتأمّلها ملياً مرة، فوقف مشدوهاً لشحوبها ولهذا اليأس اللانهائي يعبر عنه جبينها الميت، وعيناها التعبتان الحزينتان تبكيان في نظرات أشد حزناً من الدموع، كالعذاب الذي نقاسيه خلال عملية صلب أو فَقْدِ عزيز معبود. وتأملها لحظة وبجهد عظيم، رفعت نحوه عينيها تستجديان الرحمة. وفي الوقت نفسه توجه إليه فمها النهم بحركة تقلص لا شعورية يلتمس القبل. ولفتهما من جديد تلك اللذة المحمومة المفعمة بعبير قبلاتهما وذكرى مداعباتهما فاندفعا بعضهما إلى بعضٍ وأغمضا عينيهما، هذه العيون القاسية تكشف لهما عن شقاء نفسيهما. ولم يكونا ليريدان رؤية هذا الشقاء، وهو، على الأخص، أغمض عينيه بجملة قواه، كالجلاد ينتابه الندم فيحس برجفة في ذراعه عند ضرب الضحية.

وكان قـد جاء الليل وهـي هنا، في غرفته، وعيونها تائهة، مبهمة بلا دموع. وقبّلت يده بحزن أليم، وراحت دون أن تقول له كلمة.

أما هو فلم يستطع أن ينام. وإذ بدا له أن يخلد للسكون لحظة أخذ يرتجف لشعوره بأن عيني الضحية اللطيفة متجهتان إليه راجيتين يائستين. وتمثلها لخاطره لحظة، كما يجب أن تكون في هذه اللحظة وقد ثقلت عليها الوحدة، وجفا عينيها الكرى فارتدى ثيابه ومشى بلطف إلى غرفتها، ولم يكن ليجسـر على القيام بحركة خوفاً من إيقاظها إن كانت نائمة، ولم تسـعفه الجرأة ليعود إلى غرفته إذ تضغط عليه بأثقالها السماء والأرض وروحه جميعاً.

وظل هنا على عتبة غرفتها وهو يعتقد في كل لحظة أنه لن يسـتطيع أن يضـبط نفسـه مدّة أخرى، وأنه سيدخل، ثم تخيفه هذه الفكرة، من أنه سيقطع بذلك سلسلة نومها وأنفاسها الحلوة السـاجية، وأنه سيسلمها بقسـوة إلى اليأس والندم وقد هادنتهما بلحظة راحة، فظل هنا على العتبة، جالساً مرة، وجاثياً على ركبتيه أخرى، ونائماً حيناً. ورجع إلى غرفته في الصباح راجفاً مطمئناً. واستسلم للرقاد ثم استيقظ مرحاً سعيداً.

وأفتن بلداسـار وصديقته في تطمين ضـميريهما. وتعوّدا على الندم، وقد بدأت تخف وطأته شيئاً فشيئاً، وعلى الملذات التي تضحي، مع الزمن، أقل احتداماً وقوة.

الفصل الثالث

«فتوته تثير في سمعه ضجة، لا يسمعها»

مدام دي سيفينيه

عندما جاء ألكسـي لزيارة عمه، في عيد ميلاده الرابع عشـر، لم يشـعر كما كان يتوقع، بالاختلاجات والمشـاعر العميقة التي أحسَّ بها في السنة الماضية. فإن نزهاته الطويلة على ظهر الحصان الذي قدّمه له عمه، بإنمائها قوى بدنه، قد هدَّأت من هياج أعصابه، وأوقدت فيه جذوة هذا الشـعور الدائم بالصـحة الطيبة، وأضافت إلى فتوته، شعوراً مبهماً بعمق موارده وقوة أفراحه. إنه ليشـعر تحت لفح النسـمات التي يوقظها سيره الخبب على ظهر حصانه، وكأن صدره ينتفخ كالشراع وجسده يلتهب كنار الشتاء، ويحس بجبينه رطباً طرياً كالأوراق

والأغصـــان الهاربة التي تلتطم به عند مروره. وهو إذ يشـــعر بجســـده يقسو، ويشتد عوده صـــلابة في الماء البارد، أو يسترخي ويســـتريح طويلاً في ساعات القيلولة الهيّنة، ليجد في كل هذا ما يهيج فيه قوى الحياة، هذه القوى نفســـها التي كانت لعمه فيما مضـــى، باعث كبر وزهو، ثم انحسرت عنه لتبهج نفوساً أخرى على أكثر من الفتوة، ثم لن تلبث أن تغادرها، هي الأخرى بعد ذاك...

لم يكن قد بقي في ألكســـي شـــيء بوســـعه أن يهن وينهار لمصـــير عمه المحزن ونهايته القريبة، إنَّ الوشوشـــة الفرحة لهذا الدم الذي يتخبط في عروقه، وهذه الرغبات تشـــتعل في رأسه، كانت تصد عن أذنه شكاة المريض ولهاثها الخافت. فقد دخل ألكسي في هذه المرحلة من العمر التي يشـــتغل فيها الجســـم بقوة ليشيِّد قصـــوراً له يقيمها بينه وبين النفس فتبدو وكأنها اختفت إلى اليوم الذي يحفر فيه المرض أو الحزن ثغرات تبدو خلالها. فقد اعتاد على مرض عمه المميت، كما نعتاد ونألف كل ما يستمر أمده من حولنا.

عندما قال له عمه في ذلك اليوم: «ســـأعطيك العربة والحصان معاً هذه المرة، يا صغيري ألكسي». أدرك أن عمه لا بد أن يكون قد فكّر في نفسه: «إذ من دون هذا، قد لا تحصل على العربة أبداً».

كان يعلـــم أنها فكرة جد حزينة، ولكنه لم يشـــعر بما تثيره مـــن حزن، إذ لم يكن لديه في الوقت الحاضـــر مكان للحزن العميـــق. وعجب بعد أيام، في إحدى قراءاته، لوصـــف مجرم تستطيع أن تثير في قلبه الحنان أرق عواطف محتضر عزيز أحبه حتى العبادة. وخيل إليه أنه قد وجد صـــورة ذاته في شـــخص هذا المجرم فلم يستطع أن ينام. ولكنه قام في اليوم التالي بنزهة جميلة على ظهر حصـــانه، وســـعى جاداً في عمله، حتى شعر بحنان عظيم نحو أقاربه الأحياء، وعاد يستمتع بالحياة بلا هواجس، وينام بلا ثمة اضطراب.

واشتدت وطأة المرض على الفيكونت فمنعته من السير. ولم يعد يخرج من القصر. وكان أصـــدقاؤه وأهله يقضون عنده سحابة يومهم. كان بوسعه أن يصرّح بأي سخافة، أو يسرف بشكل جنوني، ويظهر كل تناقض، أو مزيج مثير، فلا يسمع من أهله عتباً ولا لوماً، ولا يسمح أصـــدقاؤه لأنفسهم بأي مزاح أو معارضة. فكأنهم قد توخوا ضمناً، أن ينزعوا عنه مسؤولية أقوالـــه وأعماله، وكان يبدو على الأخص، أنهم يتوخون منعه، بالأنس والملاطفة، عن ســـماع آخر صرير لهذا الجسم الذي تفارقه الحياة.

وكان الفيكونت يقضـــي ساعات طويلة بهيجة رأســاً لرأس مع ذاته، هذا الضيف الوحيد الذي كان يهمل دعوته لحضـــور حفلاته خلال الحياة. وكان يشعر، وهو يزين جسمه الحزين الشاكي، ويعزز في ذاته شعور الاستسلام لمشيئة القدر، في حين يستمتع بمشاهدة البحر، من خلال النافذة، كان يشــعر بشـــيء من الفرح الميلانكولي، ويحيط مشاهد موته وكثيراً ما كان يتأملهـــا ويحوّر فيها بلا انقطـــاع كقطعة فنية، بمناظر لهذا العالم، لم تكن صـــورها قد تلاشت من خاطره بعد، وكان بعدها عنه يجعلها في نظره جميلة غامضة.

إن مشـــاهد وداعه للكونتيســـة، حبيبته العذرية الكبرى، وكان يسيطر على صالونها على الرغم من امتلائه بأماجد فناني أوروبا وسادتها العظام، لترتسم خطوطها في خياله منذ الآن ويبدو له حديث لقائهما الأخير على هذه الصورة:

...كانت الشـــمس قد توارت. وأطلّ البحر خلال أشـــجار التفاح بلونه البنفسجي الفاتح. غيوم صـــغيرة، وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستمرة كالأسى، كانت تطفو على الأفق. سلسلة من النخيل الحزين الحالم، جذوعها غارقة في الظلمة ورؤسها مكللة بهالة من الحمرة، تتقد أغصـــانها بآخر شعاع ترسله الشـــمس الغاربة، وكأنها توقد في هذه الثريات المظلمة تيجاناً من نور. والنســـيم العابث يمزج بين رائحة البحر والحليب المحروق والأوراق الرطبة. لم تكن بلاد سلفانيا قد لطفت من سويداء المساء من قبل بمثل هذا المشهد الفاتن.

– أحببتك كثيراً يا بلداسار إلّا أني لم أهبك سوى القليل.

– مـــاذا تقوليـــن، أوليفيان. كيف؟ أعطيتيني قليلاً؟ قد منحتينـــي كثيراً، وأكثر مما طلبت. حتى لكأن حواســـنا قد اشتركت في حبنا. لقد أحببتك عذراء سماوية وحنوت علي كمرضعة. أحببتك حباً لم يفسد براءته أمل بلذة جسدية. ألم تهبيني بالمقابل، صداقة لا مثيل لها، حديثاً عذباً مزيّناً، وباقات من الورود اليانعة. لقد اســـتطعت أنت وحدك، بيديك الأموية المعبّرة، أن تطفئ من وهج جبيني الملتهب. قد ســـكبت في شـــفتي الذابلتين عسلاً شهداً، ووضعت أمام صفحة حياتي صوراً نبيلة رائعة. أعطني. أعطني يدك أقبّلها أيتها الحبيبة.

مجرد عدم اكتراث الأميرة بيا، المدلهة بحب كاستريسيو، وكان بلداسار يحبها بجملة قلبه وحسّـــه، كان يرده بين حين وآخر إلى حقيقة قاســـية كان يجهد نفسه لتناسيها. وكان يخيل إليه، لأيام قريبة مضـــت، عندما كان يســـير في بعض الحفلات متأبطاً ذراعها، إنه قد كسف من قيمة غريمه. ولكنه هنا أيضاً، كان يحس بعينيها العميقتين زائغتين في أغوار حب آخر لا يخفيه غير إشـــفاقها على هذا المتيّم العليل. أما الآن، فمجرد هذه النزهة إلى قربها أضحت

مســـتحيلة، فإن اضطراب حركات ســـاقيه لم يعد يسمح له بالخروج. ولكنها كانت تأتي لتراه بين حين وآخر. وكأنها اشـــتركت هي الأخرى في المؤامرة المدبّرة لمؤاســـاته، فكانت تحدثه دائماً بلطف بارع لم يعد يكذبه كالســـابق عدم اكتراثها أو نبرات غضـــبها. وكان يشعر بهذا اللطف والحنان، كما لا يستطيعه أحد سواها، يغمر كيانه ويستولي على مشاعره.

وذات يوم في حين كان الفيكونت ينهض عن كرســـيه ليذهب إلى المائدة لحظ خادمه وهو معجب ذاهل بأن ســـيده يمشي أفضـــل من قبل. ودعي الطبيب لمعاينته فتريث بعض الوقت قبل أن يقطع برأي. وفي اليوم التالي بدأ الفيكونت يمشـــي بتحسن ظاهر. وخلال ثمانية أيام ســـمح له بالخروج. وخامر أهله وصـــحبه أمل عظيم. ورأى الطبيب أنها قد تكونت في الأصل علة عصـــبية قابلة للشفاء اتخذت مظاهر الشلل العام، وأخذت أعراضها تتلاشى الآن. وقدم شكوكه لبلداسار على أنها حقيقة مؤكدة: «لقد شفيت»!

وأبدى المحكوم بالموت فرحاً مؤثراً وهو يستقبل العفو عنه ولكنه، خلال بعض الزمن، بدأ نوع من القلق الحاد ينبثق خلال هذا الفرح الذي أضعفته عادة قصيرة الأمد لم يألفها طويلاً. وهنا، في منجى من صدمات الحياة وعواصفها، وفي هذا الجو من اللطائف المقررة والهدوء المفروض، والتأمل الحر الطليق، بدأت فكرة الموت تنمو في ذاته، على شـــيء من الغموض. أخذ يشعر بخوف مبهم لفكرة أنه سيبدأ الحياة من جديد، ويتحمل من جديد أيضاً، الصدمات التي نســـي عادة تحملها، ثم يفقد الحنان والعطف الذي أحيط به. وشـــعر بشكل مبهم أيضاً بأنه لجد ســـيِّئ أن ينسى نفســـه، في غمار اللذة والعمل، بعد أن استطاع التعرف على ذاته، هذا الشقيق القريب الذي كثيراً ما حادثه وهو يتأمل المراكب الشراعية تخطط صفحة البحر، وقضى بصحبته الساعات الطوال، هناك بعيداً... وهنا، في أعماق ذاته.

إنه ليشـــعر الســـاعة بحنين وشوق، يشبه شوق المغترب، يســـتيقظ في قلبه فجأة لمعالم وطنه الأول. إنه ليشـــعر بحنين إلى الموت وقد خيل إليه في البدء أنه قد نأى عنه في ســـفرة أبدية بعيدة.

واقترح بلداسار فكرة، وكان جان جالياس قد عرف أمر شفائه، فعارضها بشدة، ومازحه هازئاً. وكانت أم ألكسي تزوره منذ شهرين صبحاً ومساء، فظلت يومين دون أن تراه. إنَّ هذا لكثير! وكان الفيكونت قد فقد منذ وقت طويل عادة النضـــال والكفاح فلم يعد يود استئنافها. وذلـــك أن الحيـــاة لم ترتبطه بمفاتنها. وعادت إليه قواه، وعـــادت معها رغبات الحياة وقد بدأ يخـــرج ويحيـــا ومات مرة ثانية لذاته. وخلال شـــهر ظهرت من جديد أعراض الشـــلل العام.

وكسابق عهده أضحى المشي عسيراً عليه، ثم أضحى مستحيلاً. جرى هذا باطراد تدريجي تعود معه الرجوع إلى الموت. كان لديه الوقت الكافي ليلوي برأسه.

ولم تكن للنكسة فضائل الإصابة الأولى التي بدأ في آخر عهدها يقطع صلته بالحياة، لا ليراها في حقيقتها، بل لينظر إليها كلوحة. أما الآن، فهو أكثر ما يكون صلفاً وغروراً، يتحرق أسفاً على اللذات التي لم يستطع تذوقها.

امرأة أخيه وحدها، وكان يحبها بحنان، كانت تغمر نهاية أيامه بالعطف فتأتي لتراه مع ألكسي.

وذات يوم حينما كانت آتية لزيارته جفلت بها الخيل فسقطت على الأرض وصدمتها حوافر حصان كان يسير به فارسه الخبب، فنقلت إلى منزل الفيكونت، وقد أغمي عليها وشج رأسها.

وتحامل السائق على نفسه لينقل إلى الفيكونت النبأ الأليم فشحب لون وجهه واصطكت أسنانه وبرقت عيناه. وفي ثورة غضب رهيب انهال على السائق بالسباب والشتيمة. وكان يبدو أن هياج غضبه يحاول أن يخفي نداءً حزيناً ناعماً، يتخلل مُدَد هذا الهياج، حتى لكأنه شكاة عليل إلى جانب الفيكونت الثائر. ولم تلبث هذه الشكوى الضعيفة في البدء، إلّا أنْ خنقت صراخ غضبه فهوى على كرسي يجهش بالبكاء، ثم راح يغسل وجهه كي لا تقلق امرأة أخيه لمعالم حزنه.

وقضى الفيكونت يومين وليلتين إلى قرب نسيبته. وفي الليلة الثانية غامر الطبيب بإجراء عملية خطرة، وهبطت درجة الحرارة في اليوم التالي فتطلعت المريضة بابتسامة إلى بلداسار الذي لم يستطع ضبط دموعه فبكى من الفرح بكاءً طويلاً.

عندما جاء إليه الموت رويداً رويداً لم يرد أن يتطلع إليه، أما الآن فقد رأى الموت أمامه فجأة. وروعه إذ هدده في أعز مخلوق عنده فانحنى له راجياً مستعطفاً. إنه ليشعر الآن بأنه قوي حر، يعتز لشعوره بأن حياته لم تكن غالية عنده كحياة نسيبته. إنه الموت الآن ينظر إليه وجهاً لوجه، وليست المشاهد التي تحيط بالموت. وكان يريد أن يظل هكذا حتى النهاية، فلا تأخذه من جديد الأكاذيب التي أرادت أن تجعل له نزعاً جميلاً رائعاً فذهبت به بعيداً في تشويه وتحقير أسرار الموت، كما حجبت عنه أسرار الحياة.

غـد، ثـم غـد، وغد آخـر بعده، ينزلـق هكذا، حتـى آخر مقطـع يسـجله الزمـن، طـي سـفره. كل أمـس لنـا قد أضـاء لبعض المجانين طريق الموت المغبر. انطفئي، انطفئي أيتها الشـعلة القصـيرة! فليسـت الحياة سوى شـبح هائـم، ممثل مسـكين يميس تيهـاً، أو ينـوح على المسرح لحظة عندما يأتي دوره. حكاية يقصّها غرابله، مملوءة صخباً وثورة، ولا تعني شيئاً.

شكسبير. مكبث

وأفضت متاعب بلداسار ولواعج نفسه، خلال مرض امرأة أخيه، إلى تفاقم مرضه. وعرف من طبيبه أن حياته على الأرض لن تطول أكثر من شـــهر. وكانت الســـاعة العاشرة من الصباح، والغيث يهطل بشدة عندما توقفت عربة أمام القصر، تُقِلُّ الدوقة أوليفيان.

وكان الفيكونت قد هيأ لنفسه مشاهد موته: «... في أمسية منيرة، وقد توارت الشمس، وأطل البحر خلال أشـجار التفاح بلونه البنفسجي الباهت. غيوم وردية وزرقاء، خفيفة كتيجان ذابلة، مستقرة دائمة كالأسى، كانت تطفو على الأفق...».

كانت الســاعة العاشــرة من الصــباح عندما جاءت الدوقة أوليفيان، وكان الغيث ينهمر من سماء قذرة واطية.

أما الفيكونت، وكان قد أتعبه المرض وســما بنفســه إلى أهداف عليا بعيدة، ولم يعد يشعر بلذائذ الأشياء التي كانت تبدو له في السابق ثمناً وفتنةً ومجداً رفيعاً للحياة، فقد طلب أن يقال للدوقة إنّه جد ضعيف. وألحّت. ولكنه لم يرد مقابلتها. إنها لم تعد شيئاً له قيمة بالنسبة إليه. فقد قطع الموت بســرعة هذه الصلات التي كان يخشى أسرها قبل أسابيع. وقد حاول التفكير فيها فلم ير شيئاً يبدو لعيني عقله. وكانت عينا خياله وغروره قد أغمضتا جفنيهما.

ومع ذلك، فقد استيقظت غيرته بشكل جنوني، قبل أسبوع من موته لخبر حفلة راقصة تقيمها دوقـة بوهيم، وتقود فيها حلقات الرقص الأميرة بيا مع كاستريســيو الذي كان يزمع أن يغادر البلاد في اليوم التالي، إلى الدانمرك.

وطلب حضـــور بيا فعارضت امرأة أخيه بعض الشـــيء. وظنهم في البدء يقصدون منعه من رؤيتها، فثار غضبه، حتى أرسلوا في طلبها تواً كي لا يزيدوا في ألمه.

وكان عند حضـــورها هادئاً مسترسلاً في حزن عميق فقرّبها من سريره وحدثها للحال عن حفلة الدوقة:

– لسنا أقرباء يا بيا، فلن ترتدي عليَّ ثياب الحداد. ولكني ألتمس منك أمراً، عديني ألا تذهبي إلى هذه الحفلة.

وتطلـــع كل منهما في عيني الآخر. وطغت على حدقتي نواظرهما روحاهما المعذبتان، والتي لم يستطع أن يجمع بينهما الموت.

وأدرك ترددها فتقلصت شفتاه بألم وقال لها ملاطفاً: أواه لا، لا تعدي، ولا تخلفي بعهد تعطيه لمشرف على الموت، لا تعدي إن كنت غير واثقة.

– لا أستطيع أن أعدك يا بلداسار. إني لم أره منذ شهرين، ولن أراه بعدها أبداً. وسأظل بلا عزاء إلى الأبد إن لم أحضر هذه الحفلة.

– إنك محقة، طالما أنت تحبينه. ولكنك تستطيعين أن تفعلي من أجلي شيئاً. امنحيني قسماً من وقتك في هذه الحفلة، الوقت الذي كنت ستقضـــينه معي، فيما لو كنت حاضراً، لتبعدي عنك نظرات الفضول. فادعي إليك روحي بعض اللحظات، وفكري بي.

– لا أستطيع أن أمنحك هذا العهد يا بلداسار، فإني إذ ألازمه في هذه الحفلة، لا يكاد يكون عندي الوقت الكافي لرؤياه. ولكني سأمنحك فرصاً أخرى في الأيام التالية.

– إنك لا تســـتطيعين ذلك. ستنســـينني سريعاً بعد ســـنة يا للأسف! ولعل قراءة حزينة، بعد ذاك، وفاة أحد المعارف، أو أمســـية ممطرة تذكرك بي. وأي إحسان تهبينني بذلك! أواه لن أســـتطيع رؤياك أبداً إلا في الروح. ولذا يجب أن يفكر أحدنا بالآخر وســـأديم التفكير بك حتى تكون روحي مكشوفة لك دوماً، إن أردت دخولها. أما إن تأخرت الضيفة عن الحضور فستحلل أمطار تشرين الأزهار النابتة على قبري وتحرقها شمس آذار، وتبكي روحي جوى وألمـــاً، إني لآمـــل أن يبعث ذكراي في خاطرك يوم عيد أو رؤية أثر لصـــديق. وعندها تزهر الأشياء من حولي بمثل فعل السحر، حتى لكأني أسمعك وأستمتع برؤياك. فكّري بالميت يا بيا. ولكن لهفاه! أيستطيع الموت أن يقوم بما لم تستطعه الحياة بكل حرارتها ودموعنا، وكل أفراحنا وحرارة شفاهنا...

الفصل الخامس

«ها كم قلباً نبيلاً يتحطم. ليلة سعيدة أيتها الأميرة اللطيفة وليهدهد لك منامك نشيد جيشٍ من الملائكة».

شكسبير. هاملت

ونقل سرير الفيكونت إلى الغرفة المستديرة التي رآه فيها ألكسي يوم عيده الثالث عشر. وكان بوسع المريض أن يطل منها على البحر والمرفأ من جهة، ومن الجهة المقابلة، على الغابات والحقول.

وكان الهواء رطباً لطيفاً ففتحوا النوافذ المطلة على البحر، وكان مركب شراعي يقوِّم بحارته السواري استعداداً للرحيل، وعلى ظهره، في ساري المقدمة، فتى في الخامسة عشرة من عمره. وكان يخيل لمن ينظر إليه، أنه على وشك السقوط، بعد كل موجة. إلا أنه كان ثابتاً فوق ساقيه القويتين، وفي يده شبكة صيد، وغليونه يشتعل بين شفتيه.

ولفحت خد بلداسار هبة الريح نفسها التي كانت تنفخ الشراع فأطارت ورقة من الغرفة. وأدار بلداسار رأسه كي لا يرى هذه الصورة السعيدة لملذات أحبها بكليته، ولم يعد يستطيع تذوّقها. ثم تطلع إلى المرفأ. وكان مركب آخر، ذو ثلاث سوارٍ يتهيأ للرحيل. وقال جان جالياس: «إنه الشراع المسافر إلى الهند».

ولم يكن بلداسار يميز بين الأشخاص الواقفين على جسر المركب، يلوحون بمناديلهم، ولكنه كان يحزر في عيونهم هذا الظمأ للمجهول. إن أمام هؤلاء مجالاً فسيحاً للحياة والمعرفة والأحاسيس!...

ورفعت المرساة فارتفع صوت، واهتزت كتلة المركب على أديم البحر القاتم متّجهة إلى الغرب، حيث يمزج النور، خلال الضباب المذهّب، بين الغيوم والمراكب الصغيرة، ويتمتم في آذان المسافرين وعوداً مبهمة مغرية.

وطلب بلداسار أن تغلق النوافذ التي تشرف على البحر وتفتح النوافذ المطلة على الحقول. وتطلع إلى السهل. وكان لا يزال يسمع أصوات الوداع تتصاعد من المركب الشراعي ويرى بعيني خياله، الفتى البحار يرمي شباكه وغليونه في فمه.

وأرهف سـمعه لحظة فسمع صوتاً فضياً عميقاً لا تكاد تلتقطه أذن، يتماوج من بعيد كخفقان القلب... وكان صـوت جرسـ قرية نائية اجتاز الأنهر، وطـوى في هدأة الجو، فراسخ كثيرة من السهل ليطرق أذنه الأمنية. وكان صوتاً أنيساً قديماً، وأنه ليستمع إلى دقـات قلبه، يخفق على وقع نغماته الرتيبة. وكان بلداسـار في كل مراحل حياته، عندما يسـمع صوت الأجراس، يذكر على الرغم عنه، صـوتها اللطيف تحمله إلى أذنه نسمات المساء، عندما كان يعود إلى القصر من طريق الحقول، وهو حدث صغير بعد.

في هذه الآونة استدعى الطبيب أهل بلداسار وقال لهم:

هي النهاية!

وكان بلداسـار هادئاً، وعيناه مغمضـتين، وقلبه يصـغي إلى الأجراس التي لم تكن تسـمعها أذنه، وقد شلها الموت المغير. وتراءت له أمه وهي تقبّله عند عودته في المساء. ورآها وهي تدفئ قدميه بيديها في ليالي الشـتاء، وتظل واقفة إلى جانبه، إن استعصـى عليه المنام. وتذكر أيام طفولته عندما كان يقرأ (روبنسـن كروزوي)، وأمسـيات الحديقة عندما كانت أخته تغني إلى قربه. وتذكّر كلمات أستاذ الموسيقا الذي تنبأ له بأنه سيصبح موسيقياً كبيراً، وتأثر أمه لهذه النبوءة، تحاول عبثاً إخفاءه.

أمـا الآن فلـم يعد عنده وقت يحقق فيه أماني أمه وشـقيقته، وقد خدعهما بقسـوة. وتراءت له الزيزفونة الكبيرة التي عقد خطوبته في ظلها. وتذكّر يوم فسـخ الخطوبة وكيف اسـتطاعت أمه وحدها أن تُدخِلَ العزاء إلى قلبه. وخيّـل إليه أنه يعانق خادمته العجوز، ويمسك بيده قيثارته الأولى.

رأى كل هـذا في أفق بعيد لامع، وحلو حزين كهذا الأفق السـاجي تطل عليه النوافذ من جهة الحقول.

رأى كل هذا ولم تمض ثانيتان على كلمة الطبيب الذي سمع دقات قلبه وقال: إنها النهاية.

وجثا ألكسـي وأمـه. مع دوق دي بارم الذي وصـل في تلك اللحظـة. ووقف الخدم خاشعين يبكون أمام الباب المفتوح.

أسمر في الغابة، غريب كالزمن!

منذ بضــــع سنوات، وعلى رصيف محطة السـكك الحديدية في ميونخ، وقف بجانب القطار السريع إلى سويسرا رجل وامرأة. كانت المرأة جميلة جداً حتى إنّ ذكراها تظل أبداً ماثلة في ذاكرة كل من يراها، أمّا الرجل فقد ظهرت على وجهه الأسمر قصة لقاء قدري غريب.

كانت المرأة في أوج نضــجها، وذات جمال تنزّه عن العيوب، وقد تشــربت شــفتاها حمرة الصــحة والحيوية واليناع. آية من الملاحة اتّحدت فيها جميع عناصــر الجمال بنســب رائعة وتوازن متّسق، حتى يكاد المرء لا يصدق عينه إذا نظر إليها.

ومــع أنها لم تكن بالغة الطــول، إلا أنها أحياناً كانت تبدو على طــول ملكي مهيب، أو تبدو صغيرة الحجم أنيقة إذ تدنو من رفيقها. ولم يكن قدّها الحلو قد فَقَدَ رشاقة الصبا الرقيقة، ومع ذلك فقد كان ناضجاً يضج بالأنوثة الشهية والإغراء.

كانت ملابســها وفق أحدث الطرز. وكانت قبعتها الصــغيرة الأنيقة تتوّج لمســة من الشَّعر النحاسي الأحمر، وقد ألقت بظلها على العينين. وكانت عيناها زرقاوين مشوبتين باللون الرمادي وتوحيان بالعمق، كما كانتا عرضــة لتبدل اللون إلى شــيء من دكنة مع أخف ظل من المشاعر يبدو على وجهها. وكانت تتحدث إلى الرجل بنبرات رقيقة منخفضــة، وتبتسم ابتسامة شهوانية غامضــة كلّما نظرت إليه. وكانت من خلال الحديث الذي تســوقه بجد وحماسة وحيوية تنفجر أحياناً بضحكة صغيرة فضية تنبع من حنجرتها، غزيرة، شهية، رقيقة.

وإذ كانا يســيران ذهاباً وإياباً على الرصيف شبكت يدها الصغيرة بذراع المعطف السميك الذي يلبســه والتصــقت به. وكانت أحياناً تلقي على ذراعه برأســها الحلو الفخور كالزهرة، ثم يتوقفــان، ويروح الواحــد منهما يتفرس بالآخر بثبات لحظة، ثم تعود إلــى التحدّث إليه، فتؤنّبه بمزاج وتزجره وتهز ذراعيه برقة، وتشــده من قلابتَيْ معطفه المكســوتين بالفراء. ثم تهزّ له من خلال القفاز إصبعاً صغيراً.

ظــل الرجل ينظر إليها طــوال الوقت، لا يتكلّم إلا قليــلاً، ملتهماً إياها بعينيه الســمراوين المشــتعلتين بنار الموت، الآكلتين جسمها بحبٍّ شرهٍ نهم. كان طويل القامة شاحب اللون، أتلفه المرض فغرق جسمه وضاع في ألبسته الواسعة.

وكان وجهه أبيض رقيقاً شــف إلى جلد وعظم، وانحدر في أنف ضــخم معقوف. وهكذا لم يكن وجهاً بمقدار ما كان منقاراً للموت تنيره عينان متوهجتان مفترســتان، وتعلو خديه رايتان من حمرة واشــتعال. وعلى الرغم مما يسببه المرض وهزاله من قبح فإن وجه الرجل كان يحمل طابعاً غريباً يرسخ في الذاكرة رسوخاً عجيباً... كان وجهاً يزدان بوسام الموت.

والآن حان وقت الفراق. كان حرس القطار يصيحون منذرين الركاب بالصعود إلى القطار... وقامت على طول الرصــيف سلسلة من التحركات السريعة بين جماعات الأصدقاء. فكان الناس يتعانقون ويتبادلون القبلات، وقد تشــابكت الأيدي والأصــابع. وكان بكاء هناك وضــحك هنا، وصراخ في مكان آخر، وأناس يتزودون بقبلة سريعة ثم يهرولون إلى القطار. وكان يسمع صوت وعود وأيمان وعهود تقطع، تفضــح أســرار غالية وما تلبث أن تنتهي بضحك متفجر، ثم تتعالى كلمات الوداع التي هي واحدة في جميع أنحاء العالم.

- أوتو، أوتو... أما تزال تحمل ما أعطيتك إياه؟ تحسسه في جيبك، أما يزال هناك؟

ويتحسس أوتو الشيء فيجده... ويتبع ذلك نوبة ضحك...

- «هل ترى إلزا؟».

- «ماذا تقول؟ لا أستطيع أن أسمع».

وكان المتكلم يضــع كفه وراء أذنه دافعاً شــحمتها إلى الأمام وقد أدار رأسه جانبياً ولاحت على وجهه نظرة ارتباك. ثم جعل كفه الآخر على شــكل بوق وصــاح بصــوت علا على صــوت الضجيج: «سألتك هل سترى إلزا؟».

- «نعم أعتقد ذلك، سأقابلها في سان مورتيز».

- «قل لها أنْ تكتب».

وتكرر المنظر السابق وعاد الصوت يقول:

«لا أستطيع أن أسمعك».

- «طلبت إليك... أن توصيها بالكتابة...».

- «آه طبعاً... سأقول لها ذلك...».

- «أو أغضب منها».

- «ماذا؟ لا أستطيع سماعك وسط هذا الضجيج».
- «قل لها... إنني سأغضب منها إذا لم تكتب».

وكان على الرصيف بين جماعة الأصدقاء تلك رجل يهمس بخبث في أذن امرأة تهتز بضحك مكتوم. واســـتدار الرجل بوجه ضاحك ليرسل صيحة إلى صديق مسافر، إلا أن المرأة أمسكت به محاولة منعه، وقد احمرَّ وجهها بتأثير الضحك وقالت لاهثة:

«كلا. كلا...».

إلا أن الرجل لم يبال بها، بل ضم كفيه حول فمه وصاح قائلاً:

«قل للعم ولتر أنْ يلبس...».

فقال المسافر وقد دفع شحمة أذنه إلى أمام: «ماذا قلت؟ أنا لا أسمعك...»

- «أقول...».

فأمسكت المرأة بذراعيه وقالت: «كلا... كلا... اصمت».

- «قل للعم... وولتر ألّا يهمل لبس ثيابه الداخلية الصوفية...».

فصاحت المرأة: «لا. لا. يا هنريخ...».

- «الألبسة الداخلية... السميكة... التي طرزت... العمة بيرتا اسمه عليها».

وهنا ضجت الجماعة بالضحك وصاحت النسوة محتجات وضاحكات... وحين خفت صوت الضـــجيج صاح المســـافر قائلاً: «نعم ســـأقول له ذلك... واســـتطرد بعد تفكير لعله يكون قد فقدها... لعل إحدى السيدات هناك...».

فصاحت المرأة به: «اصمت يا أوتو».

- «لعل... إحدى السيدات... قد نزعتها عنه».

فصاحت المرأة: «اخجل يا أوتو واصمت...».

فأردف هنريك مكملاً: «ذكرى من العم...».

وعندما خفت الضوضـــاء بدأ رجل آخر بين الجماعة يقول بصوت متخاذل، وقد راح يمسح عينيه الدامعتين من الضحك: «قل لإلزا...» ثم خانه صوته وتوقف وعاد يمسح عينيه.

فصاح به المسافر: «ماذا»؟

فعاد الرجل إلى الكلام بصـــوت أقوى قليلاً: «قل لإلـــزا: إن العمة بيرتا...» آه يا إلهي... ثم خانه صوته ثانية وعاد إلى مسح عينيه الدامعتين...

ثم صمت المسافر يقول: «ماذا؟... ماذا أقول لإلزا؟».

«قل لإلزا: إنَّ العمة بيرتا سترسل لها وصفة الفطيرة».

قال الرجل ذلك بأعلى ما يستطيع من صوت. وكان لهذه العبارة التي لا تحمل معنى في الظاهر تأثير مذهل على جماعة الأصدقاء أولئك، فبلغ تشنجهم أقصاه من جرائها، وغمرتهم موجة من الضحك فترنّحوا كالسكارى، وأمسك بعضهم ببعض خوفاً من السقوط، وانهمرت الدموع كالسيل من أعينهم المحمرَّة، وانبعثت من حناجرهم أصوات ضعيفة ولهثات مخنوقة، كما انبعثت صرخات خافتة من النساء انتهت بهم جميعاً إلى نوع من الفواق...

لم يكن بوسع غريب أن يعلم ما تتضمنه تلك الإشارة التافهة إلى إلزا والعمة بيرتا، تلك الإشارة التي جعلت أفراد ذلك الفريق من الأصدقاء يتشنجون بذلك الضحك. إلا أن عدوى ذلك انتقلت إلى المتجمهرين على الرصيف، فابتسموا أولاً ثم ضحكوا وهزوا رؤوسهم. وهكذا سارت الأمور على الرصيف الذي اختلط فيه أهل الجد بأهل الهزل، والكبار بالصغار، والهادئون بالمهتاجين. كان منهم أناس انصرفوا إلى العمل، وأناس انصرفوا إلى اللهو. وهنا أتيح لفريق من الناس أن يشارك الآخرين بكل حركة أو كلمة أو إيماءة، وكل ما يستثيره السفر من مشاعر الاهتياج والفرح والأمل التي يوقظها فيهم، وهنا أيضاً أناس بدوا متعبين وغير مكترثين بما حولهم واستقروا في مقاعدهم، ولم تحركهم إثارات ما قبل الرحيل. هذا ما كان يجري بالضبط في أي مكان آخر.

كان الناس يتحدّثون بلغة الرحيل العالمية التي لا تختلف في هذا المكان عنها في أي مكان آخر. ذلك الحديث الذي غالباً ما يكون تافهاً لا خير فيه. ولكن هذه الصفات نفسها هي التي تجعل الحديث محركاً للعواطف بشكل غريب، ذلك أنه يساعد على تغليف انفعالات أشد عمقاً في قلب الإنسان، ويملأ ذلك الشعور بالفراغ الذي يعاونونه إذ يفكّرون بالرحيل فيكون ترساً، بل قناعاً واقياً يخفي مشاعر حقيقية.

لذلك فإن ذلك الشاب الغريب الذي رأى هذه المشاهد وسمعها، قد وجد فيها لوناً مثيراً من طقوس قيام القطار. وهذا الشاب غريب اللسان، الذي رأى وسمع هذه الحركات المألوفة التي هي رغم غرابة اللسان الذي جرت فيه تنطبق تمام الانطباق على مشاهد المحطة في بلده، قد شعر فجأة بما لم يشعر به من قبل أبداً بألفة الوحدة الجارفة، وأحسّ كذلك بتماثل في الشخصية الإنسانية يعكسها البشر بطريقة غريبة فترسخ جذورها في هيكل حياة الإنسان، على أعمق مما ترسخه اللغة التي تجري على لسانه، والعنصر الذي يمثله.

والآن، إذ حان وقت الفراق، نرى الرجل المشارف على الموت والمرأة لم يتحدَّثا بشيء، بل تعلّق كلٌّ منهما بذراع الآخر وتفرّس فيه بنظرة رقيقة نهمة. ثم تعانقا، فالتصقت به وأحاطته بذراعيها. وألصقت شفتيها الحمراوين بشفتيه وكأنها لا تريد أن تتخلّى عنه. وأخيراً انتزعت نفسها منه بتردد ودفعته دفعة خفيفة بيديها وقالت له: «اذهب، اذهب، فقد حان الوقت!».

فاستدار الشبيه بـ«الفزاعة»(١) وصعد إلى القطار بخفّة، وأتى حارس القطار وصفق باب الغرفة خلفه بشدة. وبدأ القطار يسير خارجاً من المحطة فوقف الرجل متكئاً إلى نافذة القطار. وبدأت سرعة القطار تزداد فخففت هي من سرعتها ثم توقفت. وكانت عيناها مبللتين وشفتاها تهمسان بكلام لم يستطع أحد سماعه... وقبل أن يختنق صوتها بهدير القطار راحت تصيح: مع السلامة، ثم وضعت يدها على شفتيها وأرسلت له قبلة في الهواء.

أما الشاب الغريب الذي قدر له أن يرافق ذلك الشبح في الرحلة، فقد لبث واقفاً ينظر من نافذة القطار متطلعاً إلى حشود الناس التي بدأت تتحرك خارجة من المحطة، ولكن نظره في الحقيقة قد تعلق بقامة المرأة الحلوة الطويلة، إذ كانت تسير بخطا بطيئة وقد أحنت رأسها برشاقة منقطعة النظير وبتخطر شهي، وقد توقفت في سيرها مرة واحدة، ثم التفتت نحو القطار وعادت إلى سيرها ثانية.

وهدأت فجأة إذ برز لها شخص من بين الجمهور على الرصيف واقترب منها. كان شاباً. وبدا عليها أنها أجفلت منه، ثم هزّت يدها بالقفاز محتجّة. إلا أنهما، في لحظة، اشتبكا معاً في عناق حار.

وعندما أخذ المسافر الشاب مقعده في العربة وجد أن الرجل المريض قد سبقه إليها واستلقى على مقعده. كان يتنفَّس بتثاقل إلا أنه كان قد بدأ يستعيد هدوءه ويبدو أقل إنهاكاً. وراح الشاب ينظر إلى ذلك الأنف الشبيه بالمنقار وإلى العينين المغمضتين ويتساءل في نفسه عما إذا كان هذا المريض الواهي قد رأى مشهد اللقاء ذاك على الرصيف، وأي معنى قد يكون قائماً له في ذهنه. إلا أن قناع الموت كان غامضاً لا يكشف شيئاً، فلم يستطع الشاب أن يقرأ أي معنى في ذلك الوجه. وكانت تبدو على شفتي المريض الرقيقتين آثار ابتسامة خفيفة جلية. وفتح عينيه الملتهبتين فبدتا غائرتين في حفرة عميقة سحيقة، تتطلعان من هاويتهما إلى شيء موغل في البعد. وبعد لحظة قال بصوت منخفض عميق: «تلك كانت زوجتي. أنا في الشتاء أسافر وحدي، فهذا أحسن. أما هي فستتبعني في الربيع، وقد تكون صحتي إذ ذاك على شيء من التحسن».

ســـار القطار الكبير عبر بافاريا طوال ذلك الأصـــيل. وإذا جمع القطار سرعته، خلّف وراءه الأبنية الأخيرة المبعثرة في ضـــواحي ميونخ، واندفع بخفة كالحلم يخترق الســـهل المنبســـط المحيط بالمدينة.

كان ذلــك النهار أغبر اللون، والجو ثقيل الأنفاس قليلاً. إلا أنه كان ممتلئاً بالحيوية الألبينية القوية النقية، وبذلك النشـــاط الضـــامر الذي يحمله هواء الجبال. وفي خلال ساعة كان القطار قــد بلغ منطقة الألباين (Alpine) بتلالها ووهادها، وبذلك قام في النفس حس بارتقاء وتصـــاعد متواليــن، وبافتتـــان بغابات ألمانيا الســـمراء، تلك الغابات التي هي أكثـــر من مجرد أن تكون أشجاراً.

إنها ســـحر في ســـحر يملأ قلب الإنســـان ولا سيما الأغراب الذين يصـــلون بأصرة قربى عنصـــرية بتلك البلاد، فتمتلئ قلوبهم بموســـيقا غامضـــة، ويرجع من الذكريات لا يمكن تفهمها تماماً. إنه شـــعور جارف باكتشـــاف وشيك مباشر شبيه بشـــعور المرء الذي يزور بلد أبيه أوّل مرة. إنه حج إلى تلك البلاد الغريبة التي كانت أرواحنا تتوق إليها في أيام حداثتنا، فتنكشف لنا حالاً، وفي اللحظة التي نراها بها، بإحســـاس قوي من المعرفة التامة وعدم التصـــديق، تنكشف لنا بغرابة وألفة في حقيقة مشابهة للأحلام، يتصف بها كل ما هو فاتن وساحر.

مـــا هو ذلك الفرح الجامح العنيف الذي يثـــور في قلوبنا ممزوجاً بالألم؟ ما هي تلك الذكرى التي لا نستطيع تفسيرها؟ وتلك المعرفة السريعة التي لا نستطيع التعبير عنها؟ ذلك ما لا يسعنا الرد عليه. فليس هناك من وســـيلة للتفوّه به، وما من دليل محســـوس نقدمه تدليلاً عليه. وبوسع الكبرياء أن تســـخر من خزعبلاتنا، ومع ذلك فنحن نعرف الأرض الســـمراء حالما ندب عليها. ومع أنه ليس لدينا تفسير أو إثبات أو وصف لما نشعر به، فإن فينا ما هو فينا، وإننا نعرف ما نعرفه، وإننا قائمون على ما نحن عليه.

ومَنْ نحن؟ نحن قوم عراة، أمريكيون ضائعون، تطل علينا أجواء ضخمة متوحّدة، وتجري في عروقنا دماء عشـــرة آلاف رجل، فمن أين يأتينا ذلك الشعور والمعرفة السريعة، وتلك الذكريات المملوءة برجع الأحلام، التي تكاد لفرط وضوحها تُلمَس؟ من أين يصدر ذلك الجوع الدائم وتلك الشهوة المحرقة؟ ومن أين تلك الموسيقا الجليلة الغامضة الساحرة الجنية التي ترن في أرجاء الغابة؟ وكيف تأتّى لذلك الفتى الأمريكي الغريب أن يعرف تلك البلاد الغريبة منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها؟

كيف كان له- ولم ينقض على نزوله في المدينة الألمانية ســاعات- أن يفهم اللسان الذي لم يسمعه من قبل؟ كيف أمكنه أن يتحدَّث بسرعة فقال كل ما أراد أن يقوله بلغة غريبة لا يستطيع التحدث بها؟ قاله بلهجة سحرية لم تكن من لغته أو لغتهم في شيء؟ كيف عرف تلك اللهجة التي لم يكن يعيها قبلاً، والتي بدت كأنها روح لغة لا كلماتها، ففهمه كل من سمعه يتحدَّث بها؟

كلا. ليس باســتطاعته أن يثبت ذلك. ومع ذلك فإنه قد علم بأنه كائن، وبأنه مخفي في أعماق ذهن الإنســان ودمه. تلك هي معرفة هذه الأرض وناســها، أرض أبيه وقومه. وقد أحسَّ بالمزيج التراجيدي لذلك العنصــر كله، أحسَّ بانصهار الروح والجســد، أحسَّ بذلك الخوف المجهول من الغابة البربرية القديمة، وبجمع من البرابرة يتحلّقون حوله في حلقة جهنمية قاتمة، وبشــعور الغرق بأهوال العصــور البربرية لتلك الغابة المخيفة، وأحسَّ بأنه يحمل في داخله نهم الخنزير وجشعه، وموسيقا الروح القوية العجيبة.

أحسَّ بالكراهية للوحش الذي لا يشبع، وبالاشمئزاز منه، ذلك الحيوان الذي له وجه خنزير، الظامئ الذي لا يرتوي، والجائع الذي لا نهاية لجوعه، وذو اليد الثخينة الممزقة التي تعيث بنهم خانق لا يشــبع. أحسَّ نحو الوحش الكبير بمثل كراهيته لجهنم والموت، لأنه أدرك وشــعر أنه موجود فيه. كان هو نفسه فريسة رغباته الجامحة الفاحشة التي لا تشبع. فهنالك في تلك الغابة أنهار من نبيذ وثيران مشــكوكة بالســفافيد تشوى على نار ملتهبة. ومن خلال ظلمة الغابة يقوم جدار هادر من الوحوش الضخمة تصدر عنها أصوات بربرية، ومن أجساد النساء الشقراوات المفرطات في الســمنة وكان الجميع في انهماك وحشــي لملء كروشهم الضخمة الجشعة التي لا تعرف الاكتفاء، فلا تكظ ولا تتخم. كل ذلك كان ممزوجاً بدمه وروحه وحياته.

آل ذلك إليه بكيفية ما، متحدراً من عصر الرعب المظلم لتلك الغابة القديمة، وآل إليه مع ذلك كل ما كان سحرياً مجيداً عجيباً جميلاً. أصوات جشة خفيفة تصدر عن الأبواق فيتردد صداها في الغابات.الامتزاجات العجيبة اللانهائية والتبدلات الدورية لروح الإنسان الجرماني القديم، كم هو صارم ومحير وغريب ومؤلم لغز ذلك العنصر، الذي آل إليه مع قوة أخرى، قوة روحه النزيهة التي حلّقت منبثقة عن الوحش الفاســد بنقاوة براقة، وقوة الموسيقا العظيمة الساحرة والشعر الفخم اللذين أبدعا على الرغم من جوع المعدة الوحشي الأعمى، وترابية الإنسان.

كل ذلــك كان جزءاً منه، بضــعة من حياته. كان يرتدي اســتحالة اســتقطار ذلك منه بقدر اســتحالة تخلّصه من دم أبيه. تلك هي الأنسجة القديمة الثابتة المتحدّرة إليه من الزمن المظلم. ولذلك فإنه عندما نظر الآن من نافذة القطار متطلعاً إلى الأراضــي الألبينية التي تكســوها ثلوج

وأحراج مســحورة، أحسَّ في لحظة واحدة بالمعرفة المألوفة، شــاعراً بأنه قد عرف هذه البلاد دوماً على أنها موطنه، كما أحسَّ بشيء غامض جامح جذل عجيب يعلو في روحه كموسيقا فخمة تراود الأسماع في الأحلام.

والآن، إذ قام ذلك التعارف الودي، فقد راح الرجل الشــبح، بمثل فضــول اليهود، يلقي إلى رفيقه السؤال تلو السؤال عن حياته وبلاده وحرفته، ثم عن الرحلة التي يقوم بها، والدافع إليها. وكان الشاب يجيب عن تلك الأسئلة دون تردد أو شعور بالانزعاج. أدرك أن الشيخ يحاول انتزاع خصوصــياته انتزاعاً، ولكن صــوته الهامس اللجوج، وأدبه وابتسامته، وفوق ذلك كله إحساس الغريب بأن هذا الرجل يقرع أبواب الموت عاجلاً أم آجلاً، قد دفعته إلى مســايرته، والرد على أسئلته كثرة الدقيقة.

الفتى أمريكي أليس كذلك؟

– نعم.

– منذ كم من الوقت ترك بلاده؟ منذ شهرين؟ ثلاثة أشهر؟

– كلا. نحو السنة.

– أوه سنة؟ إذن فهو يحب أوروبا، فهل هذه هي زيارته الأولى؟

– كلا، الرابعة. ورفع الشــبح حاجبيه بدهشــة، ومع ذلك فإن الابتســامة الخفيفة التهكمية المتعبة لم تفارق فمه الرقيق الحساس.

وأخيراً فرغت جعبة الشاب وأحاط الشبح بكل شيء يتعلّق به. فراح يتفرس في وجهه مدّة لم تغب خلالها ابتســامته الخبيثة التهكمية المتسربلة بالود. وأخيراً قال الشبح بجهد وبترو خبير، وبهدوء الموت: «أنت صغير جداً، ومع ذلك تريد الآن أن ترى كل شيء؟ أن تنال كل شيء؟ ولكنك لن تنال شــيئاً، ثم ابتســم واستطرد قائلاً: «إن هذا كله ســوف يتبدَّل، وسيأتي يوم لا تطلب فيه إلا قليلاً، ولعلك عندئذ تنال ذلك القليل، وهذا أفضــل، أليس كذلك؟ إني أعرف أني أعرف. كنت مثلك إذا رحلت إلى مكان ما. وأحاولُ أن أرى كل شيء، فلا أنالُ شيئاً. أما الآن فقد كففت عن الســفر، فالأشــياء هي نفســها في كل مكان». ثم نظر من خلال النافذة، وقد بدا منهكاً، وأشار بيده إشارة كاسحة وقال هامساً:

«حقول وجبال، وتلال، وأنهار، ومدن، وأناس، هل تريد أن تعرف كل شــيء عن هذا كله؟ إن في حقل واحد، وتلة واحدة، ونهر واحد، ما يربو على الكفاية».

ثـم أغلق عينيه لحظة. وعندما تكلّم ثانية كان همسـه لا يكاد يسـمع وقال: «وحياة واحدة، ومكان واحد وزمن واحد».

حلّ الظلام فأنيرت مصابيح المقطورة. وهمست تلك الحياة الذاوية إلى الشاب بما لم يسعه رفضه. كان الطلب هو إطفاء النور، إذ تمدد الشبح على مقعده يصيب قدراً من راحة. واستجاب الغريب للرجاء بطيب خاطر. فالرحلة كانت قد شارفت نهايتها. وكان القمر في الخارج قد أشرق مبكراً، فانعكس نوره على الغابات والثلوج ببهاء غريب وسـحر جني ألقى ظلمة العربة ظلالاً من نوره الشجي الغامض.

كان الشـبح ممدداً على المقعـد مغمض العينين. وكان التوهج في خديه قد اسـتحال إلى لون قرمزي، أما وجهه فبدا تحت ضـوء القمر غريباً شـاحباً كمنقار طيـر عظيم، ولم يبد عليه أنه يتنفس. وكان السـكون يلفّ العربة خلال صوت عجلات القطار، وصوت صرير العربة، تلك السيمفونية من أصوات القطار الغريبة والمألوفة، ذلك النغم المضطرد الذي كان بحد ذاته صوت السكون والأبد.

ومن النافذة راح الشاب ينظر إلى عالم السحر الأبيض والأسود الذي كان يلوح فخماً غريباً تحت انعكاس نور القمر الشـجي. ولبث على ذلك مدّة مسـلوب اللب مسحوراً. ثم نهض مغلقاً الباب خلفه بهدوء، وتمشى في الممر مخترقاً عربة إثر عربة، حتى بلغ عربة الأكل.

كان كل ما في الأمر يتألق نوراً. كان هناك ترف وحركة ودفء شـهي وبهجة وبدت له حياة القطار كلها مركزة في عربة الأكل. وكان النُّدُل يسـيرون بخفـة وبأقدام ثابتة، ثم يتوقفون أمام كل مائدة ليناولوا الناس أطعمة جيدة الطهو من صحائف يحملونها على أطباق كبيرة. وقد سار السـاقي خلفهم بفتح زجاجات نبيذ الراين، فكان يضـع الزجاجة بين ركبتيه ويسحب السدادة فتفرقع في ضجة لطيفة.

كانت امرأة جميلة جذابة تجلس إلى إحدى الموائد بصـحبة رجل عجوز تبدو عليه علامات الإنهاك، وإلى مائدة أخرى جلس ألماني ضـخم الجسـم موفور القوة يلبس ياقة مجنحة. كان حليق الرأس خنزيري الملامح ذا جبين مرتفع، وكان يحدّق بنهم في طبق اللحم الذي كان النادل يغرف منه فيقول بصوت خشن وبلهجة تنضح شراهة: «حسناً، أريد كمية أخرى من هذا...».

كان المشـهد يوحي بالغنى والترف والقوة التي تثير في الإنسـان شـعوره بأنه مسافر في قطـار أوروبي فخم. وهذا يختلف تماماً عن السـفر بقطار أمريكي. ففـي أمريكا يخلق القطار في المسافر شـعوراً بفرح جامح متوحد؛ شعوراً ببرية الأرض التي يقطعها القطار ووحشيتها

ولا نهائيتهـــا، وبأمـــل دنيوي وهو يفكر بالمدينة الخلابة التي يســعى إليهـــا، وبما ينتظره فيها من متع خلابة. إن المرء في أوروبا يشـــعر شـــعوراً دائماً بالفرح والمتعــة، فالقطارات الفخمة ومقاعدهـــا الجديدة الوثيـــرة القرمزية والزرقاء الداكنة، وأواني العربـــات المعنى بها، والأطعمة الشـــهية والخمرة القوية، والمسافرون العالميون الأثرياء من سكان المدن الكبيرة، كل هذا يملأ المرء بشـــعور حسي بالفرح، شعور بأمل يوشك أن يتحقق، وفي ساعات قليلة يقطع المرء بلاداً إلـــى أخـــرى عبر قرون من التاريخ، عبـــر عالم مثقل بالثقافة، عالم يعجُّ بالبشـــر، ومدائن تتميز بخصائص عن مدائن أخرى.

وبدلاً من ذلك الفرح الجامح والأمل الذي لا اسم له والذي يشعر به المرء إذ ينظر من نافذة قطار أمريكي، فإنه هنا في أوروبا يشعر بفرح لا يوصف من التحقق والإشباع الحسي الفوري، كأن لا شـــيء في هذه الدنيا ســـوى الثراء والقوة والترف والحب وسائر المتع التي يستطيع أن ينعم بها الإنسان في هذه الحياة.

عندما انتهى الشـــاب من طعامه ودفع حسابه، قام ليسير عائداً عبر ممرات القطار المنطلق. وعندما عاد إلى عربته رأى الشبح ما يزال ممداً على المقعد كما كان عندما تركه، وأشعة القمر ما تزال تنعكس على وجهه الذي يشبه المنقار.

كان الرجل ما يزال على وضعه، لم يتزحزح يميناً أو شمالاً. ومع ذلك فقد شعر الفتى بتبدل مخيف في الرجل، إلا أنه لم يستطع تحديد ذلك التبدل، فجلس على مقعده ثم راح يطيل التحديق في ذلك الجسم الشبحي الساكن، وتساءل ما إذا كان يتنفس واعتقد بأنه رأى في صدره حركة صـــعود وهبوط وكاد يكون متأكداً من أنه رأى تلك الحركة، غير أنه لم يكن واثقاً من ذلك، ولكن ما رآه الآن بوضوح حقاً هو خط قد خرج من زاوية فمه المطبق، وبقعة كبيرة قرمزية اللون تبدو على الأرض قربه.

ماذا يفعل؟ ما الذي يمكن فعله؟ وبدا له أن نور القمر الســـحري قد اخترق روحه بســـحره وبسحر وهدوء جامد لا يقاس، وكان القطار قد بدأ بتخفيف سرعته، وبدت طلائع أنوار المدينة، وبذلك تنتهي رحلته.

هو ذا القطار قد تمهل في سيره استعداداً للوقوف. وفي المحطة كانت تتألق أنوار الخطوط الحديدية وســـاحة الرصيف، أنوار صـــغيرة براقة متلألئة، خضـــراء، وحمراء، وصفراء، مزّق بأنوارها ظلمة الليل، ورأى على الخطوط البعيدة عربات صغيرة للبضائع، وصفوفاً من القطارات الفارغة المظلمة تقف بتيقظ غريب بعد الذي بذلته من حيوية، ثم راحت أرصـــفة المحطة الطويلة

تنزلق بجانب القطار تباعاً. ثم رأى الحمالين الأقوياء وقد بدوا أشبه بالماعز، إذ اقتربوا مسرعين يحيون المســـافرين ويتحدثون إليهم وينادون عليهـــم، وكان هؤلاء قد بدؤوا بإخراج أمتعتهم من نوافذ القطار.

وتنـــاول الفتى معطفه وحقيبته بهدوء عن الرف الذي يعلـــو مقعده ثم خرج إلى ممر القطار، وأغلق باب العربة خلفه بســـكون، ووقف لحظة ينظر إلى باب العربة متردداً، وفي النور الخفيف كانت الجثة الطينية مستلقية فوق المقعد دون حراك.

أليس من الأحسن الآن أن يترك كل شيء على ما هو عليه؟ أليس من المحتمل في هذا الحلم الزمني العظيم الذي نحيا فيه أن لا يكون هناك شيء أكثر يقيناً من أننا قد التقينا وتحدّثنا وعرف كل منا الآخر لحظة؟ وبأن لقاءنا هذا قد تم وكأنه قد ألقى بنا إلى هذا العالم خلال الظلام، وبين نقطتين زمنيتين، فعلينا أن نرتضـــي بذلك، فيترك كل منا الآخر بعد أن يمر به، فيســـير كل منا وحيداً إلى نهايته المعينة؟ أو لســـنا بذلك نكون متأكدين من شـــيء واحد فحســـب هو السكون، مجرد السكون سيطبق علينا جميعاً، وبأن لا شيء في النهاية إلا السكون؟

كان القطار قد توقّف تماماً. وسار الفتى في ممر القطار حتى النهاية، وفي لحظة كان الهواء البارد يهب على وجهه فنزل من القطار وراح يتنشـــق ملء رئتيه الهواء المثقل بالحيوية وبصقيع الثلج. كان يسير على الرصيف بين مئة من الناس كلهم يسير في الاتجاه نفسه، بعضهم يقصد أرضـــاً جديدة، وأملاً وتوقاً، وبعضـــهم يقصد يقينية الوطن، يســـتحثهم على ذلك شعور مسبق بالفرح، وبشائر مدينة متألقة. أما هو فكان يعلم جيداً أنه إلى الوطن يسير...

❀ ❀ ❀

الهوامش

(١)- الفزاعة: دمية ينصبها المزارع لحماية زرعه من غارات الطيور.